المغتربون

ف. ج. زيبالد

رِوايَة

ترجمة:
أماني لازار



التنوير

الكتاب: المغتربون (DIE AUSGEWANDERTEN) / رواية
المؤلف: ف.ج. زيبالد (W.G. Sebald)
ترجمة: أماني لازار
عدد الصفحات: 248 صفحة
الطبعة الأولى: 2017

الترقيم الدولي: 978-977-6483-81-1
رقم الإيداع: 2016/19691

هذه ترجمة عربية مرخصة لكتاب:
DIE AUSGEWANDERTEN

دار التنوير للطباعة والنشر

مصر: القاهرة–وسط البلد–19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا)–
الدور 8 – شقة 82
هاتف: 0020223921332
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
لبنان: بيروت– بئر حسن – سنتر كريستال، الهزيم– الطابق الاول –
هاتف : 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

ف. ج. زيبالد

المغتربون

رواية

ترجمة

أماني لازار

التنوير

إحياء لذكرى جدِّي

قسطنطين لازار

أماني

(1)

د. هنري سِلوين

من كُتبتْ لهمُ النَّجاةُ أهلَكتْهُمِ الذَّاكرة



أواخر شهر أيلول عام 1970، قبيل استلامي وظيفتي في

«نوريتش»[1]، انطلقت بالسيارة إلى «هينغام»[2] بصحبة كلارا، بحثًا عن مكان نسكنه. امتدت الطريق مسافة 25 كم تقريبًا وسط الحقول وأسيجة من الأشجار، تحت أشجار البلوط المنتشرة، مرورًا ببعض الضِّياع المتناثرة، إلى أن تبدَّت «هينغام» أخيرًا، بجملوناتها غير المتماثلة وبرج الكنيسة وقمم الأشجار التي لا تكاد تعلو عن الأرض المنبسطة. كانت ساحة السُّوق الفسيحة موحشة تصطَّف فيها واجهات واجمةٌ، لكن مع ذلك وجدنا المنزل الذي وصفه لنا سماسرة العقارات سريعًا. أحد أكبر منازل القرية، يقع عند شارع فرعي هادئ بالقرب من الكنيسة بمقبرتها المكسوّة بالعشب وأشجار الصنوبر الأسكتلندي وشجر الطقسوس. كان المنزل مخفيًّا خلف جدار بارتفاع مترين وجنباتٍ كثيفة من الإيلكس والغار البرتغالي. سرنا على الدَّرب الخاص الفسيح المنحدر قليلًا وعبرنا السَّاحة الأمامية الممهّدة بالحصى. إلى اليمين، وراء الإسطبلات والمباني، تسامقت عدة شجرات من شجر الزَّان نحو سماء الخريف الصَّافية، كانت مستعمرة توالد غربان الروك[3] فيها مهجورة في ذلك الوقت المبكِّر من الأصيل، وحدها كتل الأعشاش المعتمة في ظِلَّة أوراق الشَّجر اضطربت بين فينة وأخرى. كان نبات فرجينيا المتسلّق يغطّي واجهة المنزل الكبير النيو-كلاسيكي. والباب مطلي باللون الأسود وعليه مقرعة نحاسية لها شكل سمكة. طرقنا عدة مرات، إلا

(1) مدينة نوريتش (Norwich) تقع على نهر وينسوم شرق إنكلترا وتعتبر مدن مقاطعة نورفولك ومركزها.
(2) بلدة ريفية تقع في قلب مقاطعة نورفولك.
(3) Rook: نوع من الطيور تنتمي إلى فصيلة الغربان.

أنه ما من علامة حياة داخل المنزل. تراجعنا قليلًا. تلألأت النوافذ ذات الإطارين المنزلقين حاجبةً الرؤية، كل إطار مقسَّم إلى اثني عشر لوحًا زجاجيًا، يظهر أنها مصنوعة من زجاج عاكس قاتم. المنزل يعطي انطباعًا بأنه غير آهل بالسُّكان. وتذكرت القصر في مقاطعة الشارانت[1] من إنغوليم الذي زرته سابقًا. شيَّد أمامه أخوان مجنونان - واحدٌ برلمانيّ، والآخر معماريّ - نسخةً مطابقة لواجهة قصر فرساي، تقليد لا معنى له على الإطلاق، ولو أنه يترك أثرًا قويًا من بعيد. كانت نوافذ ذلك المنزل تلمع مبهرة العين تمامًا كتلك التي للمنزل الذي كنا واقفين أمامه الآن. لا شك أننا كنا سنعود بخُفَّي حُنين لو لم نستجمع شجاعتنا، متبادلين واحدة من تلك اللمحات الخاطفة، لنلقي على الأقل نظرة على الحديقة. سرنا باحتراس حول المنزل. على الجانب الشمالي، حيث كان القرميد مخضرًّا بالنَّداوة وباللبلاب الموشَّى الذي غطى الجدران تقريبًا، يوجد ممر مكسو بالطحلب يحاذي مدخل الخدم وسقيفة الحطب. من خلال ظلال عميقة، تنكشف، كما لو عند منصَّة على مصطبة ذات درابزين حجريّ، تطلُّ على مرجةٍ فسيحة تربيعية الشكل تحيط بها أحواض الزهور وشجيرات وأشجار. إلى الغرب وراء المرج، انكشفت الساحات على مشاهد رحبةٍ تتناثر فيها فرادى أشجار الزيزفون والدردار وبلوط الزينة، ووراء ذلك امتدت تموّجات الأرض الزراعية الرقيقة وجبال من السحب البيضاء نحو الأفق. حدَّقنا بصمت إلى هذا المشهد الذي يجذب العين نحو البعيد وهو

(1) Charente: مقاطعة تقع جنوب غربي فرنسا سميت على اسم النهر الذي يمر فيها وعاصمتها إنغوليم.

يهبط ويعلو بالتدريج. نظرنا لوقت طويل، وفي ظننا أننا بمفردنا تمامًا، إلى أن لاحظنا هيئة ساكنة مستلقية في ظلِ رمته على المرج أرزةٌ باسقة في زاوية الحديقة الجنوب-غربية.

كان رجلًا مسنًّا يوسِّد رأسه بذراعه، وقد بدا مستغرقًا تمامًا في تأمل رقعة الأرض الواقعة أمام عينيه مباشرة. خطونا بخفة رائعة على العشب وعبرنا المرج باتجاهه. ما إن كدنا نصل إليه حتى لمحنا فنهض محرَجًا إلى حد ما. مع أنه كان طويل القامة وعريض المنكبين، إلا أنه بدا ممتلئ الجسم تمامًا، بل قصيرًا، ربما مردُّ هذا الانطباع يعود إلى طريقته في النظر، خافض الرأس، من فوق قمة نظّارة القراءة الذهبية الإطار. عادةٌ منحته مظهرًا مطأطئًا يكاد يكون توسّليًّا. كان شعره الأبيض مسرَّحًا إلى الخلف، لكن ظلّت بعض الخصل الطائشة تسقط على جبهته العالية الملفتة. قال معتذرًا عن ذهوله: «كنت أعدُّ أنصال العشب. إنها طريقتي في تزجية الوقت. أخشى أنها مزعجة إلى حدٍ ما». ردَّ إلى الخلف إحدى خصلات شعره الشائبة. بدت حركاته خرقاء ومتّزنة في آن، وكان هناك كياسة مماثلة، بأسلوب لم يعد معمولًا به منذ زمن بعيد، في طريقة تقديمه لنفسه على أنه الطبيب هنري سِلوين. تابع مستأنفًا كلامه، إننا لا شك أتينا من أجل الشَّقة. بقدر ما أمكنه القول، أوضح أنه لم يتم تأجيرها بعد، لكن علينا انتظار عودة السيدة سِلوين بما أنها المالكة، وحسبه أنه يعيش في الحديقة، أشبه بناسكٍ للزينة. تجوَّلنا أثناء المحادثة التي تبعت هذه الملحوظات الافتتاحية، على طول الدرابزين الحديد الذي يفصل الحديقة عن المتنزّه المفتوح. توقفنا موقتًا. كانت ثلاثة خيول رمادية ثقيلة الخطو تدور حول خميلة صغيرة من شجرِ جار الماء، تصهل وتطوِّح تربة المرج في خببها. وقفت

إلى جانبنا مترقّبة، قدم لها الدكتور سلوين الطَّعام من جيب سرواله، ملاطفًا خطومها فيما هو يفعل ذلك. لقد أحلتها على التقاعد، قال. اشتريتها العام الماضي من مزاد لقاء مبلغ صغير. وإلا كانوا بلا شك سيذهبون بها رأسًا نحو حظيرة تاجر الحيوانات[1]. أدعوها: هيرتشل، همفري، وهيبوليتس. لا أعرف شيئًا عن حياتها السابقة، لكن عندما اشتريتها كانت في حالة مزرية. كانت جلودها موبوءة بالقمل، وعيونها كليلة، وحوافرها متشقِّقة تمامًا من طول الوقوف في حقل رطب. لكن الآن، قال الدكتور سِلوين، تماثلت للشفاء إلى حد ما، وربما لا يزال أمامها عام تقريبًا. بذلك ودَّع الأحصنة التي كان ولعه بها بيّنًا، وتجوّل معنا نحو الأجزاء الأبعد من الحديقة، متوقفًا بين الحين والآخر، وقد أصبح أكثر صراحة وتفصيلًا في حديثه. عبر شجيرات على جانب المرج الجنوبي، أفضى درب إلى ممشى تصطف فيه أشجار البندق، حيث كانت سناجب رمادية تتشاقى في ظلال الأغصان العُلوية.



كانت أصداف البندق الفارغة مبعثرة بكثافة على الأرض،

(1) حيث تذبح الخيول وترسل مخلفاتها للتدوير، وهو مكان يختلف عن المسلخ حيث تذبح الحيوانات للاستخدام البشري.

وزعفران الخريف استولى على الضوء الواهن المتغلغل في الأوراق اليابسة التي تحدث حفيفًا. أفضى ممشى أشجار البندق إلى ملعب للتنس يحدّه جدار قرميديّ مبيَّض. قال الدكتور سِلوين: كان التنس شغفي العظيم. لكن الملعب الآن بحاجة إلى ترميم، مثله مثل كثير من الأشياء الأخرى هنا. إنها ليست مجرد حديقة مطبخ، تابع مشيرًا إلى البيوت الزجاجية الفيكتورية الطراز المتداعية والتعريشات المفرطة في النمو، تلك التي تبدو على الرمق الأخير بعد سنوات من الإهمال.



قال إنه أحسَّ على نحو متزايد بأنَّ الطبيعة نفسها كانت تتأوّه وترزح تحت وطأة ما أثقلنا به عليها. حقًّا، كانت الحديقة معدَّة في الأصل لتسدَّ حاجات أسرة كبيرة، وبالفعل وفّرت للمائدة الفاكهة والخضار على مدار السنة، بواسطة المهارة والدأب، ولا تزال رغم الإهمال تعطي الكثير، حتى إنه كان لديه ما يفوق حاجته من المتطلبات بكثير،

متطلبات كانت باعتراف الجميع تزداد تواضعًا أكثر فأكثر. كان لترك الحديقة المُعتنى بها جيدًا في السابق، على هواها، فائدته العرضية، قال الدكتور سِلوين، كان للأشياء التي لا تزال تنمو هناك، أو لما بذره أو زرعه كيفما اتفق تقريبًا، نكهة هو شخصيًّا وجدها لذيذة دائمًا على نحو استثنائي. مشينا بين أحواض الهليون بسيقانها الخضراء الطويلة حتى ارتفاع الكتف، وصفوف من نباتات الأرضي شوكي الضَّخمة، نحو مجموعة صغيرة من أشجار التفاح وفيرة الثمار بلونيها الأحمر والأصفر. وضع دكتور سِلوين دزينة من تفاح حكايات الجن هذا الذي يتمتّع حقًّا بمذاق أفضل من أي تفاح سبق أن تذوقته، على ورقة راوند، وأعطاها لكلارا، مشيرًا إلى أن هذا النوع يسمى «جمال باث[1]» على نحو يستحقه. بعد يومين من لقائنا الأول هذا مع الدكتور سلوين انتقلنا إلى منزل «برايورز غيت[2]». دلّتنا السيدة سلوين مساء أمس على المسكن المؤثث على طراز خاص، في الطابق الأول من الجناح الشرقي، لكنه بخلاف ذلك بهيجٌ وفسيحٌ. قررنا على الفور إمكانية قضاء بضعة أشهر هناك، طالما أن المنظر من النوافذ العالية عبر الحديقة الرحبة والغيوم المحتشدة في السماء كانت جميعها أكثر من تعويض جزيل عن الداخلِ المظلم. ليس على المرء سوى أن يتطلّع إلى الخارج، حتى يكفَّ صوان السُّفرة الضخم والقبيح على نحو مروِّع عن الوجود، ويتلاشى الطلاء الأصفر الخردلي اللون في المطبخ، ويبدو أن الثلاجة فيروزية اللون المزوَّدة بالغاز الذي له مخاطره ربما، تتبدّد في اللامكان، كما لو بمعجزة. كانت

(1) Bath: بلدة تقع جنوب غربي إنكلترا.
(2) Prior's Gate: وتعني بوابة رئيس الدير، لا يتضح من النص ما المقصود من الاسم، ربما يكون اسم الشارع الذي يقع فيه المنزل.

إيلي سلوين ابنة لمالك مصنع من «بييل» في سويسرا، وسرعان ما أدركنا أنها كانت موهوبة في إدارة الأعمال التجارية. سمحت لنا بإجراء تعديلات بسيطة على الشقَّة، لتتناسب مع ذوقنا. ما إن تمَّ طلاء الحمَّام باللون الأبيض (كان يقع في بناء ملحق ومقام على أعمدة من الحديد الصلب ولا يمكن الوصول إليه إلا من خلال جسر للمشاة)، حتى جاءت أيضًا لتعبِّر عن استحسانها لصنيعنا. حفَّزها المنظر غير المألوف على الإدلاء بتعليق مُلغز عن أنَّ الحمام الذي لطالما ذكّرها بالبيت الزجاجي عتيق الطراز، ذكَّرها الآن ببرج حمَام مطلي حديثًا، ملاحظة علقت في ذهني حتى هذا اليوم كحكم مدمّرٍ على أسلوب حياتنا، ولو أني لم أكن قادرًا على إجراء أي تغيير عليه. لكن هذه فكرة خارجة عن الموضوع. كان دخولنا إلى الشقة إما من خلال درج حديد قمنا بطلائه بالأبيض أيضًا، يصعد من الباحة إلى جسر الحمَّام، أو عبر باب مزدوج (في الطابق الأرضي) يفضي إلى ممر عريض، كانت جدرانه مزيَّنة، تحت السَّقف تمامًا، بنظام أجراس تشدُّ بالحبال. نظامٌ معقّد معدٌّ لاستدعاء الخدم. من ذلك الممر يمكن للمرء أن يتطلّع إلى المطبخ المعتم، حيث سيكون في أي ساعة من ساعات النهار وجه أنثوي يتعذّر تحديد عمره منشغلًا دومًا بحوض الجلي. إيلين، وهذا اسمها، قصّت شعرها قصيرًا حتى مؤخرة العنق، كما يفعل نزلاء المصحات النفسية. كانت ملامح وجهها وحركاتها تمنحها مظهرًا ذاهلًا، وشفتاها نديتين دومًا، وترتدي مئزرها الرمادي الطويل الذي يصل حتى كاحليها. ظلَّ العمل الذي تقوم به إيلين في المطبخ، يومًا بعد يوم، لغزًا بالنسبة لي ولكلارا. على حدِّ علمنا، ما من وجبة، كانت تُطهى هناك. عبر الرواق، على ارتفاع قدم تقريبًا عن الأرض الحجرية، كان هناك بابٌ في الجدار. يدخل المرء من

خلاله بيت درج معتم، وعلى كل طابق تجري ممرات مخفيَّة متشعّبة خلف الجدرانً، كي لا تتقاطع دروب الخدم الذين يهرعون جيئة وذهابًا من دون انقطاع محمَّلين بدلاء الفحم وسلال الحطب ومواد التنظيف ومفارش الأسرَّة وصواني الشاي، مع دروب أسيادهم أبدًا. حاولت كثيرًا أن أتخيّل ما يدور داخل رؤوس الناس الذين يعيشون حياتهم وهم يعرفون أنه خلف جدران الغرف التي يشغلونها، كانت ظلال الخدم على الدَّوام ترفرف بمحاذاتها. تخيّلت أنهم لا بد أن يكونوا خائفين من تلك المخلوقات الشَّبحية التي قامت بالمهمات الشّاقّة واجبة الأداء يوميًا مقابل أجور ضئيلة. كان المنفذ الأساسي إلى غرفنا عبر هذا الدَّرج الخلفي، عند أسفله صادف وجود الباب المقفل دومًا لمسكن إيلين. هذا أيضًا منحنا شعورًا بعدم الارتياح إلى حد ما. تمكَّنْت مرة واحدة فقط من إلقاء نظرة خاطفة، ورأيت أن غرفتها الصغيرة كانت مليئة بدمى لا تعد ولا تحصى، مكسوَّة بدقة بالغة، تعتمر معظمها القبعات، واقفة أو جالسة أو ممدّدة على السَّرير حيث تنام إيلين شخصيًا، إذا نامت، ولم تمضِ الليلة بطولها تدندن بهمس وهي تلعب بدُماها. أحيانًا في الآحادَ والعطل رأينا إيلين تغادر المنزل في الزي الخاص بجيش الخلاص. كانت غالبًا ما تلتقي بفتاة صغيرة ستمشي حينئذٍ إلى جانبها، وتمسك بيدها مطمئنة. استغرقنا فترة من الوقت كي نعتاد على إيلين. ما وجدناه مكدرًا على نحو خاص كانت عادتها المتقطعة، أثناء تواجدها في المطبخ، بالانفجار في ضحك غريب كالصَّهيل، بلا سبب ظاهر، يبلغ صوته الطابق الأول. أما غير ذلك، فإن إيلين، في ما عدانا، كانت الشّاغل الوحيد للمنزل الضَّخم المتواجد دومًا. كانت السيدة سِلوين تسافر بين الحين والآخر طوال أسابيع في كل مرة، أو كانت منشغلة

بعملها، بالنَّظر إلى العدد الكبير من الشقق التي تؤجّرها في البلدة وفي القرى المجاورة. كلما سمح الطقس، يخرج الدكتور سِلوين إلى الهواء الطلق، ولا سيما نحو صومعة مشيّدة من حجر الصَّوان في زاوية قصيَّة من الحديقة، سمَّاها «حماقته»[1] وأثثها بالأساسيات. لكن ذات صباح، تمامًا بعد أسبوع تقريبًا علي انتقالنا، رأيته واقفًا إلى جانب نافذة مفتوحة في إحدى غرفه المطلّة على الجانب الغربي للمنزل. كان يضع نظاراته ويرتدي جلبابًا من قماش الترتان ولفاعًا أبيض اللون. كان يسدد بندقية ذات سبطانتين طويلتين طولًا استثنائيًا نحو السَّماء. عندما أطلق النار أخيرًا، بعد وقت بدا لي طويلًا كالأبد، تردَّى الانفجار على الحديقة مُحدِثًا صوت تحطّم ساحق. شرح الدكتور سِلوين لاحقًا أنه كان يحاول معرفة ما إذا كانت البندقية المعدة في الأصل لصيد الطرائد الكبيرة والتي اشتراها منذ سنوات عدّة عندما كان شابًا، لا تزال صالحة بعد عقود من الهجر في غرفة ملابسه. منذ ذلك الوقت، بقدر ما استطاع أن يتذكّر، نظّفها وفحصها بضع مرات فقط. قال لي إنه اشترى البندقية إبَّان ذهابه إلى الهند لتسلّم عمله الأول كطبيب جراح. في تلك الأثناء، كان امتلاك مثل هذه البندقية واجبًا بالنسبة لرجلٍ من طبقته. حملها إلى الصيد مرة واحدة فقط، مع ذلك، تقاعس عن تدشينها في تلك المناسبة، كما كان ينبغي عليه أن يفعل. لذا كان يتساءل الآن ما إذا كانت لا تزال تعمل، وقد أثبتت أن الارتداد وحده كان كافيًا لقتل إنسان. خلافًا لذلك، كما قلت، كان دكتور سِلوين بالكاد يتواجد في داخل المنزل. عاش في صومعته، مانحًا عنايته الكاملة، كما قال لي مرارًا، للأفكار

(1) Folly: في العمارة، نوع من المباني تم بناؤه بالأساس بغرض الزينة والديكور، وذلك إما عبر إيحائه بمظهره أو بمجرد ظهوره ليكون مسرفًا بحيث يتجاوز المكان الذي ينتمي إليه المبنى.

التي، من ناحية زادت غموضًا يومًا بعد يوم، ومن ناحية ثانية أصبحت أكثر دقة ووضوحًا. أثناء إقامتنا في المنزل أتى شخص واحد لزيارته. حدث ذلك في الربيع، كما أظن، نحو نهاية شهر نيسان، وقد صادف أن إيلي كانت مسافرة إلى سنويسرا.



ذات صباح جاء الدكتور سِلوين ليخبرنا بأنه دعا إلى العشاء صديقًا كان مقرَّبًا منه لعدة سنوات، وإذا كان مناسبًا، سيسَرّ لو استطعنا أن نجعل من اجتماعهما الثنائي لجنة صغيرة[1]. نزلنا قُبيل الساعة الثامنة. في مواجهة برودة المساء الملحوظة كانت النار تتوهج في موقد غرفة الرَّسم الفسيحة، كانت الغرفة مفروشة بعدة

(1) بالفرنسية في الأصل: petit comité.

أرائك رباعية المقاعد وكراسٍ ثقيلة بمسندين. عاليًا على الجدران عُلّقت مرايا فيها بقعٌ معتمةٌ، مضاعفةً رفرفة ضوء النار وعاكسة صورًا متحركة. كان الدكتور سِلوين يضع ربطة عنق ويرتدي سترة من قماش التويد مع رقع جلدية على مرفقيها. وكان صديقه إدوين إليوت الذي قدَّمه لنا على أنه عالم نبات وحشرات شهير، رجلًا ذا بنية أكثر نحولًا من الدكتور سلوين، وبينما جنح الأخير إلى الانحناء، كان صديقه منتصب القامة. كان أيضًا يرتدي سترة من التويد[1] وياقة قميصه عريضة جدًا مقارنة بعنقه المهزول المغضَّن الذي انبثق منها على شكل أكورديون، مثل عنق بعض أنواع من الطيور أو السَّلاحف، كان رأسه صغيرًا، يبدو من عصر ما قبل التاريخ إلى حدٍّ ما، نوع من ارتداد إلى الأصل، مع ذلك لمعت عيناه بروح رائعة شفيفة. تحدثنا في البدء عن عملي وعن خططنا للسنة القادمة أو ما شابه، وعن انطباعاتنا، نحن القادمين من مناطق جبلية، عن إنكلترا، ولا سيَّما عن الامتداد المنبسط لريف نورفولك. حلَّ المساء. وقف دكتور سلوين وتقدَّمَنا ببعض الاحتفالية إلى غرفة الطعام المجاورة. على طاولة من خشب البلوط تتسع لجلوس ثلاثين شخصًا بكل سهولة، وُضع شمعدانان من الفضة. كانت الأماكن معدة لكل من الدكتور سلوين وإدوين عند رأسَيْ الطاولة، ولكل من كلارا ولي على الجانب الطولاني المواجه للنوافذ. عندئذٍ كان المنزل مظلمًا تقريبًا، من الداخل والخارج أيضًا، كانت الخضرة تزداد كثافة بالظلال العميقة الزرقاء. ضوء الغروب لا يزال ممتدًا في الأفق، مع ذلك ذكرتني تشكيلات جبال السُّحب الثلجية بالهضاب الصَّخرية الباسقة في جبال الألب، مع حلول الظلام. دخلت إيلين

(1) نوع من الأقمشة المنسوجة من الصوف.

تدفع عربة خدمة عليها أطباق ساخنة، تصميم يعود إلى الثلاثينات. كانت ترتدي مئزرها الرمادي بالطول الطبيعي وقامت بعملها بصمت كسرته فقط مرة أو مرتين لتتمتم بشيء بينها وبين نفسها. أشعلت الشموع وخرجت كما دخلت متثاقلة. دونما كلمة. خدمنا أنفسنا، ممررين الأطباق على طول الطاولة واحدنا إلى الآخر. تكوَّن طبق الطَّعام الأول من بضع قطع من الهليون الأخضر مغطاة بأوراق السبانخ المخللة حديثة النمو. كان الطبق الرئيس مؤلفًا من البروكولي المطهو بالزبد وبطاطا طازجة مسلوقة مع أوراق النعناع. قال لنا الدكتور سلوين إنه زرع البطاطا المبكرة في تربة رملية في أحد البيوت الزجاجية القديمة، حيث بلغت حجم جوزة أواسط شهر نيسان. اختتمت الوجبة بالرواند المطهوّ بالزبدة على نار هادئة منثور عليه سكر ديمرارا[1]. كان كل شيء تقريبًا من الحديقة المهملة. قبل أن ننتهي، وجَّه إدوين حديثنا نحو سويسرا، ربَّما ظنًا منه أن الدكتور سلوين وأنا سيكون لدينا ما نقوله حول الموضوع. وكان الدكتور سِلوين كذلك حقًّا، بدأ بعد بعض التردد يخبرنا عن إقامته في بِرن قُبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى. في صيف عام 1913، كان قد أنهى دراسة الطب في كامبريدج، وغادر للتو إلى بِرن وفي نيته أن يتدرَّب هناك. في مجرى الأحداث، اتخذت الأمور منحًى مختلفًا، وصار يمضي معظم وقته في بيرنيز أوبرلاند[2]، مأخوذًا أكثر فأكثر بتسلُّق الجبال. أمضى أسابيع متواصلة في مايرينغن[3]،

(1) علامة تجارية لمنتج من السكر البني فاتح اللون المصنوع من قصب السكر تعود أصوله إلى جزيرة غويانا.
(2) وهي الجزء الأعلى من مقاطعة برن.
(3) بلدة في برن في سويسرا.

وأوبيرار[1] بشكل خاص، حيث التقى بدليلٍ سياحي مختص بجبال الألب يدعى يوهانس نيجيلي، كان يبلغ حينها الخامسة والستين من العمر، منذ البداية أولع به للغاية. ذهب إلى كل مكان مع نيجيلي - تسلقا قمم زينجنستوك، شويشزرهورن، روزنهورن، لوتيرارهورن، شريكهورن، ايفيغشنيهورن-[2] ولم يشعر أبدًا في حياته، لا من قبل ولا من بعد، كما شعر حينها في رفقة ذلك الرجل. عندما اندلعت الحرب وعدْت إلى إنكلترا واستُدْعِيت إلى الخدمة العسكرية، قال الدكتور سلوين، لم يبدُ شيء صعبًا، كما أدرك الآن في استذكار للماضي، كقول كلمة وداعًا ليوهانس نيجيلي. حتى الانفصال عن إيلي التي التقيت بها في عيد الميلاد في بِرن وتزوَّجنا بعد الحرب، لم يتسبب لي ولو بقدر ضئيلٍ من الألم الذي شعرت به عند الانفصال عن نيجيلي. لا أزال أستطيع رؤيته واقفًا عند محطة في مايرينغن، ملوِّحًا.



(1) كتلة جليدية في جبال الألب السويسرية.
(2) أسماء قمم من سلسلة جبال الألب السويسرية.

لكن ربما حسبي أني أتخيل ذلك، تابع الدكتور سلوين بنبرة خفيضة مخاطبًا نفسه، طالما أن إيلي كانت تبدو لي غريبة بمرور السنوات، في حين بدا نيجيلي أقرب كلما خطر في بالي، بالرغم من أني لم أره ثانية أبدًا بعد ذلك الوداع في مايرينغن. ليس بعد وقت طويل من الاستنفار، ضلَّ نيجيلي طريقه من كوخ أوبيرار إلى أوبيرار نفسها. استنتج أنه وقع في صدع عميق في نهر آر الجليدي. وصلتني الأنباء في واحدة من تلك الرسائل الأولى التي تلقيتها عندما كنت مجنَّدًا، أُقيم في الثكنات، ودفعت بي نحو كآبة عميقة كادت تؤدي إلى تسريحي. كما لو أني كنت مدفونًا تحت الثَّلج والجليد. لكن هذه قصة قديمة، قال الدكتور سِلوين بعد وقفة طويلة. ينبغي علينا حقًّا، قال ملتفتًا إلى إدوين، أن نُري ضيوفنا الصور التي التقطناها في زيارتنا الأخيرة إلى جزيرة «كريت». عدنا إلى قاعة الاستقبال. كانت زنود الخشب تتقد في الظلمة. شدَّ الدكتور سلوين حبل الجرس عن يمين الموقد، وتقريبًا في الحال، كما لو أنها كانت تنتظر في الممر، دفعت إيلين عربة عليها جهاز لعرض الشرائح. أزيحت الساعة الكبيرة المطلية بالذهب على رفّ الموقد والتماثيل الصغيرة المصنوعة من خزف «مايسن[1]»، وراع وراعية وبربري يقلب عينيه يرتدي ثيابًا زاهية الألوان، ووُضعت الشاشة المؤطرة بالخشب التي جلبتها إيلين أمام المرآة. بدأ الطنين المنخفض للعارض، والغبار الخفيّ عادة في الغرفة لمع ورقص في شعاع الضوء على سبيل تقديم للصور نفسها. كانت رحلتهم إلى كريت في فصل الربيع. بدا المنظر الطبيعي للجزيرة مغطّى بلون أخضر فاتح وهو يمتد أمامنا. ظهر إدوين مرةً أو مرتين، مع منظار الميدان وإناء للعيّنات

(1) Meissen: بلدة في ألمانيا قرب درسدن.

النباتية، أو الدكتور سِلوين في سروال يصل حتى الركبة مع حقيبة كتف وشبكة لصيد الفراشات. واحدة من اللقطات ماثلت، حتى بتفاصيلها، صورة لنابوكوف في الجبال فوق «جشتاد[1]» اقتطعتها من مجلة سويسرية قبل بضعة أيام.



(1) Gstaad: قرية ينطق سكانها بالألمانية تقع في مقاطعة برن جنوب غربي سويسرا

بغرابةٍ تامةٍ، وبوضوح، بدا كل من إدوين والدكتور سلوين فتيين في الصور التي عرضاهاً لنا، ولو أنهما في ذلك الوقت الذي قاما فيه بالرحلة منذ عشر سنوات بالضبط، كانا في أواخر عقدهما السادس. شعرت بأن هذه العودة إلى ذواتهما السالفة، بالنسبة لكليهما، كانت مناسبة لبعض التأثر. لكن ربما بدا لي الأمر وحسب بتلك الطريقة لأنه لا إدوين ولا الدكتور سلوين كانا راغبين أو قادرين على قول أي شيء له علاقة بهذه الصور، في حين علّقا على الكثير من الصور الأخرى التي تظهر الحياة النباتية الربيعية على الجزيرة، وكل نوع من أنواع المخلوقات الزاحفة والطائرة. بينما كانت صورهما على الشاشة ترفّ قليلًا، ران صمت تام في الغرفة تقريبًا. رأينا في الصور الأخيرة امتداد هضبة «لاسيثي» منبسطًا أمامنا، ملتقطة من مرتفعات أحد الممرات الشمالية. لا بد أن الصورة التقطت نحو منتصف النهار، لأن الشمس كانت ساطعة في مرمى نظرنا. نحو الجنوب، علت قمة «سباثي» الشامخة، على ارتفاع ألفي متر، فوق الهضبة، مثل سراب خلف فيض الضوء. كانت حقول البطاطا والخضار عبر أرض الوادي الفسيح، والبساتين وأجمات أشجار أخرى، والأرض غير المحروثة، كلها مغمورة بأخضر على أخضر، ومرصّعة بالمئات من أشرعة طواحين الهواء البيضاء. جلسنا ننظر إلى هذه الصورة طويلًا بصمت أيضًا، طويلًا جدًا، حتى إن الزجاج في الشريحة تحطّم وتخلّل الشاشة صدع معتم. بقي منظر هضبة «لاسيثي» ذاك وقتًا طويلًا حتى تهشّم، ما ترك انطباعًا عميقًا عليَّ في ذلك الوقت، قبل أن يتلاشى لاحقًا من عقلي بشكل كامل تقريبًا. ولم تكد تمر بضع سنوات بعد ذلك حتى عاد إليَّ في صالة سينما في لندن، وأنا

أتابع محادثة بين «كاسبار هاوزر[1]» ومدرّسه، داومر، في حديقة المطبخ في بيت داومر. كان كاسبار، لبهجة معلمه الخاص، يميز للمرة الأولى بين الحلم والواقع. يبدأ روايته بالكلمات التالية: كنت في حلم، وفي حلمي رأيت القوقاز. تحركت الكاميرا حينها من اليمين إلى اليسار، في قوس واسع النِّطاق، عارضةً منظرًا عامًا لهضبة مطوَّقة بالجبال، هضبة ينظر إليها شخص شكله هندي، عليها أبراج تشبه المعبد المتعدّد الأدوار ومعابد بواجهات غريبة مثلّثة الشكل وسط الأشجار المتشابكة الخضراء والأحراج: «حماقات»، في ألق الضوء المتذبذب الذي ظلَّ يذكّرني بأشرعة طواحين الهواء تلك في لاسيثي التي لم أرها في الواقع حتى يومنا هذا.

انتقلنا من منزل «برايورز غيت» منتصف شهر أيار العام 1971. كانت كلارا، على نحو مرتَجَل، قد اشترت منزلًا ذات أصيل. في البداية افتقدنا المنظر، لكن بدلًا منه كان لدينا قَوْسَا صفصافتين أخضر ورمادي مدبَّبَيْ الرأس عند نوافذنا، وحتى في الأيام التي لم تكن تهبّ فيها ولو نسمة لم تكونا لتهدآ أبدًا. لم تكن الأشجار تبعد أكثر من خمسة عشر مترًا عن المنزل، وبدت حركة الأوراق قريبة جدًّا حتى إنه في بعض الأحيان، عندما يتطلّع المرء إلى الخارج، يمسّ جزءًا منها. زارنا الدكتور سِلوين بانتظام إلى حد ما، في بيتنا الذي كان منزلًا فارغًا تمامًا أو يكاد، جالبًا الخُضار والأعشاب من

(1) Kaspar Hauser: في آنسباخ (1812–1833)، شاب ألماني ادّعى أنه نشأ في عزلة تامة في زنزانة مظلمة. أثارت مزاعم هاوزر، ومصرعه طعناً لاحقًا، الكثير من النقاش والجدل. النظريات المطروحة آنذاك وصلته بالعائلة الأميرية في دوقية بادن الكبرى. الأمر الذي يرفضه المؤرخون المحترفون منذ فترة طويلة.

حديقته -الفاصولياء الصفراء والزرقاء، البطاطا المنظّفة بعناية، الأرضي شوكي، الثوم، المريمية، الكزبرة الخضراء والشَّبَت. في إحدى زياراته، وكانت كلارا في البلدة، تحدثنا أنا والدكتور سِلوين حديثًا مطولًا انطلاقًا من سؤاله عمَّ إذا شعرت يومًا بالحنين إلى الوطن. لم أستطع أن أجد أي جواب ملائم، لكن الدكتور سِلوين، اعترف (ما من كلمة أخرى تفي بالغرض) بعد وقفة للتفكير إن الحنين إلى الوطن في السنوات الأخيرة كان يضيِّق عليه الخناق أكثر فأكثر. عندما سألت عن المكان الذي كان يشعر بالانجذاب إليه، قال لي إنه غادر في عمر السابعة قرية قرب غرودنو في ليتوانيا مع عائلته. في أواخر خريف العام 1899، استقل مع والديه وأختيه غيتا وراجا، وعمه شاني فيلدهيندلر، عربة إلى غرودنو يملكها الحوذي «هارون والد». غابت صور ذلك الرحيل الجماعي عن ذاكرته لسنوات، لكنها كانت مؤخرًا، قال، تعود مرة ثانية وتجعل حضورها محسوسًا. لا يزال في وسعي رؤية المدرِّس الذي علّم الأطفال في «الشيدر»[1] التي ارتَدْتها لمدة سنتين حينئذ، واضعًا يده على مفرقي، ولا أزال أستطيع رؤية غرف منزلنا الفارغة. أرى نفسي جالسًا في أعلى مكان في العربة، أرى كفل الحصان، الأرض السمراء المترامية الأطراف، الإوزات بأعناقها الممدودة نحو وحول فناء المزرعة وغرفة الانتظار في محطة غرودنو، حيث كانت مدفأة مسيّجة، تمددت من حولها عائلات المهاجرين، تنشر في المكان حرارة خانقة. أرى أسلاك البرق تعلو وتهبط بمحاذاة نافذة القطار، واجهات منازل مدينة ريغا، والسفينة عند رصيف

(1) Cheder: مدرسة للأطفال اليهود يتم تعليمهم فيها اللغة العبرية وأصول الدين اليهودي.

الميناء والزاوية المعتمة على ظهر المركب حيث بذلنا قصارى جهدنا لنأخذ راحتنا في مثل هذا المكان الضيّق. أعالي البحار، وخيط الدخان، ولون السماء الرمادي في البعيد، وارتفاع وهبوط السفينة، والخوف والأمل في داخلنا. جميعها (أخبرني الدكتور سِلوين) يمكنني الآن أن أعيشها ثانية، كما لو أنها كانت البارحة. وصلنا إلى مقصدنا بعد نحو أسبوع، أسرع بكثير مما توقعنا. دخلنا مصب نهر واسع. كانت هناك سفن نقل كبيرة وصغيرة في كل مكان. امتدت الأرض منبسطة خلف الضفاف. تجمّع جميع المغتربين على ظهر مركب وكانوا ينتظرون ظهور تمثال الحرية من بين ركام الضباب، طالما أن كل شخص منهم حجز رحلة إلى Americum، كما كنا ندعوها. عندما ترجَّلنا من السفينة لم نكن نشك إطلاقًا بأننا نطأ أرض العالم الجديد، تراب المدينة الموعودة، نيويورك. لكن في الواقع، كما علمنا بعد بعض الوقت وأثار رعبنا ما علمناه، رسَونا عند شاطئ لندن (أبحرت السفينة مجددًا بعد فترة طويلة). تكيَّف معظم المغتربين مع الوضع مرغَمين، لكن البعض أصروا لوقت طويل على اعتقادهم بأنهم كانوا في أميركا بالرغم من أن جميع الدلائل كانت تشير إلى غير ذلك. وهكذا ترعرعت في لندن، في طابق سفلي في وايتشابل، في شارع غولستون. استعمل والدي، الذي كان صاقل عدسات، النقود التي جلبها معه لشراء حصة في متجر صانع نظارات يملكه رجل ريفي من غرودنو يدعى توسيا فيغيليز. التحقت بالمدرسة الابتدائية في وايتشابل وتعلمت الإنكليزية كما لو في حلم، لأني التهمت بشغف، وبحبٍّ صرفٍ، كل كلمة من شفتَيْ مُدرِّستي الشابة الجميلة، ليزا أوين. كنت في طريق عودتي إلى البيت من المدرسة أردّد كل ما قالته ذلك اليوم،

مرارًا وتكرارًا، مفكرًا بها وأنا أفعل ذلك. قال الدكتور سلوين، تلك المدرِّسة الجميلة شخصيًّا مكنتني من التقدم إلى امتحان دخول مدرسة التاجر تايلور، بدا أنها كانت مقتنعة بفوزي بالمنحة التعليمية التي كانت متاحة سنويًا لتلاميذ من عائلات أقل ثراء. وكما اتضح لم أخيّب ظنها بي. وكما أشار عمّي مرارًا، فإن الضوء في المطبخ في شقتنا المكوَّنة من غرفتين في وايتشابل، حيث أجلس بعد أن يخلد كل من والدي وأختَّي إلى النوم، لم يكن ينطفئ أبدًا حتى وقت متأخر من الليل. حفظت وقرأت كل شيء صادفته في طريقي، وتجاوزت أعظم العراقيل بسهولة متنامية. في نهاية سنواتي الدراسية، عندما توَّجت سنتي الأخيرة بالامتحانات، شعرت كما لو أني قطعت طريقًا هائلًا. كانت ثقتي في أوجّها، غيّرت اسمي الأول في نوع من مصادقة إضافية من هيرش إلى هنري، واسم عائلتي من سيويرن إلى سِلوين. الأمر الغريب تمامًا أني وجدت قدرتي على التعلم قد فترت مع شروعي في دراسة الطب (في كامبريدج بمساعدة منحة دراسية ثانية)، مع أن نتائج امتحاناتي كانت من بين أفضل الدرجات.

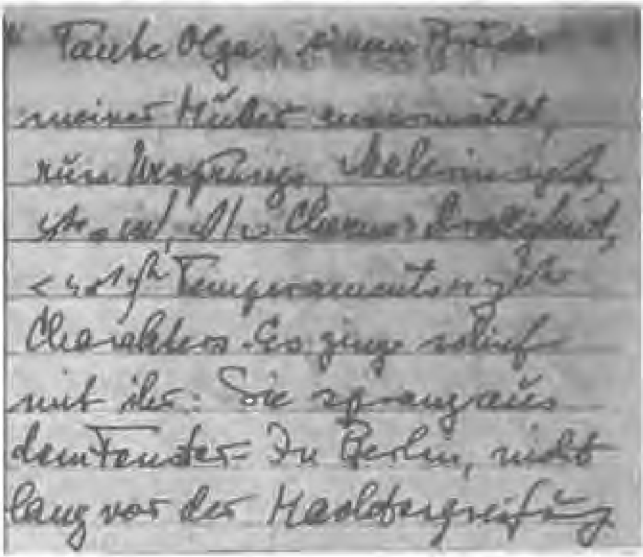
أنت تعرف الآن كيف جرت الأمور بعد ذلك، قال الدكتور سِلوين: السنة التي أمضيتها في سويسرا، الحرب، سنتي الأولى في الخدمة في الهند، وزواجي من إيلي التي أخفيت عنها أصولي طويلًا. عشنا في العشرينات والثلاثينات في نمط عيش ممتاز، لقد رأيت بنفسك ما الذي بقي منه. أنفق قدر كبير من ثروة إيلي بتلك الطريقة. حقًّا، لقد مارست الطبَّ في البلدة، وعملت طبيبًا جراحًا في المستشفى، لكن دخلي بمفرده لم يتح لنا يومًا مثل هذا الأسلوب من الحياة. كنا نتجوّل في أوروبّا خلال أشهر الصيف بالسيارة. إلى جانب التنس، قال الدكتور سلوين، كانت قيادة السيارات شغفي العظيم في تلك

الأيام. لا تزال السيارات جميعها في المرأب، وربما تقدَّر قيمتها بمبالغ طائلة الآن. لكن لم أكن يومًا قادرًا على حمل نفسي على بيع أي شيء، فيما عدا روحي ربما، في وقت من الأوقات. قال الناس لي مرارًا إن المال لم يعنِ لي شيئًا. أيضًا لم يكن عندي بعد النظر، قال، لأوفر المال وأضمن لشيخوختي معاشًا تقاعديًا. لهذا السبب أنا الآن متسولٌ فعليًّا. من جهة أخرى، استغلت إيلي جيدًا القليل الذي بقي من ثروتها، ولا بد أنها الآن امرأة ثرية بلا ريب. لا أزال لا أعرف على وجه اليقين ما الذي أدى بنا إلى الانفصال، هل هو المال أو كشف سر أصولي، أو ببساطة انحسار الحب. كانت بالنسبة لي سنوات الحرب العالمية الثانية، والعقود التي تلتها، أوقاتًا عصيبة، لا يمكنني أن أقول عنها شيئًا حتى لو رغبت في ذلك.

عام 1960، عندما توجّب عليَّ التخلي عن مزاولتي للمهنة وعن مرضاي، قطعت آخر خيط يربطني بما يسمونه العالم الواقعي. ومنذ ذلك الحين، كانت النباتات والحيوانات أصحابي الوحيدين تقريبًا. أبدو بشكل من الأشكال أني أنسجم معها جيدًا، قال الدكتور سِلوين بابتسامة ملغزة، وأومأ إيماءة كانت مستغربة جدًا منه وهو ينهض. مدَّ لي يده مودّعًا.

قلَّت زيارات د. سِلوين لنا بعد تلك الزيارة وصارت أكثر تباعدًا. كانت المرة الأخيرة التي رأيناه فيها يوم جلب لكلارا باقة ورود بيضاء وغصون من شجيرة «صريمة الجدي»، قبيل مغادرتنا لقضاء عطلة في فرنسا. بعد عدة أسابيع، في أواخر ذلك الصيف، انتحر برصاصة من بندقية الصيد الثقيلة. كان قد جلس على حافة سريره (علمنا ذلك عند عودتنا من فرنسا) واضعًا البندقية بين ساقيه، وفوَّهة البندقية عند أسفل فكه، وحينها، أطلق النار بنيّة القتل لأول

مرة منذ أن اشترى البندقية قبل رحيله إلى الهند. عندما تلقينا النبأ، لم أجد مشقة كبيرة في تجاوز الصَّدمة الأولية.


Tante Olga, ...
...
Charakter. Es ging schief
mit ihr: Sie sprang aus
dem Fenster. In Berlin, nicht
lang vor der Machtergreifung

لكنّ مع ازدياد وعيي كانت أشياء بعينها تعود على غفلة، غالبًا بعد غياب طويل. أمضيت في سويسرا بضعة أيام أواخر شهر تموز من عام 1986. في صباح الثالث والعشرين منه ركبت القطار الذاهب من زيورخ إلى لوزان. عندما أبطأ القطار سيره لعبور الجسر على نهر آر، مقتربًا من بِرن، حدقت في الطريق خلف المدينة نحو جبال أوبرلاند. حينها، على ما أذكر، أو ربما أتصوَّر وحسب، عادت ذكرى الطبيب سِلوين إليَّ للمرة الأولى بعد مدة طويلة. وبعد ثلاثة أرباع الساعة، غير راغب بتفويت المنظر حول بحيرة جنيف الذي لم يتوقّف يومًا عن إدهاشي كلما انكشف أمامي، كنت للتو أضع جانبًا صحيفة لوزان التي اشتريتها في زيوريخ عندما وقع نظري على

تقرير يقول إنه عُثر على رفات الدليل السياحي إلى جبال الألب في برن، يوهانس نيجيلي، المفقودة منذ صيف عام 1914، عند كتلة أوبيرار الجليدية، بعد اثنتين وسبعين سنة. وهكذا يعود الموتى إلينا أبدًا. أحيانًا يعودون من الجليد بعد مرور أكثر من سبعة عقود ويُعثر عليهم عند حافة الركام الجليدي، بعض عظامٍ صقيلة وفردتَا حذاء مسمَّرتا النعلَيْن.

(2)

بول بيرايتر

هناك غشاوةٌ ليس في وسع عين أن تبدّدها



في شهر كانون الثاني من عام 1984، بلغتني أخبار من «س» مفادها أنه في مساء الثلاثين من كانون الأول، بعد مضي أسبوع على عيد ميلاده الرابع والسبعين، وضع بول بيرايتر الذي كان مدرّسي في المرحلة الابتدائية، حدًّا لحياته. ليس بعيدًا عن «س»، حيث ينعطف

مسار السكة الحديد من أيكة صفصاف نحو الحقول المكشوفة، تمدّد أمام قطار. عنونت الصحيفة المحلية نعيها: «أسفٌ على فقد مدرّس شهير»، ولم تذكر أن بول بيرايتر انتحر بملء إرادته، أو جراء دافعٍ ذاتيّ التدمير لا يقاوَم. تحدَّثت فحسب عن خدمات الرجل المتوفى في التربية، وعنايته المكرَّسة لتلاميذه بما يتجاوز نداء الواجب، وحبَّه العظيم للموسيقى، وابتكاراته المدهشة، والكثير من أشياء أخرى في الإطار نفسه. أضاف النعي على سبيل تعليق جانبي تقريبًا، من دون شرح إضافي، أن بول بيرايتر مُنع أثناء «الرايخ الثالث» من ممارسة مهنته المفضَّلة. هذه الملحوظة منفصلة الصلة وغير الهامة على نحو يثير الفضول، وطريقة موته العنيفة، أفضت بي في السنوات التي تلت، للتفكير أكثر فأكثر ببول بيرايتر، إلى أن توجب علي في النهاية تجاوز ذكرياتي المولعة به كثيرًا لأكتشف القصة التي لا أعرفها. أعادتني تحرياتي إلى «س» التي قلَّت زياراتي لها تدريجًا منذ مغادرة المدرسة. سرعان ما علمت أن بول بيرايتر استأجر هناك مسكنًا قُبيل وفاته، فِي منزل بُنِيَ عام 1970 على الأرض التي كان مُقامًا عليها سابقًا مشتلًا لبيع الأغراس يملكه «داغوبيرت ليرشينميلر» لكنه نادرًا ما أقام فيه. وكان يُعتقد بأنه خارج البلاد في أغلب الأحيان، لم يعرف أحد وجهة سفره بالضبط. إن غيابه المستمر عن البلدة، وسلوكه الغريب على نحو متزايد الذي تبدَّى لأول مرة قبل بضع سنوات من اعتزاله، منحه شهرة غريب الأطوار. هذا الصيت، مهما يكن من كفاءته التربوية المحققة، علقَ ببول بيرايتر لمدة لا يُستهان بها من الوقت. وبقدر ما كان الأمر متعلّقًا بوفاته، أكَّد الاعتقاد بين سكان «س» (الذين ترعرع بول بيرايتر بين ظهرانيهم وعاش دومًا، وإن يكن مع بعض

الانقطاعات) على أن الأشياء حدثت كما كان مقيَّضًا لها أن تحدث. لم تكشف المحادثات القليلة التي أجريتها في «س» مع أناس عرفوا بول بيرايتر عن الكثير، والأمر الوحيد الذي بدا لافتًا كان أنه ما من أحد دعاه باسم بول بيرايتر أو حتى بيرايتر المدرس. كان يشار إليه دومًا عوضًا عن ذلك، باسم بول وحسب، ما منحني انطباعًا أنه في عيون معاصريه لم يكبر حقًّا أبدًا. تفطنت حينئذٍ كيف كنا دومًا نذكره باسم بول فقط في المدرسة، ليس من دون احترام لكن بالأحرى كما قد يذكر المرء أخًا أكبر يُقتدى به، وهذا استلزم بطريقة ما أنه كان واحدًا منا، أو أننا كنا ننتمي بعضنا لبعض. كان هذا، كما فهمت، من بنات أفكارنا وحسب، لأنه حتى لو أن بول عرفنا وفهمنا، لم نكن نملك من جانبنا إلا فكرة صغيرة عنه أو عمَّ كان يدور في خَلَده. وهكذا، متأخّرًا، حاولت التقرب منه، لأتخيل كيف كانت حياته في تلك الشَّقة الواسعة في الطابق الأعلى من منزل «ليرشينميلر» القديم الذي كان يقع سابقًا، حيث العمارة السكنية الحاليّة الآن، وسط مصفوفة من رقع النباتات الخضراء وأحواض الزهور الملونة في الحدائق، حيث في كثير من الأوقات قدم بول المساعدة عند الأصيل. تخيلته يتمدّد في الهواء الطَّلق على شرفته حيث ينام غالبًا في الصيف، وعدد وافر من النجوم يغطّي وجهه. تخيّلته يتزلّج في الشتاء، وحيدًا على بُرك السَّمك في «موزباخ»[1]، وتخيّلته ممددًا على السِّكة. كان كما تصورته، قد خلع نظارته ووضعها على الحصى إلى جانبه. كانت الحزم الفولاذية اللماعة، العوارض الخشبية، وأشجار الراتينج على منحدر التلة فوق قرية «التشتادن»، وقوس الجبال التي عرفها جيدًا جدًا، مضببةً أمام عينيه الحسيرتين،

---

(1) مدينة تقع في إقليم بافاريا في ألمانيا.

ملطخة في الغسق المحتشد. أخيرًا، مع اقتراب الصَّوت المدوِّي، كان كل ما رآه سماء رمادية يغشاها الظلام وفي وسطها الصور الظلِّية لثلاثة جبال ناصعة البياض: كراتزر، تريتاخ، وهيميلشروفن، حادةً كالإبر. كان عليَّ الاعتراف بأن هذه المساعي لتخيل حياته وموته لم تقرّبني من بول ولو قليلًا، إلا في لحظات عاطفية وجيزة، من نوع بدا لي مجترئًا، في أفضل الأحوال. ورغبةً في تفادي هذا النوع من الانتهاك الجائر دوَّنت ما أعرفه عن بول بيرايتر.

انتقلت عائلتي في شهر كانون الأول عام 1952 من قرية «و» إلى بلدة صغيرة تبعد عنها 19 كم تدعى «س». بدت الرحلة -التي حدَّقتُ أثناءها من مقصورة شاحنة شركة «آلبن فوغل»[1] الخمرية اللون لنقل الأثاث، بصفوف الأشجار اللانهائية المكسوَّة بالجليد السَّميك إلى حد بعيد على امتداد جانبي الطريق، وتنبلج أمامنا من سديم الصباح القاتم -مثل رحلة حول العالم في منتصفها، ولو أنها لم تطل أكثر من ساعة على أحسن تقدير. أخيرًا عندما عبرنا بصعوبة جسر (Ach)[2] نحو «س» التي لم تكن في ذلك الوقت سوى بلدة صغيرة ربما يبلغ عدد سكانها تسعة آلاف نسمة، استبدَّ بي شعور قوي بأن حياة جديدة زاخرة بضجيج المدن تنتظرنا هناك. أسماء الشوارع من المينا الأزرق، الساعة الضخمة أمام محطة القطار القديمة، وما بدا لي حينها الواجهة الرائعة بحق لفندق ويتلسباخر هوف، كانت جميعها، كما شعرت، إشارات تدلّ على بداية جديدة. فكرت أن صفوف المنازل التي كانت تتخلّلها هنا وهناك رقع من

---

(1) Alpenvogel: وتعني طائر الألب.

(2) Ach: تعني بالعامية في جنوب ألمانيا، النمسا وسويسرا، النهير أو الجدول وبالتالي هناك الكثير من النهيرات تحمل هذا الاسم.

الأرض القفر قامت عليها مبانٍ مهدمة، مبشّرة بالخير بشكل خاص، لأني منذ أن زرت ميونيخ لم أشعر بشيء مرتبط بكلمة «مدينة» بشكل شديد الوضوح مثل وجود أكوام الأنقاض، وجدران أكلتها النيران، وفجوات النوافذ التي يمكن للمرء أن يرى من خلالها الهواء الفارغ.

هبطت درجات الحرارة عند وصولنا في فترة ما بعد الظهر. هبَّت عاصفة ثلجية عاتية استمرت بقية اليوم ولم تسكن إلا مع حلول الظلام متحوّلة إلى ثلوج تتهاطل بهدوء. عندما ذهبت إلى المدرسة في «س» للمرة الأولى صباح اليوم التالي، كان الثلج سميكًا جدًا حتى إني شعرت ببعض الابتهاج لمرآه. التحقت بالصف الثالث الذي كان بول بيرايتر يقوم على تدريسه. هناك وقفت، مرتديًا كنزتي الصوفية بلونها الأخضر الداكن وعليها أيل واثب، أمام واحد وخمسين تلميذًا، جميعهم يحدّقون بي بأعظم درجات الفضول، وسمعت بول يقول كما لو من بعيد، بأني وصلت في اللحظة المناسبة تمامًا، بما أنه كان في اليوم السابق يروي قصة قفزة الأيل، والآن يمكن نسخ صورة الأيل القافز المشغولة في نسيج كنزتي، على السَّبورة. طلب مني أن أخلع الكنزة وأجلس في الصف الأخير بجانب فريتز بينسفنغر موقّتًا، بينما هو، مستعملًا صورة الأيل القافز، سيُرينا كيف يمكن تقسيم صورة إلى عدد كبير من أجزاء متناهية في الصغر -صلبان صغيرة، مربعات أو نقاط -أو تجميعها منها بدلًا من ذلك. مباشرة كنت منكبًّا على دفتري بجانب فريتز، أنسخ الأيل الواثب عن السبورة على ورقتي ذات الخطوط المتشابكة. فريتز أيضًا الذي كان راسبًا في الصف الثالث (كما علمت سريعًا) كان يبذل قصارى جهده، ومع ذلك كان تقدمه بطيئًا بما لا يقاس. حتى

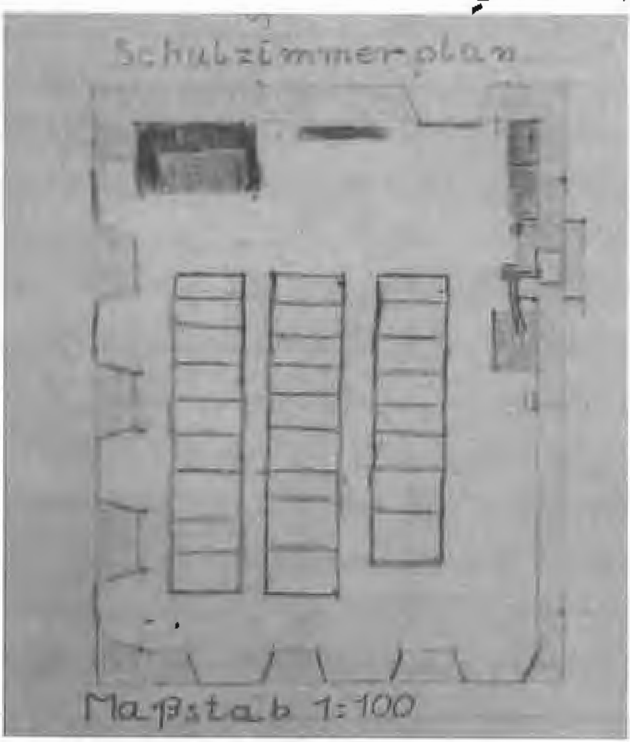
عندما كان هؤلاء الذين بدأوا متأخرين قد انتهوا منذ وقت طويل، كان لا يزال لديه أكثر من اثني عشر صليبًا بقليل على صفحته. تبادلنا النظرات الصامتة، وبسرعة أكملت قطعة عمله المجزأة. من يومها، خلال ما يقارب السنتين اللتين جلسنا فيهما جنبًا إلى جنب، نفَّذت معظم فروضه الحسابية وكتاباته وتمارينه في الرسم. كان فعل ذلك في غاية السهولة، وعلى نحو متواصل، إذا جاز القول، لا سيما لأن فريتز وأنا كان لنا نفس الخط الرديء المتعذر إصلاحه (كما كرر بول دومًا، هازًا رأسه)، مع فارق وحيد هو أن فريتز لم يتمكّن من الكتابة بسرعة وأنا لا أستطيع الكتابة ببطء. لم يعترض بول على عملنا معًا، أجل، ولتشجيعنا فضلًا عن ذلك، علَّق خزانة الخنافس على الجدار بجانب منضدتنا. كان لها هيكل عميق مملوء بالتراب حتى منتصفه. كان، إلى جانب زوج من الخنافس المتلفة للنبات، قد ألصق عليها رقعة مكتوب عليها بخط ألماني قديم (Melolontha vulgaris)، وحضنة بيض، وخادرة ويرقة، وفي الجزء العلوي، كانت الخنافس تفقس، وتطير، وتأكل أوراق شجر التفاح. تلك الخزانة التي تشرح تحوّل الخنفساء الغامض، ألهمتني وفريتز في أواخر الربيع للقيام بدراسة مكثفة عن الطبيعة الكاملة للخنافس بما في ذلك فحص تشريحي بلغ أوجه في طهو وأكل يخنة الخنافس. في الواقع إن فريتز -وهو ابن لعائلة كبيرة من عمال المزارع في شوارزينباخ، وبقدر ما كان معروفًا لم يكن لديه مطلقًا أب حقيقي -كان مهتمًا في كل شيء يتصل بالطعام وتحضيره وتناوله، بالغ الاهتمام. سيسهب كل يوم في حديث مفصل عن نوعية الشطائر التي جلبتها وتقاسمتها معه، وفي طريق عودتنا إلى البيت من المدرسة كنَّا نتوقّف دومًا لننظر إلى واجهة محل «تورّا» لبيع الأطعمة المعلبة، أو للنظر إلى

معروضات مركز إينسيدلر التجاري لبيع الفاكهة المستوردة، حيث كان الجاذب الأساسي حوض لسمك الترويت أخضر داكن اللون والهواء يبقبق في الماء. في إحدى المرات عندما أطلنا الوقوف أمام متجر إينسيدلر، ظهر إينسيدلر المسنّ شخصيًا من المدخل الظليل الذي انبعثت منه برودة لطيفة في تلك الظهيرة الأيلولية، في العتبة وقدَّم لكل واحد منا ثمرة أفوكادو بيضاء. هذا شكَّل معجزة حقيقية، ليس فقط لأن الفاكهة كانت من النَّوادر الرائعة، لكن بشكل أساسي لأن إينسيدلر كان مشهورًا بميله إلى الغضب، رجل لم يحتقر شيئًا قدر احتقاره خدمة الزبائن القليلين الذين لا يزالون يتردّدون عليه. أسرَّ لي فريتز وهو يأكل الأفوكادو أنه ينوي أن يصبح طاهيًا، ولقد أصبح كذلك حقًّا، يمكن للمرء أن يقول من دون مبالغة بأنه يتمتع بشهرة عالمية. لقد أتقن مهاراته المطبخية في فندق دولدر الكبير في زيوريخ وفي فندق فيكتوريا يونغفراو في إنترلاكن، وكان في ما بعد مطلوبًا في نيويورك كما في مدريد ولندن. التقينا ثانية عندما كان في لندن، ذات صباح نيساني العام 1984، في غرفة قراءة المتحف البريطاني، حيث كنت أبحث في تاريخ حملة بيرينغ[1] إلى آلاسكا، وكان فريتز يقرأ كتب الطهو الفرنسية من القرن الثامن عشر. بالمصادفة، لم يكن يفصل بيننا سوى ممر واحد، وعندما حدث أن رفعنا بصرنا عن عملنا في اللحظة نفسها تعرّف في الحال واحدنا على الآخر على الرغم من مرور ربع قرن. في المقصف تبادلنا رواية قصص حياتنا وتحدثنا طويلًا عن بول الذي تذكّر فريتز عنه بشكل أساسي أنه لم يره يومًا يتناول الطعام.

---

(1) Vitus Jonassen Bering: (1681– 1741) مستكشف دانماركي.

كان يوجد في غرفة صفّنا، التصميم الذي كان علينا أن نرسم صورة مصغرة عنه في دفاترنا، ستة وعشرون منضدة تم تثبيتها بإحكام بواسطة براغٍ على الأرضيات المدهونة بالزيت.



من مكتب المدرِّس المرتفع، ومن خلفه تمثال المسيح المصلوب معلّق على الجدار، يمكن للمرء أن ينظر إلى رؤوس التلاميذ في الأسفل، لكن لا أستطيع أن أتذكّر أن بول شغل يومًا ذلك الموقع البارز. إذا لم يكن إلى السبورة أو عند خريطة العالم المشقوقة المصنوعة من القماش المشمّع، فإنه يتمشّى بين صفوف المقاعد، أو يتكئ بذراعين مطويتين إلى الخزانة بجانب الموقد

المكسو بالآجر الأخضر. مع ذلك كان مكانه المفضّل بجانب إحدى النوافذ المطلَّة على الجنوب والمولَجة في ثغور عميقة في الجدار. خارج تلك النوافذ، من بين أغصان بستان التفاح القديم عند معمل تقطير فراي، تظهر أعشاش الزرازير على أعمدة خشبية طويلة والسماء التي كانت محددة في البعيد بخط وادي «ليختال» الألبي المسنن، المغطّى بالثلوج طوال أيام السنة الدراسية تقريبًا.

هورماير، المدرّس الذي سبق بول وكان مرهوبًا بسبب نظامه عديم الرحمة إذ كان على المخالفين الركوع لساعات على قوالب خشب حادة الحواف، موَّه النوافذ جزئيًا حتى لا يتمكن الأطفال من النظر إلى الخارج. وكان أول ما فعله بول عندما تسلّم الصفّ عام 1946، هو إزالة المادة البيضاء بخدشها جاهدًا بشفرة حلاقة، مهمة لم تكن ملحة في الحقيقة طالما أن بول كان في أيّ حال اعتاد على فتح النوافذ على اتساعها، حتى عندما كان الطقس سيئًا، وحتى في برد الشتاء القارس، مقتنعًا بحزم أن نقص الأوكسجين يفسد القدرة على التفكير. كان أكثر ما أحبَّه، عندئذٍ، هو الوقوف في إحدى تلك الواجهات الزجاجية عند مقدمة الغرفة، من جهة مواجهًا التلاميذ ومن جهة أخرى ملتفتًا لينظر إلى الخارج، وجهه مرفوع قليلًا إلى الأعلى وضوء الشمس يتلألأ على نظارته، ومن ذلك الموقف المشرف على المكان سيتحدث إلينا بعبارات متينة، خالية من أثر للَّهجة العامية في حديثه لكن مع إعاقة طفيفة في الكلام أو الجَرْس، كما لو أن الصوت لم يكن خارجًا من الحنجرة، بل من مكان ما قرب القلب. منح هذا في بعض الأحيان شعورًا بأن كل شيء في داخله كان مدارًا بنظام رتيب وأن بول في كليته كان انسانًا آليًا مصنوعًا من الصفيح ومن أجزاء معدنية أخرى، وإن أصغر عقبة وظيفية قد توقفه

عن العمل إلى الأبد. كان يمرّر يده اليسرى في شعره وهو يتحدّث، فتبقى هكذا باستمرار، مؤكدًا بشكل مثير على ما قاله. لم يكن من النادر أن يخلع وشاحه أيضًا، ويبصق عليه تعبيرًا عن غضب مما اعتبره حماقتنا العنيدة (ربما ليس بغير وجه حق). بعد نوبات غريبة من هذا النوع كان يخلع نظارته دومًا ويقف غير مبصر وأعزلَ وسط الصف، ينفخ على العدسات ويمسحها بإمعان حتى يبدو أنه مسرور لأنه لن يرانا لفترة من الوقت.

اشتمل تدريس بول على المنهاج الدراسي المقرر في ذلك الحين للمدارس الابتدائية: جداول الضرب، مبادئ علم الحساب، الخط اللاتيني والخط الألماني، دراسة الطبيعة، التاريخ وعادات وادينا، الغناء، وما كان معروفًا باسم التربية البدنية. مع ذلك لم يكن بول يدرّس مادة التعليم الديني، بدلًا من ذلك، كان لدينا مرة في الأسبوع، أولًا مدرِّس التعليم المسيحي ماير (Meier) الذي يتلعثم، ثم «المستفيد»[1] ماير (Meyer) الذي كان يتحدّث بصوت مدوٍّ، وهو يعلّمنا معنى الخطيئة والاعتراف، ودستور الإيمان المسيحي، والتقويم الكنسي، والخطايا السبع المميتة، والمزيد من هذا النوع.

بول الذي كان يشاع عنه أنه حرّ التفكير، وهو أمر لطالما وجدته عصيًّا على الفهم، تمكّن دومًا من تجاوز كلًا من ماير بحرف (i) أو ماير بحرف (y) عند بداية دروسهما الدينية ونهايتها، لأنه لم يجد شيئًا أشد كرهًا من التظاهر بالورع الكاثوليكي. وعندما يعود إلى الصف بعد هذه الدروس ليجد «مذبح حضور المسيح» مرسومًا بالطبشور الأرجواني على السبورة، أو كأس القربان المقدس

(1) صاحب رتبة دينية ذات دخل.

بالأحمر أو الأصفر، أو أشياء أخرى من هذا القبيل، يمسح في الحال الأعمال الفنية المزعجة بهمَّة واضحة ودقّة متناهية. دومًا قبل دروسنا الدينية، كان بول يملأ جرن الماء المقدس المزيَّن بقلب مقدس ملتهب الذي كان مثبتًا عند الباب، حتى حافّته، (غالبًا ما رأيته يفعل ذلك) مستعملًا وعاء الريّ الذي كان يسقي به عادة نبتة الجيرانيوم. لهذا، لم يتمكن «المستفيد» يومًا من صبِّ زجاجة الماء المقدّس التي يحملها معه دومًا في محفظته المصنوعة من جلد الخنزير الأسود اللمّاع. لم يتجرّأ ببساطة على رمي الماء من الجرن المقدس، وهكذا، في مسعاه لتعليل القلب الأقدس الذي لا ينضب كما يبدو، كان ممزقًا بين شكوكه في أن حقدًا ممنهجًا له علاقة بالأمر وبين الأمل المتردّد عن أن هذه كانت إشارة من مكان عُلوي، ربما أعجوبة حقًّا. مع ذلك، بلا ريب، كان كلًّا من «المستفيد» ومدرِّس التعليم المسيحي يعتبران بول روحًا ضالّة، لأنهما طلبا منَّا أكثر من مرة الصَّلاة على نية مدرِّسنا كي يهتدي إلى الإيمان الصحيح. كان كره بول لكنيسة روما أكثر من مجرد مسألة معتقد، مع ذلك، كان مرعوبًا رعبًا صادقًا من القساوسة ورائحة النفتلين التي تنبعث منهم. هو لم يكتفِ فقط بعدم الذهاب إلى الكنيسة أيام الآحاد، لكنه تعمَّد مغادرة البلدة، ذاهبًا أبعد ما يمكنه نحو الجبال، حيث لا يصله صوت الأجراس. إذا لم يكن الطقس مناسبًا سيمضي صباحات الأحد بصحبة كولو الإسكافي الذي كان فيلسوفًا مجاهرًا بإلحاده مستغلًا يوم الرب، إذا لم يكن يلعب الشطرنج مع بول، كمناسبة للعمل على كتيبات وكراريس ضد «الكنيسة الحقيقية الوحيدة». (أتذكّر الآن) أني شهدت مرة لحظة انتصر كره بول للنفاق من أي نوع نصرًا لا جدال فيه على الصبر الذي تحمله عمومًا النقائص الفكرية للعالم

الذي عاش فيه. كان يجلس أمامي في الصف تلميذ يدعى «إيوالد ريز» وقع تمامًا تحت سطوة مدرّس التعليم المسيحي وأبدى درجة من الورع المبالَغ فيه -سوف لن يكون ظالمًا القول- متفاخرًا، على نحو لا يُصدَّق البتة من ولد لم يتجاوز عمره عشر سنوات. بدا إيوالد ريز حتى في هذا العمر الصغير، مثل قسٍّ كامل النضج. كان الولد الوحيد في المدرسة برمّتها الذي ارتدى معطفًا، يتممه وشاح أرجواني مطويّ إلى الأعلى عند صدره ومثبّت بدبوس أمان كبير. ريز الذي لم يكن رأسه يومًا مكشوفًا (حتى في حرِّ الصيف ارتدى قبعةً من القشّ أو من قماش الكتان الخفيف)، خطر لبول بقوة كبيرة بأنه مثال ممقوت للغاية على الحماقة الفطرية والمكتسَبة معًا، حتى إنه ذات يوم عندما نسي الفتى أن يحييه برفع قبعته له في الشارع نزع بول القبعة عن رأسه، وشد أذنه، ثم وضع القبعة على رأس ريز موبِّخًا إياه بأنه ينبغي حتى على قسيس مستقبلي أن يحيي مدرِّسه بتهذيب عندما يلتقيان.

أمضى بول ربع ساعة على الأقل من جميع حصصه في تدريسنا أمورًا لم تكن مدرَجة في المنهاج. درَّسنا مبادئ علم الجبر، وقادته حماسته للتاريخ الطبيعي مرة إلى أن يسلق ثعلبًا ميتًا (ما أثار رعب جيرانه) وجده في الغابة ليسلخ لحمه في مقلاة قديمة على موقد مطبخه، وبالتالي يستطيع في ما بعد تجميع الهيكل العظمي معنا في المدرسة. لم نقرأ أبدًا الكتب التي كانت معدَّة للصفين الثالث والرابع في المدرسة الابتدائية، لمَّا وجدها بول سخيفة ومنافقة. وبدَلًا من ذلك، كانت قراءاتنا مقتصرة تقريبًا على مجموعة من الحكايات للبيت، صندوق كنز صديق العائلة من نهر الراين[1]، تحصّل بول منه

(1) Rheinische Hausfreund: قصص للأطفال تأليف يوهان بيتر هيبيل (1760- =

ستين نسخة على حسابه كما ظننت. كان للكثير من القصص التي تضمّنها، مثل تلك التي عن قطع رأس يُنفَّذ سرًا، أكثر الانطباعات وضوحًا عليّ، انطباعات لم تتلاشَ حتى يومنا هذا، أتذكر بوضوح أكثر من أي شيء آخر (لماذا، لا أستطيع القول) الكلمات التي قالها حاجّ عابر إلى المرأة التي أدارت نُزل بازيلشتاب: عندما أعود، سأجلب لك صدَفةً مقدسة لها شكل قلب من شاطئ عسقلان، أو زهرةً من أريحا. درَّسنا بول الفرنسية على الأقل مرة في الأسبوع. بدأ بملاحظات بسيطة عن أنه عاش في فرنسا، وأن الناس هناك يتحدثون اللغة الفرنسية، وأنه تعلَّمها، وأننا نستطيع بسهولة تعلمها أيضًا لو رغبنا في ذلك. ذات صباح في شهر أيار جلسنا في الخارج في ملعب المدرسة، وفي ذلك النهار المشرق النَّضِر استوعبنا بسهولة ما تعنيه عبارة «يوم جميل»[1]، وأن عبارة «شجرة الكستناء المزهرة» يمكن أن تقال بالفرنسية أيضًا: un chataignier en fleurs. بالفعل، كان تدريس بول إجمالًا الأكثر جلاءً، بصورة عامة، مما يمكن للمرء أن يتخيَّل. بالمبدأ وضع أهمية عظيمة على اصطحابنا إلى خارج مبنى المدرسة كلما سنحت الفرصة لنرى، قدر مستطاعنا، أرجاء البلدة -محطة الطاقة الكهربائية مع محوِّل التيار، أفران الصَّهر والسَّبك على البخار في مسبكة الحديد، وورش صنع السِّلال، والمجبنة. زرنا غرفة الهرس في معمل البيرة، ومبنى المَلت[2]، حيث كان الصَّمت كليًا، حتى إن أحدًا منا لم يجرؤ على أن ينبس بكلمة. وذات

= 1826)، كاتب ألماني مؤلف قصص قصيرة، شاعر، معلم، وعالم لاهوت انجيلي. الكتاب مجموعة من الحكايات الأخلاقية والنوادر والنكات، والتقارير عن عمليات القتل والكوارث والأسرار، كتبت أصلًا لإدراجها في تقويم شعبي ديني. نُشرت عام 1811.

(1) Un beau jour: بالفرنسية في الأصل.

(2) الشعير المنبت بالنقع.

يوم زرنا صانع الأسلحة كورّادي الذي كان يزاول مهنته في «س» لما يقرب من ستين عامًا. وضع كورادي دومًا قناعًا شفافًا أخضر اللون على عينيه وكلما سمح الضوء الذي يدخل من خلال نافذة ورشته سيكون منكبًا على أزندة معقّدة لأسلحة نارية قديمة لا يمكن لأحد سواه من أي مكان أن يصلحها. عندما ينجح في إصلاح زناد يخرج إلى الحديقة الأمامية مع البندقية ليطلق بضع طلقات في الهواء تعبيرًا عن الابتهاج مشيرًا إلى انتهاء العمل.

على مر الوقت أخذنا بول، في ما سمّاها «دروسه العملية»، إلى جميع الأماكن القريبة التي كانت مهمة لسبب أو لآخر ويمكن الوصول إليها سيرًا على الأقدام خلال ساعتين تقريبًا. زرنا قلعة فلوهينشتاين، واكتشفنا وادي ستازلاخ، وذهبنا إلى مبنى القناة فوق «هوفن» وإلى مستودع البارود حيث احتفظت جمعية المحاربين القدماء بمدفعها الاحتفالي، على التلة حيث محطات درب الصليب تقود إلى كنيسة صلب يسوع المسيح الصغيرة.



لم تكن مفاجأتنا قليلة، إذ بعد دراسات تمهيدية شتى استغرقت

عدة أسابيع، نجحنا في العثور على نفق منجم الفحم البنّي المهجور على غستراسبورغ التي هجرت بعد الحرب العالمية الأولى، مع ما بقي من السَّكة الحديد المعلّقة التي كان الفحم يُنقل عبرها من مدخل النفق إلى المحطة في التشتادن تحته. بأية حال لم يكن لجميع نزهاتنا غرض معين. في أيام جميلة بصفة خاصة غالبًا ما خرجنا ببساطة إلى الحقول، لمتابعة درسنا عن علم النبات أو أحيانًا، بذريعة نباتية، لتزجية الوقت فقط. في هذه المناسبات، عادة في بداية الصيف، كان يلتحق ابن الحلاق والحانوتي ڤولفارت بنا بين الحين والآخر. يعرفه الجميع باسم مانغولد، ويقدَّر بأنه ليس في كامل قواه العقلية، لم يكن أحد يعرف عمره على وجه التحديد وكانت تصرّفاته طفولية، وهذا جعله سعيدًا منفعلًا بشدة. كان طويل القامة هزيلًا بين تلاميذ لم يبلغوا سن المراهقة بعد، ليخبرنا في أي يوم من أيام الأسبوع كان يقع أي تاريخ سابق أو لاحق عُنينا بتحديده -بالرغم من حقيقة أنه لم يكن، بخلاف ذلك، قادرًا على حلِّ أبسط المسائل الرياضية. لنقل، إذا قال أحدهم لمانغولد إن شخصًا ولد في الثامن عشر من شهر أيار، عام 1944 سوف يصيح بالإجابة من دون أي تردد أن ذلك حدث يوم خميس. وإذا ما حاول أحدهم أن يزيد من صعوبة الأسئلة كأن يعطيه تاريخ ميلاد البابا أو الملك لودفيك، سيقول، بلمحة عين، ثانية، في أي يوم من أيام الأسبوع كانت الواقعة. حاول بول الذي برع في الحساب الذهني وكان رياضيًا من الدرجة الأولى، لسنوات أن يسبر غور سرَّ مانغولد، فوضع له اختبارات معقدة، وطرح الأسئلة، ومضى متوسِّعًا في مجموعة متنوعة أخرى. بقدر اطلاعي على الأمر، مع ذلك، لم يستطع هو أو أي شخص آخر حلها أبدًا، لأن مانغولد لم يفهم

الأسئلة المطروحة عليه إلا بالكاد. إلى جانب ذلك، استمتع بول بوضوح، مثل مانغولد وبقيّتنا، بنزهاتنا الريفية. كان يتقدمنا مرتديًا سترته الخفيفة، أو قميصًا طويل الأكمام فقط، ووجهه مرفوعًا للأعلى قليلًا، ويخطو تلك الخطوات الطويلة الوثّابة التي كانت مميزة للغاية، الصورة نفسها (كما أدرك الآن فقط عندما أستذكر) لحركة الشباب الألمانية (فاندرفوغل)[1] التي لا بد أنه كان لها أثرها عليه من عهد شبابه. كان بول معتادًا على الصفير باستمرار وهو سائر في الحقول. كان يصفر ببراعة مذهلة، والصوت الذي يصدره غنيًا ساحرًا، بالضبط مثل صوت آلة الفلوت. وحتى عندما كان يصعد جبلًا، كان يصفِّر بسهولة تامة مقاطع ووصلات موسيقية في تتابع مترابط، ليس كيفما اتفق، بل مقاطع ممتازة مكتملة التأليف وألحان لم يسمعها أحدنا من قبل، ألحان لم تكلّ عن تقطيع نياط قلبي كلما أعدت اكتشافها بعد سنوات في أوبرا بيلليني أو سوناتا برامز. عندما نستريح على الطريق، كان بول يخرج آلة الكلارينيت التي يحملها معه، من جورب قطني قديم، ليعزف مقطوعات متنوعة، بشكل أساسي حركات بطيئة من الذخيرة الكلاسيكية التي كنت أجهلها كليًا آنئذٍ. بمعزل عن هذه الدروس الموسيقية التي لم يكن مطلوبًا منَّا فيها سوى الإصغاء، كنا نتعلّم أغنية جديدة على الأقل مرة كل أسبوعين، منحت الأغاني التأملية مرة أخرى أولوية على المرِحة منها، وكانت «في إستراسبورغ عند المتراس»[2]، «في

(1) Wandervogel وتعني الطائر الجوال تأسست عام 1896 كانت تركز على النشاطات الميدانية للتخلص من قيود المجتمع والحرية والعودة إلى الطبيعة.
(2) Zu Strassburg auf der Schanz: أغنية فولكلورية وضع لها اللحن غوستاف مالر.

القلاع الجبلية»[1]، أو «إكليل من الزهور الخضراء»[2]، أو «همهمة الموجات»[3]، بعض الأغاني التي تعلَّمناها. لكن لم أستوعب ما كانت تعنيه الموسيقى لبول بحق حتى جاء إلى درس الغناء ابن عازف الأرغنّ برانديز(بتحريض من بول كما أفترض) وهو يتمتع بموهبة كبيرة، وكان في ذلك الوقت يدرِّس في المعهد العالي للموسيقى، وعزف على كمنجته لجمهور من الفتية الفلاحين (لأن هذا ما كنَّاه من دون استثناء تقريبًا). لم يستطع بول الذي كان واقفًا إلى النافذة كعادته، إخفاء تأثره بعزف ذلك الشاب برانديز، توجّب عليه خلع نظارته لأن عينيه فاضتا بالدموع. أيضًا، على ما أذكر، ابتعد لكي يخفي عنَّا النشيج الذي تصاعد من داخله. مع ذلك لم تكن الموسيقى الأمر الوحيد الذي أثّر على بول بهذا الشكل، حقًّا، في أي وقت، أثناء سَيْر الدرس، وفي الاستراحة، أو في واحدة من نزهاتنا -قد يتوقف أو يجلس في مكان ما، وحيدًا وبعيدًا عنا جميعًا، كما لو أنه، هو الذي كان دومًا في مزاجٍ عالٍ ويبدو مبتهجًا للغاية، كان في الواقع الكآبة نفسها.

ما إن استطعت مطابقة ذكرياتي المتشظّية مع ما قالته لي لوسي لاندو حتى تمكّنت من فهم تلك العزلة ولو جزئيًا. كانت لوسي لاندو، كما اكتشفت أثناء تحرّياتي في «س»، هي من تدبَّر أمر دفن

(1) Auf den Bergen die Burgen: أغنية من تأليف فريدريش فيلهلم شتاد.
(2) Im Krug zum grünen Kranze: أغنية من تأليف فيلهلم مولر.
(3) Wir gleiten hinunter das Ufer entlang: وتعني «نحن ننزلق على الشاطئ». لكن عنوان الأغنية في الأصل: Es wogen die Wellen «وهي من تأليف فيليب فريدريش شيلر.

بول في باحة الكنيسة هناك. عاشت في «إيفيردون»[1]، وهناك زرتها ذات يوم صيفي في السنة التالية لوفاة بول، يوم صامت بغرابة كما أتذكره، أول زيارة من زياراتي التي تعدّدت. شَرَعَت بإخباري كيف أنها غادرت في عمر السابعة مسقط رأسها في فرانكفورت هي ووالدها الأرمل الذي كان مؤرِّخًا فنيًّا. عاشت بجانب البحيرة في الفيلا المتواضعة التي كانت لصاحب مصنع للشوكولا في نهاية القرن، والتي بناها لأيام شيخوخته. اشتراها والد السيدة لاندو صيف العام 1933 على الرغم من حقيقة أن عملية الشراء أتت تقريبًا على كل ثروته على حد تعبير السيدة لاندو. بالنتيجة أمضت سنوات طفولتها وسنوات الحرب التي تلت في منزل غير مؤثث تقريبًا. لم يخطر لها يومًا أن العيش في تلك الغرف الفارغة نوع من الحرمان. بالأحرى، بدا إلى حد ما، بطريقة يصعب وصفها، أنها نعمة خاصة أو امتياز أعطي لها بانعطافة سعيدة للأحداث. تذكرت بوضوح شديد، على سبيل المثال، عيد ميلادها الثامن، فرش والدها طاولة بمفرش ورقي أبيض اللون على المصطبة، وهناك جلست هي وإرنست، صديقها الجديد من المدرسة، إلى العشاء بينما لعب والدها دور النادل، مرتديًا صديرية سوداء ومنديلًا على ساعده، بإتقان يندر مثيله. شكّل المنزل الفارغ في ذلك الحين، بنوافذه العريضة المفتوحة والأشجار المتمايلة من حوله برقّة، ستارة خلفية لعرض مسرحي ساحر. وحينها، تابعت السيدة لاندو، بدأت تتقد المشاعل متوالية على طول شاطئ البحيرة حتى «سانت أوبين» وما بعدها، وكانت مقتنعة تمامًا أن كل هذا كان مصنوعًا من أجلها فقط على شرف عيد ميلادها. لكن إرنست، قالت السيدة لاندو بابتسامة

(1) Yverdon-les-Bains: بلدة سويسرية.

كانت تقصده هو، كان يعرف عبر السنوات التي مرّت، بالتأكيد أن المشاعل التي توهّجت ببهاء في كل مكان في الظلمة كانت تحترق بمناسبة العيد الوطني السويسري، لكنه امتنع ببراعة شديدة عن تقديم تفسيرات من أيّ نوع كي لا يفسد عليَّ سعادتي. حقًّا، إن حُسن تقدير إرنستِ الذي كان أصغر الأبناء في عائلة كبيرة، ظلّ دومًا مثاليًّا لطريقتي في التفكير، ولم يساوِهْ أحد، باستثناء ممكن لبول الذي التقيته بعد وقت متأخر كثيرًا للأسف -صيف العام 1971 في بلدة Salins-les-Bains في مقاطعة جورا الفرنسية.

تبع هذا البوح صمت طويل قبل أن تضيف السيدة لاندو أنها كانت تقرأ السيرة الذاتية لنابوكوف على مقعد في منتزه شارع الكوردوليبه عندما علَّق بول على قراءتها، بعد أن مر بها مرتين، بكياسة مفرطة إلى حد ما. منذ ذلك الحين، طوال ذلك الأصيل، وعلى مدى الأسابيع التي تلت، قاد المحادثة الأكثر فتنة، بأسلوبه القديم نوعًا ما لكن قطعًا بفرنسية صحيحة.

كان قد شرح لها في البداية، على سبيل الاستهلال، إذا جاز التعبير، إنه جاء إلى (Salins-les-Bains) التي عرفها متأخرًا، لأن وضعه كان يتدهور في السنوات الأخيرة إلى حد جعله رهاب الأماكن المغلقة غير قادر على التدريس، ورأى تلاميذه، بالرغم من أنه شعر دومًا بالعاطفة تجاههم (لقد أصرَّ على هذا)، مخلوقات كريهة وحقيرة، استحثّ فيه مرآهم عنفًا لا أساس له مطلقًا في أكثر من مناسبة. فعل بول ما في وسعه ليخفي ضيقه والخوف من الجنون الذي خرج في اعترافات من هذا النوع. وهكذا، قالت السيدة لاندو، بعد أيام قليلة من لقائهما، أخبرها بتهكّم جعل كل شيء يبدو خفيفًا وتافهًا، عن محاولته الأخيرة في الانتحار. لقد وصف هذه الحادثة

كإحراج كان في المقام الأول مشمئزًا من تذكّره، لكنه شعر بأنه مضطر لإخبارها بذلك لتعرف كل ما كان ضروريًا فيما يتعلق بالرفيق الغريب الذي مشت إلى جانبه في (Salins-les-Bains) تلك الصائفة بلطف كبير منها. بول المسكين، قالت السيدة لاندو مستغرقة في أفكارها، ثم تابعت وهي تنظر إليَّ مرة أخرى، إنها في حياتها الطويلة عرفت عددًا من الرجال عن قرب، أكدت بتعبير ساخر على وجهها أنهم كانوا جميعًا، بطريقة أو بأخرى، مفتونين بأنفسهم. كل واحد من هؤلاء السادة الذين كادت تنسى، برحمة، أسماءهم، أثبتوا في النهاية أنهم أفظاظ متبلّدو المشاعر، في حين كان بول، المستنفّد بالوحدة بداخله تقريبًا، رفيقًا أكثر مؤانسة ومراعاة لمشاعر الآخرين مما قد يتمنّاه المرء. قاما كلاهما، قالت السيدة، بنزهات مبهجة في Salins، وبرحلات قصيرة خارج البلدة. زارا معًا الحمامات الحارة ومعارض الملح، وأمضيا أصائل بطولها على حصن بيلان. حدَّقا من فوق الجسور بالماء الأخضر في وادي فوريوز، يرويان لبعضهما البعض القصص فيما هما واقفان هناك. ذهبا إلى المنزل في بلدة «آربوا» حيث نشأ باستور، وشاهدا في بلدة «Arc-et-Senans»[1] الهياكل الملحية التي شُيّدت في القرن الثامن عشر كنموذج مثالي للمصنع والبلدة والمجتمع. في هذه المناسبة، ربط بول، بحدس شعرَت بأنه الأكثر جرأة، بين المفهوم البورجوازي لليوتوبيا والنظام، المعبَّر عنه في تصاميم ومباني نيكولا لودو[2]، وبين الخراب التصاعدي للحياة

(1) بلدة تقع شرق فرنسا في مقاطعة «دو» وتقع فيها الملاحات الملكية التي تعود إلى القرون الوسطى.

(2) Claude-Nicolas Ledoux: (1736 - 1806) من أوائل دعاة العمارة الكلاسيكية الفرنسية الجديدة.

الطبيعية. قالت السيدة لاندو إنها تفاجأت وهي تتحدث عنه الآن إلى أي حد لا تزال الصور التي تصورت أنها مدفونة تحت الأسى على فقد بول، شديدة الوضوح بالنسبة لها. مع ذلك كانت الأوضح على الإطلاق، ذكريات نزهتهما إلى مونترو - كانت عملًا مرهقًا بطريقة ما على الرغم من وجود المصعد الهوائي، حدقت من الذروة طويلًا جدًا ببحيرة جنيف والريف المحيط بها الذي بدا متضائل الحجم بشكل ظاهر، كما لو أنه معَدّ ليكون مخططًا لسكة حديد. الهيئات الصغيرة في الأسفل، الملتقطة مع الكتلة الرقيقة لجبل «مون بلان» الذي يعلوها، كتلة فانواز الجليدية مخفية تقريبًا في المسافة الوامضة، والمنظر البانورامي لجبال الألب الذي شغل نصف الأفق، أيقظ فيها لأول مرة في حياتها إحساسًا بالمتناقضات الموجودة في اشتياقاتنا.

في زيارة لاحقة إلى الفيلا في بلدة بونليو، عندما استفسرت أكثر عن ألفة بول الظاهرة مع مقاطعة جورا الفرنسية والمنطقة المحيطة بـ Salins منذ وقت مبكر من حياته، وقد سبق للسيدة لاندو أن أشارت إليها، علمت أنه في الفترة الممتدة بين خريف عام 1935 حتى بداية عام 1939 قدم لأول مرة إلى بيزانسون لفترة قصيرة، وحينها عمل مدرّسًا خاصًّا لدى عائلة تدعى «باسَّاغران» في «دول». كما لو لتفسير هذه الحقيقة التي لا تتفق للوهلة الأولى مع ظروف مدرِّس ألماني للمرحلة الابتدائية في الثلاثينات، وضعت السيدة لاندو أمامي ألبوم صور كبير احتوى على صور فوتوغرافية لا توثِّق فقط الفترة التي نحن بصددها لكن حقًّا حياة بول بيرايتر بأسرها تقريبًا، بوجود بعض الثغرات على حدة، مع ملحوظات كتبت بخط يده. قلبت صفحات الألبوم ذلك الأصيل مرارًا وتكرارًا، من المقدمة إلى المؤخرة وبالعكس، وعدت إليه منذ ذلك الحين أكثر من مرة،

لأنه بدا لي ولا يزال حقًّا، بالنظر إلى الصور الموجودة فيه، كما لو أن الموتى كانوا عائدين، أو كما لو أننا كنا على وشك اللحاق بهم. روت الصور الفوتوغرافية الأقدم قصة طفولة سعيدة في منزل عائلة بيرايتر في شارع «بلومينشتراس»، المجاور تمامًا لمشتل ليرشينمولر، وكثيرًا ما ظهر بول مع قطته أو مع ديك كان بيّنًا أنه داجن تمامًا.



لا تبدو السنوات اللاحقة في مدرسة داخلية ريفية، أقل سعادة عن سنوات الطفولة السابقة إلا بالكاد، ومن ثم دخول بول إلى كلية إعداد المدرسين في «لاوينغن»، إلى مصنع معالجة المدرسين في التذييل الذي كتبه. لاحظت السيدة لاندو أن بول قد خضع لهذا التدريب الذي اتبع أكثر التوجيهات ضيقًا في الأفق وكان مفروضًا من الكاثوليكية الكئيبة، فقط لأنه أراد أن يدرِّس الأطفال مهما كلفه ذلك من ثمن، حتى لو كان يعني تحمل هذا النوع من التدريب. فقط لأنه كان مثاليًّا مطلقًا تامًّا بلا شرط، استطاع أن ينجو عندما كان في لاوينغن من دون أن تتأذى روحه بأي شكل من الأشكال. من العام 1934 إلى العام

1935، كان بول الذي يبلغ من العمر حينذاك أربعًا وعشرين عامًا، قد أدى سنة التمرين في مدرسة «س» الابتدائية، يدرس، كما علمت وهو ما أثار استغرابي، في الصف نفسه حيث درَّس بعد ما يزيد على خمس عشرة سنة ثلة من الأطفال -بالكاد يمكن تمييزي بين هؤلاء المصوَّرين هنا -صفًّا كنت أنا من ضمن تلاميذه.



كان صيف العام 1935، الذي تبع سنة اختباره، واحدًا من أفضل الفصول على الإطلاق (كما بيَّنَت الصور وتعليقات السيدة لاندو) في حياة المدرس المستقبلي لطلاب المرحلة الابتدائية بول بيرايتر.

أمضت هيلين هوليندر، القادمة من فيينا، ذلك الصيف، عدة أسابيع في «س». أقامت هيلين التي كانت أكبر بشهر تقريبًا، حينها في منزل بيرايتر -واقعة مذيَّلة في الألبوم مع إشارتي تعجّب -بينما وضعت أمها في فندق بنسيون لويتبولد أثناء تلك الفترة. جاءت هيلين، كما اعتقدت السيدة لاندو، كوحي حقيقي لبول، إذا كان

يمكن الاعتماد على هذه الصور، قالت، كانت هيلين هوليندر امرأة مستقلة بنفسها شجاعة وذكية، وعلاوة على ذلك عميقة التفكير. وفي تلك المياه أحبَّ بول أن يرى انعكاس صورته.





والآن، واصلت السيدة لاندو، فكّر فقط: في بداية شهر أيلول ذاك، عادت هيلين مع أمها إلى فيينا، واستلم بول وظيفته الأولى في التدريس في قرية بعيدة تدعى «و». هناك، قبل أن يكون لديه الوقت للقيام بشيء سوى حفظ أسماء الأطفال، تلقى مكتوبًا رسميًّا يفيد بأنه سيتعذّر عليه العمل في التدريس، بسبب القوانين الجديدة التي كان على علم بها بلا شك. انهار المستقبل الرائع الذي حلم به ذلك الصيف بصمت كما ينهار منزل مشيَّد من أوراق اللعب، كل تطلعاته تضبَّبت. خبرَ للمرة الأولى ذلك الإحساس المنيع بالهزيمة حتى إنه كان كثيرًا ما يكتنفه في أوقات لاحقة إلا أنه لم يتمكن من التخلّص منه في النهاية. في نهاية شهر تشرين الأول، قالت السيدة لاندو، مشارفًا على النهاية في ذلك الوقت، سافر بول عبر «بازل» إلى «بيزانسون»، حيث استلم عمل مدرِّسٍ خاصٍّ وجده له شريك والده في العمل.



كمية البؤس التي لا بد أنه شعر بها في ذلك الحين ظاهرة في صورة صغيرة التقطت ذات أصيل يوم أحد، تُظهِر بول إلى اليسار، بول الذي تدهورت حالته خلال شهر من السعادة إلى التعاسة، وكان نحيلًا للغاية حتى يبدو تقريبًا أنه وصل حد التلاشي البدني. لم تتمكن السيدة لاندو من أن تخبرني بالضبط ما حل بهيلين هوليندر. كان بول قد تكتّم على الموضوع بصمت مصرّ، ربما لأن إحساسًا بأنه خيّبها أو تخلّى عنها كان يؤلمه. وبقدر ما كانت السيدة لاندو قادرة على الاكتشاف، يمكن أن يكون هناك بعض شك بأن هيلين وأمها أبعدتا في واحد من تلك القطارات الخاصة التي غادرت فيينا فجرًا، ربما إلى تيريزينشتات مبدئيًّا.

تدريجًا، بدأت حياة بول بيرايتر تنبثق من الخلفية. لم تكن السيدة لاندو متفاجئة ولو قليلًا من أني لم أكن أعي، بالرغم من حقيقة انتمائي إلى «س» ومعرفتي بحالة البلدة، أن بيرايتر الأب كان نصف يهودي كما كان يُقال، وبول، بالنتيجة، آري من الدرجة الثالثة فقط. هل تعلم، قالت في واحدة من زياراتي إلى «إيفيردون»، إن الدقة الممنهجة التي حافظ بها هؤلاء الناس على الصمت في السنوات التي تلت الحرب، وتكتموا على أسرارهم وحتى نسوا حقًّا، كما يخيل إليَّ أحيانًا، هي ليست سوى الوجه الآخر للطريقة الغادرة التي أعلم بها «شوفرل» الذي أدار مقهى في «س»، والدة بول ثيكلا التي كانت تمثّل لبعض الوقت في نورينبرغ، أن حضور سيدة متزوجة من نصف يهودي قد يكون محرجًا لزبائنه المحترمين، والتمس طالبًا إليها، باحترام بالتأكيد، ألا تتناول قهوتها في الأصيل في محله بعد اليوم. قالت، لم أجد الأمر مفاجئًا إطلاقًا، أنك لم تكن مدركًا للدناءة والخيانة في أن تفتضح عائلة مثل عائلة بيرايتر

في فجوة بائسة حالة «س» حينها ولا تزال بالرغم من كل التقدم المزعوم، لا يفاجئني على الإطلاق، طالما أنه متأصِّل في منطق تسلسل الأحداث القذر برمته.

في مسعى لاستئناف نبرة أكثر واقعية بعد اندفاع صغير سمحت لنفسها به، قالت لي السيدة لاندو إنَّ والد بول الذي كان رجلًا خلوقًا ونزّاعًا إلى السوداوية، جاء من غونزينهاوزن في فرانكونيا، حيث كان جدُّ بول آمشيل بيرايتر يملك متجرًا للخردوات، وتزوَّج من خادمته المسيحية التي هامت بحبه كثيرًا بعد سنوات عدّة من الخدمة في منزله. في ذلك الحين كان آمشل قد تجاوز الخمسين، بينما كانت روزينا لا تزال في منتصف عشرينياتها. أثمر زواجهما الذي كان بطبيعة الحال زواجًا هادئًا إلى حد ما، عن طفل وحيد فقط، تيودور، والد بول. بعد أن تمرّن على العمل كبائع في أوغيسبورغ. عمل تيودور مدة طويلة في متجر مقاطعة نورينبرغ، يشق طريقه نحو المراتب العليا، قبل أن ينتقل إلى «س» العام 1900 ليفتتح مركزًا تجاريًا ضخمًا برأس مال جمع جزءًا منه من مدَّخراته والجزء الآخر اقترضه. باع كل شيء في المتجر، من القهوة حتى أزرار الياقات، ومن الألبسة النسائية الداخلية حتى الساعات ذات طائر الوقواق، ومن السُّكّر البلجيكي إلى القبعات القابلة للطي. وصف لها بول مرة ذلك المتجر الرائع بالتفصيل، قالت السيدة لاندو، عندما كان في المستشفى في برن عام 1975، مضمَّد العينين بعد عملية لإظلام عدسة العين. قال إنه رأى الأشياء حينها بأعظم وضوح، كما يراها المرء في الأحلام، أشياء لم يظن بأنها لا تزال في داخله. في طفولته، بدا كل شيء في المتجر مرتفعًا بعيدًا عن متناوله، لأنه كان صغيرًا من دون ريب، لكن أيضًا لأن الرفوف كانت على علو أربعة أمتار نحو السقف. كان الضوء في المركز التجاري شاحبًا

حتى في أكثر النهارات إشراقًا، يدخل من خلال نوافذ صغيرة فوقية موجودة في قمم ألواح واجهات العرض، ولا بد أنه بدا مظلمًا له كطفل - قال بول - وهو ينتقل على دراجته الثلاثية العجلات، غالبًا في مستوى منخفض، عبر الممرات، بين الطاولات والصناديق والنضد، وسط تشكيلة من الروائح -كانت رائحة النفتلين وصابون زنبق الوادي دومًا الأكثر حدة، بينما كانت رائحة الصوف الملبَّد والقماش الصوفي المضاد للماء تهجم على الأنف فقط في الطقس الرطب، أما رائحة الرنكة وزيت بذر الكتان فتفوح في الجو الحار. لساعات متواصلة، قال بول متأثرًا بشدة بذكرياته، إنه قاد دراجته في تلك الأيام مارًّا بصفوف معتمة من المواد المعدنية، والجزم الجلدية اللماعة، وجرار الأطعمة المحفوظة، وأوعية الري المطلية بالزنك، وحامل السُّوط، والعلبة التي بدت له ساحرة بشكلٍ خاصٍّ، تحتوي على لفائف من خيوط التطريز من ماركة «غيترمانّ» كانت مرصوفة بأناقة خلف نوافذ زجاجية صغيرة، من كل لون من ألوان قوس قزح. تكوَّن كادر المركز التجاري من فرومكنيخت البائع والمحاسب، كانت إحدى كتفيه مرتفعًة بشكل دائم بعد سنوات من الانكباب على مراسلات وأرقام لا نهائية وحسابات، والآنسة العجوز شتاينبايز التي ترفرف طوال النهار مع قماشة ومنفضة غبار مصنوعة من الريش، والخادمين هيرمان مولر وهينريش مولر (لا تربطهما أي علاقة كما أكَّدا باستمرار) وقفا كلٌّ على جانب من جانبَيْ صندوق المحاسبة الضخم، يرتديان دومًا صديرية وعصابة أكمام، وعاملا الزبائن بتفضّل بدا طبيعيًّا، إذا جاز التعبير، بالنسبة إلى هؤلاء الذين يشغلون مناصبَ مرموقة في الحياة. مع ذلك، كان تيو بيرايتر والد بول كلما نزل، هو صاحب المتجر، إلى المتجر لمدة ساعة تقريبًا (كما كان يفعل يوميًا) مرتديًا معطفه الأسود الطويل أو بدلته المخططة وطِماق الكاحل، سيتخذ له موقعًا بين

النخلتين المزروعتين في أصيصين، الموضوعتين إما داخل الباب المتأرجح أو خارجه، بحسب الطقس، وسيواكب كل زبون إلى المتجر بكياسة متَّسمة بأشد الاحترام، بغضّ النظر عما إذا كان المقيم الأكثر فقرًا في دار المسنين في الجهة المقابلة من الطريق أو زوجة الغني هاستريتر مالك مصنع البيرة، وثم يرافقهم إلى الخارج ثانية مصحوبين بإطراءاته. لأن المركز التجاري، المتجر الوحيد الكبير في البلدة وفعليًا في المقاطعة برمتها، ضَمِن بكل المقاييس مستوى معيشة الطبقة المتوسطة الجيد لعائلة بيرايتر، وحتى إمكانية الإسراف مرة أو اثنتين، كما هو ماثل للعيان (قالت السيدة لاندو) من مجرد واقعة أن «تيودور»، قاد سيارة في العشرينات من نوع «دوركوب»، لافتًا اهتمامًا متحمّسًا وصل حتى نحو «تيرول أولم» أو بحيرة «كونستانس»، كما أحبَّ بول أن يتذكّر. توفي تيودور بيرايتر يوم أحد الشعانين عام 1936، هذا أيضًا سمعته من السيدة لاندو التي لا بد تحدثت طويلًا مع بول عن هذه الأمور، وهذا ما أدركه على نحو أكثر وضوحًا مع كل زيارة لها.



كانت الوفاة إثر إصابته بالسَّكتة القلبية، لكن في الواقع توفي من جراء الغضب والخوف اللذين كانا يتآكلانه ذلك الحين، لا سيما قبل سنتين من وفاته. فقد كانت العائلات اليهودية المقيمة في بلدة غونزنهاوزن لأجيال، هدفًا لحملات عنيفة. دفن مالك المركز التجاري، تشيّعه زوجته فقط والمستخدمون لديه، قبل الفصح، في زاوية قصيَّة، محجوزة للمنتحرين ولمن لا ينتمون إلى أيّ مِلّة، خلف جدار واطئ في باحة الكنيسة في «س». من الجدير بالذكر في هذا السِّياق، قالت السيدة لاندو، أنه بالرغم من عدم إزالة المركز التجاري الذي ورثته الأرملة ثيكلا بعد وفاة تيودور بيرايتر، كان على العائلة أن تبيعه مجانًا تقريبًا لألفونس كينزل وهو سمسار ماشية وعقارات أصبح مؤخرًا رجل أعمال محترمًا. اكتأبت ثيكلا بيرايتر بعد هذه الصفقة المريبة وتوفيت بعد بضعة أسابيع.

قالت السيدة لاندو إن بول تتبّع جميع هذه الحوادث عن بعد، من دون أن يكون في وسعه التدخل. فمن ناحية، كانت الأخبار السيئة تصله دومًا بعد فوات الأوان لفعل أي شيء، ومن ناحية أخرى، كانت قدراته على التقرير ضعيفة بطريقة ما، فاستحال عليه أن يفكّر مسبقًا ولو بيوم واحد. لهذا السبب، ولوقت طويل، شرحت السيدة لاندو، لم يكن لدى بول سوى فهم منقوص لما حصل في «س» العامين 1935 و1936 ولم يهتم بتصحيح معرفته غير المكتملة للماضي. لم تصبح إعادة بناء هذه الأحداث مهمة له ولازمة حقًّا إلا في العقد الأخير من حياته الذي أمضاه في إيفيردون أغلب الأحيان. قالت، رغم أنه كان يفقد بصره، أمضى أيامًا عديدة في دائرة الأرشيف، يدوِّن ملاحظات لا نهاية لها عن الأحداث في غونزنهاوزن، على سبيل المثال، عن أحد الشعانين ذاك عام 1934، قبل سنوات مما بات معروفًا بليلة الكريستال، عندما حُطمت

نوافذ بيوت اليهود، وسُحب اليهود أنفسهم من مخابئهم في الأقبية وسُحلوا في الشوارع. ليس الهجوم العنيف فقط ما أرعب بول ولا بطش حوادث أحد الشعانين في غونزنهاوزن، ليس فقط موت العجوز آهارون روزينفيلد ذي الخمسة والسبعين عامًا طعنًا بسكين، أو موت سيغفريد روزينو ذي الثلاثين عامًا الذي عُلّق على سياج، ليس فقط هذه الأمور التي أرعبت بول، قالت السيدة لاندو، لكن أيضًا، بنفس الشدة تقريبًا، أرعبته مقالة صادفها في صحيفة، تقول شامتة إن تلامذة غونزنهاوزن تناولوا الطعام في سوق مجاني في البلدة صباح اليوم التالي آخذين منه مؤونة تكفي لعدة أسابيع من دبابيس الشعر، وسجائر الشوكولا، والأقلام الملوَّنة، ومشروب فوار، والبودرة وكثير من الأشياء الأخرى من المتاجر المحطمة.

أقل ما كنت قادرة على فهمه في قصة بول، بعد كل ذلك، ما حدث في بداية العام 1939 -لأنه لم يعد ممكنًا الاحتفاظ بوظيفة مدرِّس خصوصي ألماني في فرنسا في الأوقات التي كانت تزداد صعوبة، أو بسبب غضب أعمى أو حتى نوع من الانحراف- وعودته إلى ألمانيا، إلى عاصمة الرايخ، إلى برلين، المدينة التي كان غريبًا عنها تمامًا. تسلّم هنالك عملًا مكتبيًّا في مرأب في اورانينبورغ، واستُدعي للخدمة العسكرية بعد بضعة أشهر، إذ كما يبدو كان هؤلاء الآريّون من الدرجة الثالثة مدرَجين في التفقد العسكري. خدَمَ، إذا كانت هذه هي الكلمة المناسبة، مدة ست سنوات، في سلاح المدفعية الآلي، حطَّ رحاله مرات مختلفة في أرض الألمان الكبيرة وفي عدة بلدان كانت محتلّة. ذهب إلى بولندا، بلجيكا، فرنسا، ودول البلقان، روسيا والبلدان المتوسطية، ولا شك أنه رأى ما يفوق قدرة قلبه أو عينيه على احتماله.



تتالت الفصول والسنوات. تبع خريف «والون» شتاء مثلج طويل قرب «بيرديشيف»، الربيع في مقاطعة هوت-ساوني، الصيف على ساحل دالماتيا أو في رومانيا، ودومًا كما كتب بول تحت هذه الصورة، كان المرء على بعد ما يقارب 2000 كم -خط نظر، لكن عن ماذا؟ - ويومًا بعد يوم، وساعة بعد ساعة، مع كل خفقة نبض، يفقد المرء أكثر فأكثر من خصاله، يصبح أقل فهمًا لنفسه، ومجردًا بازدياد.



قالت السيدة لاندو، كانت عودة بول إلى ألمانيا عام 1939 ضلالًا، كما كانت عودته إلى «س» بعد الحرب، وإلى حياته في التدريس في المكان الذي طُرد منه. وأضافت، أفهم بالتأكيد ما كان جاذبه للعودة إلى المدرسة. ببساطة، هو ولدَ ليدرِّس الأطفال-هو معلّم[1] حقيقي، في وسعه أن يبدأ من الصفر ويقدم الدروس الأكثر إلهامًا، كما وصفت لي أنت شخصيًا. وعلاوة على ذلك، كمدرّس جيد آمن أن في وسع المرء أن يعتبر تلك السنوات الاثنتي عشرة البائسة انتهت وانقضت، وأن عليه أن يقلب الصفحة ببساطة ويبدأ من جديد. لكن ذلك ليس سوى نصف التفسير على أحسن تقدير. ما أثَّر في بول، وربما أجبره على العودة العامين 1939 و1945، كان حقيقة أنه ألماني حتى النخاع، مرتبط بموطنه الأصلي في سفوح جبال الألب عميقًا وحتى بذلك المكان البائس «س» أيضًا التي نفر منها بالفعل في قرارة نفسه، وما أنا واثقة منه تمامًا، أنه كان ليكون مسرورًا لو رآها مدمرة ومطموسة مع سكانها الذين لقيهم بغضاء للغاية. قالت السيدة لاندو، إن بول لم يتمكن من المكوث في الشقة الجديدة التي انتقل إليها مجبرًا تقريبًا قُبيل تقاعده، عندما هُدم منزل لارشينميللر الرائع القديم ليحل محله المبنى السكني القبيح، لكن حتى مع ذلك، من اللافت أنه لم يتمكّن من حمل نفسه على التخلي عن تلك الشقة في غضون جميع تلك السنوات الاثنتي عشرة الأخيرة التي عاشها هنا في إيفردون. بل على العكس تمامًا، في الحقيقة كان يقوم برحلة خاصة إلى «س» مرات عدّة في السنة لا سيَّما ليتأكد من أن كل شيء على ما يرام، كما قال. كان دومًا في مزاج سوداويّ كلما عاد من إحدى تلك البعثات التي كانت تستغرق عمومًا يومين فقط،

(1) Melammed: كلمة عبرية تعني «معلم»، وهي تسمية كانت تمنح للمعلّم الديني عمومًا.

ويندم بطريقته الفاتنة الطفولية لتجاهله مرة أخرى نصيحتي المُلحّة بعدم الذهاب إلى هناك مجددًا، وهو ما عاد عليه بالضرّ.

أخبرتني السيدة لاندو في مناسبة أخرى قائلة إن بول أمضى هنا في بونليو الكثير من الوقت في أعمال البستنة التي أظنه أحبَّها أكثر من أي شيء آخر. بعد أن غادرنا salins وحزمنا أمرنا بأنه منذ الآن سيعيش في بونليو، سألني إذا كان يستطيع أن يتولى أمر الحديقة التي كانت مهمَلة تمامًا في ذلك الحين. بالفعل حوَّل بول الحديقة بطريقة مذهلة تمامًا. نمت الأشجار الصغيرة، والزهور، والنباتات والعرائش، وأحواض اللبلاب الظليلة، وشجيرات الوردية، والورود، والنباتات المعمِّرة -جميعها، ولم يكن هناك بقعة جرداء في أي مكان. فقد كان بول يشتغل في الحديقة كلما سمح الطقس بذلك عند الأصيل. لكن أحيانًا كان يجلس وحسب ويحدّق في الخضرة التي أزهرت في كل مكان من حوله. أخبره الطبيب الذي أجرى العملية لعينيه إن قضاء فترات هادئة في التحديق بأوراق الشجر سيحمي بصره ويحسّنه. قالت السيدة لاندو، لكن لا، بالتأكيد بول لم يتَّبع بتاتًا أوامر الطبيب ليلًا. كان مصباحه مضاءً دومًا حتى ساعات الفجر الأولى. قرأ وقرأ -كلًا من آلتنبيرغ[1]، وتراكل[2]، وفتغنشتاين[3]، وفريديل[4]، وهاسينكليفر[5]، وتولر[6]،

(1) (1859 –1919) :Peter Altenberg كاتب وشاعر نمساوي.

(2) (1887 –1914) :Georg Trakl شاعر نمساوي.

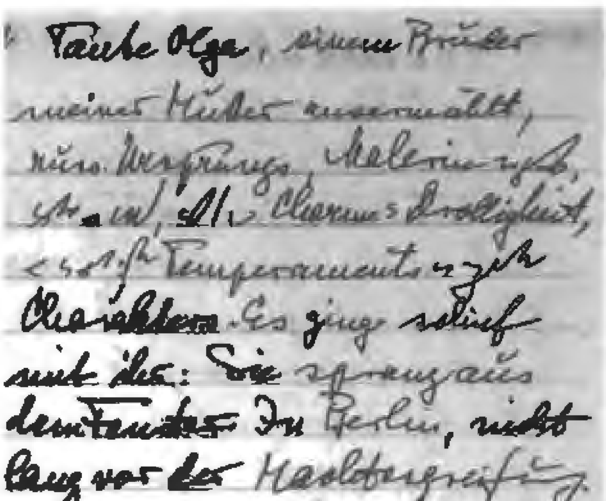
(3) (1889 – 1951) :Ludwig Josef Johann Wittgenstein فيلسوف بريطاني نمساوي الأصل.

(4) (1878; 1938) :Egon Friedell فيلسوف نمساوي ومؤرخ، ممثل وصحافي.

(5) (1890 –1940) :Walter Hasenclever شاعر ومؤلف مسرحيات ألماني.

(6) (1893 –1939) :Ernst Toller مؤلف مسرحي ألماني.

وتوشولسكي[1]، وكلاوس مان[2]، وأوسيتزكي[3]، وبنيامين[4]، وكويستلر[5] وزفايغ[6]: كُتّاب انتحروا جميعًا تقريبًا أو كانوا على وشك القيام بذلك. نسخ في دفتر فقرات أعطت فكرة جيدة عن مدى اهتمامه بحياة هؤلاء الكتّاب. نسخ بول مئات الصفحات، غالبًا على طريقة «غيبيلسبرغ» في الاختزال وإلا لما كان قادرًا على الكتابة بسرعة كافية، ومرارًا وتكرارًا يصادف المرء قصصًا عن الانتحار.


Tante Olga, ...
... Temperaments ...
Charakter. Es ging schief
mit ihr: Sie sprang aus
dem Fenster in Berlin, nicht
lang vor der Machtergreifung.

(1) Kurt Tucholsky: (1890 – 1935) صحافي ألماني – يهودي.

(2) Klaus Heinrich Thomas Mann: (1906 –1949) كاتب ألماني.

(3) Carl von Ossietzky: (1889 –1938) معارض ألماني للحرب وحائز على جائزة نوبل للسلام عام 1935.

(4) Walter Bendix Schönflies Benjamin: (1892 –1940) فيلسوف ألماني يهودي.

(5) Arthur Koestler: (1905 –1983) كاتب بريطاني هنغاري الأصل.

(6) Stefan Zweig: (1881 – 1942) كاتب نمساوي.

قالت السيدة لاندو وهي تناولني الكراريس ذات الغلاف المشمع الأسود: «بدا لي كما لو أن بول كان يعمل على جمع أدلة، وبينما كانت تحقيقاته تأخذ سبيلها إلى الإنجاز، اقتنع أخيرًا بفضل وزنها المتزايد أنه ينتمي إلى المنافي وليس إلى شعب «س»».



في بداية العام 1982، بدأت حالة عينَيْ بول تسوء. وسريعًا لم يعد يستطيع رؤية شيء سوى صور مبعثرة ومتشظية. ولم تكن العملية الثانية ممكنة، احتمل بول الواقعة برباطة جأش، قالت السيدة لاندو، ونظر دومًا إلى الماضي بامتنان هائل، إلى تلك الثماني سنوات من النور التي وفّرتها له عملية بِرن.، قال لها بول بُعيد إعلامه بنسبة الشفاء الضعيفة للغاية، إذا أخذَ وقفة للتفكير هو

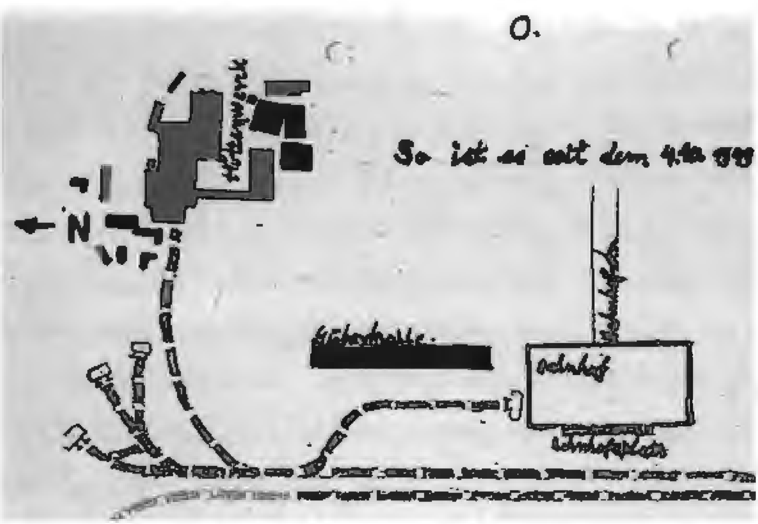
عانى في طفولته من بقع سود صغيرة وكان يرى أشكالًا كحبة اللؤلؤ أمام عينيه، وكان يخشى دومًا أن يفقد بصره في أي وقت، ثم كان مذهلًا حقًّا أن عينيه خدمتاه جيدًا لوقت طويل. قالت السيدة لاندو، الحقيقة هي أن سلوك بول عمومًا في ذلك الحين كان رزينًا على نحو استثنائي عندما تأمّل المَطَلّ الرمادي، الجرذيّ اللون (على حد تعبيره)، الذي كان قبالته. أدرك حينها أن العالم الذي كان على وشك دخوله ربما يكون أكثر ضيقًا من ذلك الذي عاش فيه حتى ذلك الحين، لكنه آمن أيضًا أنه قد يكون هناك إحساس بالارتياح نوعًا ما. عرضت عليه أن أقرأ له أعمال بيستالوزي[1] الكاملة، قالت السيدة لاندو؛ وأجاب بأنه من أجل ذلك سيضحّي ببصره مسرورًا، وأن عليَّ أن أبدأ في الحال، بأولوية ربما لكتاب «أمسية ناسك». كان وقت ما في الخريف أثناء واحدة من ساعات القراءة، قالت السيدة لاندو، حين أعلمني بول من دون مقدمات بأنه لم يعد هناك الآن من سبب يدعو للاحتفاظ بالشقة في «س» واعتزم التخلّي عنها. ذهبنا بعد عيد الميلاد بفترة قصيرة إلى «س» لننظر في أمر الشقة. ولأنني لم أكن قد وطئت أرض ألمانيا الجديدة، تملّكتني الهواجس عندما تطلّعت نحو الرحلة. لم ينهمر الثلج، ولم يكن هناك إشارة في أي مكان إلى وجود سياح شتويين، وعندما وصلنا إلى «س» شعرت كما لو أننا وصلنا إلى نهاية العالم، وخبرت هاجسًا غريبًا جدًا حتى إني وددت قبل كل شيء أن أعود في الحال. كانت شقة بول باردةً ومغبَرَّةً وزاخرةً بالماضي. شغلنا أنفسنا ليومين أو ثلاثة أيام فيها

(1) Johann Heinrich Pestalozzi: (1746 –1827) مدرِّس ومصلح تربوي سويسري.

بلا هدف. هبَّت في اليوم الثالث رياح fóhn[1] العليلة المستغرَبة تمامًا في مثل هذا الوقت من السنة. كانت غابات الصنوبر سوداء على سفوح الجبال، ومضت النوافذ كالرصاص، وكانت السماء منخفضة جدًّا وقاتمة، ينتظر المرء أن يتدفّق الحبر منها في أية لحظة. كان الألم في صدغي بغيضًا جدًّا وتوجب عليَّ أن أستلقي، وأتذكّر جيدًا أنه عندما بدأ قرص الأسبرين الذي أعطاني إياه بول يأخذ مفعوله تدريجًا، شرعت رقعتين مشؤومتين غريبتين تتحركان خلف جفنَيَّ خلسةً. ما إن حلَّ الغسق حتى استيقظت، مع أنه حل في ذلك اليوم باكرًا عند الساعة الثالثة. كان بول قد دثرني بغطاء، لكنه لم يكن مرئيًّا في أي مكان. لاحظت وأنا واقفة في القاعة متردّدة، أن سترة بول التي صادف أنه ذكرها ذلك الصباح كانت مفقودة، بقيت معلّقة هناك لما يقارب أربعين عامًا. عرفت في تلك اللحظة أن بول قد خرج مرتديًا تلك السترة، وأني لن أراه حيًّا ثانية. لذا، كنت مستعدة بطريقة ما، عندما رنَّ الجرس بعد وقت قصير. كانت فقط طريقة موته. موت ليس في وسعي تصوّره. لم أتمالك نفسي في البداية غير أني أدركت سريعًا أنها كانت الخطوة المنطقية تمامًا بالنسبة لبول. لطالما عنت له سكك الحديد الكثير -ربما شعر بأنها كانت تتجه نحو الموت. تسلطت جداول المواقيت وكتب الإرشادات، كل ما يتعلّق بخدمات سكك الحديد، على عقله أحيانًا، كما أظهرت شقته في «س». لا أزال أستطيع رؤية نموذج

(1) رياح الفون: ظاهرة جوية مميزة للمناطق الألبية بشكل خاص، والأحزمة الجبلية الشاهقة في كثير من بلاد العالم بشكل عام، وهي عبارة عن رياح جافة ودافئة تهب قادمة من قمم الجبال على الوديان المجاورة لها.

مصغَّر لسكة الحديد من إنتاج شركة «ماركلين»[1]، كان قد وضعه على طاولة خشب في الغرفة الشمالية الاحتياطية: بالنسبة لي إنها صورة ورمز لمأساة بول الألمانية. عندما قالت السيدة لاندو هذا، فكّرت بالمحطات، والسكك، ومستودعات السلع والمباني التابعة لسكة الحديد التي لطالما رسمها بول على السبورة، وكان علينا أن ننسخها في دفاترنا بعناية قدر المستطاع. قالت السيدة لاندو، عندما أخبرتها عن دروس السكة الحديد تلك، إنه من الصعب في النهاية أن تعرف ما الذي يتسبّب بموت شخص ما.



نعم، إنه أمر صعبٌ للغاية، قالت، المرء لا يعرف حقًّا. في غضون كل تلك السنوات التي أمضاها هنا في «إيفردون» لم يكن لديّ أي تصوّر عن أن بول وجد نهايته موضوعة له سلفًا في سكة

---

(1) Märklin: شركة ألمانية لصناعة الألعاب.

الحديد بشكل منظَّم، إذا جاز القول. تحدث مرة واحدة فقط عن شغفه بالسكك الحديد عَرَضًا، ليس كما يتحدّث المرء عن اهتمام طريف يعود إلى الماضي، بل أكثر. في تلك المناسبة، قالت السيدة لاندو، قال لي بول إنه أمضى في طفولته عطله الصيفية في ليندو، وراقب من الشاطئ يوميًا تدحرج القطارات من البر إلى الجزيرة وبالعكس. سُحُب البخار البيضاء في الهواء الأزرق، المسافرون ملوّحين من النوافذ، الانعكاس على المياه -تكرر هذا المشهد بين حين وآخر، مستحوذًا عليه كثيرًا حتى إنه لم يظهر أبدًا إلى طاولة العشاء في موعده طوال تلك العطلة، زلة كانت تجيب عمته عليها بهزّة من رأسها تزداد استكانة في كل مرة، وعقَّب عمه بأنه سينتهي على السكة الحديد. عندما روى لي بول قصة هذه العطلة غير المؤذية أبدًا، قالت السيدة لاندو، لم أتمكّن من أن أعزو لها فعليًّا الأهمية التي تبدو أنها تحوزها الآن، مع ذلك حتى ذلك الحين، كان هناك ما أثار اضطرابي في هذه العبارة الأخيرة التي لا تُنسى. أفترض بأني لم أفهم في الحال المعنى البريء لعبارة عم بول، **ينتهي على السكة الحديد**، وصدمتني بكآبة كنذير شؤم. دام القلق الذي خبرته بسبب ذلك الإخفاق الخاطف في فهم معناها -أشعر أحيانًا الآن بأنني شاهدت في تلك اللحظة صورة الموت -لوقت قصير جدًّا فقط، وعبرَ فوقي مثل ظلّ طائرٍ محلّقٍ.

(3)

آمبروز أدلفارت

وما حقل الذرة خاصتي إلا حصاد الدموع

لا أتذكر إلا النزر اليسير عن خال والدتي أدلفارت. في وسعي القول بقدر من اليقين، إني رأيته مرة واحدة فقط، وكان ذلك صيف العام 1951. عندما جاء الأميركيون، الخال كازيمير مع لينا وفلوسي، والخالة فيني وتيو والتوأمان الصغيران، والخالة تيريز التي كانت عزباء، ليقيموا معنا في قرية «و» عدة أسابيع. جاؤوا سواء جميعًا دفعةً واحدة، أو الواحد تلو الآخر. ذات مرةٍ، في غضون ذلك الحين، جاء الأنسباء من «كيمبتن» و«ليكبروك»[1] -يميل المغتربون، كما هو معروف، إلى البحث عن أشباههم-إلى «و» لقضاء بضعة أيام، وبنتيجة التئام شمل ما يقارب من ستين شخصًا من العائلة رأيت خال والدتي أدلفارت للمرة الأولى (والأخيرة

(1) Lechbruck: بلدة في منطقة Ostallgäu في بافاريا الألمانية.

على ما أعتقد). بطبيعة الحال، في الهرج والمرج العظيمين اللذين تسبب بهما الزُّوار في بيتنا وفي كافة أنحاء القرية أيضًا، فقد توجّب إيجاد غرفٍ في مكان آخر، في البداية لم يختلف أثره عليَّ عن سواه، لكن عندما دُعي باعتباره أكبر المغتربين سنًا وجَدُّهم، إذا جاز القول، لمخاطبة العشيرة المجتمعة في أصيل يوم الأحد ذاك عندما جلسنا لاحتساء القهوة إلى الطاولات الطويلة المرفوعة على ركائز في صالة القرية، حتمًا كان اهتمامي منسحبًا إليه عندما نهض وقرع كأسه بملعقة صغيرة. لم يكن الخال أدلفارت طويل القامة بصفة خاصة، لكنه مع ذلك كان له حضور متميّز للغاية أكّد وعزَّز ثقة الباقين جميعًا بأنفسهم، كما أوضحت ذلك همهمات الاستحسان العامة -مع ذلك أدركت على الفور، أنا الذي لم أكن أتجاوز السابعة من عمري، بأنهم بدوا متفوقين مقارنة مع هذا الرجل (على عكس البالغين، الذين كانوا محاصَرين في تصوراتهم السابقة). ولو أني لا أتذكر ما قاله الخال أدلفارت في خطابه الرسمي نوعًا ما، إلا أني أتذكر تأثّري العميق بواقعة خلو لغته الألمانية البادية العفوية من أدنى أثر للهجتنا المحلية، واستخدامه لكلمات وصياغات لا يمكنني إلا أن أخمّن معانيها تخمينًا. بعد هذا الظهور الذي وجدته مشهودًا حقًّا، غاب الخال أدلفارت عن عينيَّ لوقت طويل بعدما غادر في اليوم التالي إلى بلدة «إيمنشتات»[1] على متن حافلة البريد، ومن هناك ارتحل بالقطار إلى سويسرا. غاب عن أفكاري أيضًا، ولم أعلم شيئًا عن وفاته بعد سنتين، ناهيك عن ملابساتها، طوال عهد طفولتي، ربما لأن وفاة الخال تيو المفاجئة، وقد مات بالسكتة الدماغية ذات صباح وهو يقرأ الصحيفة، وضعت الخالة

(1) Immenstadt: بلدة تقع في أقصى جنوب بافاريا، ألمانيا.

فيني والتوأمان في ظرف صعب للغاية. تحوّل في الأحداث لا بد أنه غطى على وفاة قريب طاعن في السن عاش بمفرده. علاوة على ذلك، لأن قرب الخالة فيني منه جعلها أفضل من يخبرنا عن مجريات الأمور مع الخال أدلفارت، وجدت نفسها الآن مضطرة (كتبت) إلى العمل ليل نهار لتؤمن لها وللتوأمين قوت يومهم، ولهذا السبب، كانت بشكل يمكن تفهّمه، أول من كفَّ عن المجيء من أميركا خلال فصل الصيف. قلَّت زيارات كازيمير شيئًا فشيئًا أيضًا، وحدها الخالة تيريز جاءت بانتظام نوعًا ما، من ناحية لأنها عزباء، وبالتالي كانت في وضع أفضل بكثير يمكّنها من هذا، ومن ناحية أخرى لأنها ظلّت تشعر بالحنين إلى الوطن بشكل غير قابل للشفاء طوال حياتها. في كل زيارة، وفرحًا بالعودة، لم تكن تتوقف عن البكاء بعد مضي ثلاثة أسابيع على وصولها، وسوف تبدأ بالبكاء قبل ثلاثة أسابيع من مغادرتها أيضًا متألّمة من الفراق. إذا دامت إقامتها معنا مدة أطول من ستة أسابيع، سيكون هناك فترة هدوء في وسطها ستشغل نفسها فيها غالبًا بأعمال التطريز بالإبرة، لكن إذا كانت إقامتها أقصر كانت تمر أوقات لا يعرف المرء فيها حقًّا ما إذا كانت تبكي لأنها عادت إلى الوطن أخيرًا، أو لأنها كانت تخشى سلفًا من وجوب رحيلها مجددًا. كانت زيارتها الأخيرة كارثة مكتملة. بكت بصمت، على الفطور وعلى العشاء، وهي تتمشى في الحقول، أو وهي تشتري تماثيل هوميل الصغيرة[1] التي شُغُفت بها، وهي تحل الكلمات المتقاطعة، أو بينما تطلع من النافذة. عندما رافقناها إلى ميونيخ، جلست تذرف الدمع بيننا نحن الأطفال

(1) سلسلة من التماثيل الصغيرة المصنوعة من الخزف انطلاقًا من رسومات الراهبة ماريا هامل (1909–1946).

في مؤخرة سيارة سائق الأجرة «شريك» الجديدة من نوع «أوبل كابيتان» والأشجار على جانبي الطريق تمرُّ بنا مسرعة في ضوء الفجر، من كيمبتن إلى كاوفبويرن ومن كاوفبويرن إلى بوخلو، وبعد ذلك راقبتها من مصطبة المتفرّجين وهي تسير نحو الطّائرة الفضية اللون، حاملة صناديق قبعاتها، عبر مهبط الطائرات في مطار «رييم »، فكانت تنشج مرارًا وتجفف عينيها بمنديل. من دون أن تلتفت إلى الوراء قطّ، صعدت الدرجات واختفت عبر الفرجة المعتمة في بطن الطائرة إلى الأبد، إذا جاز القول. لفترة من الوقت ظلّت رسائلها تصلنا من المهجر (كانت تستهلها دومًا: أعزائي في الوطن، كيف حالكم؟ أنا بخير!) غير أن المراسلات التي استمرت من دون إبطاء طوال ثلاثين سنة تقريبًا انقطعت فيما بعد، لاحظت ذلك عندما لم تعد تصلني الورقة النقدية من فئة دولار واحد التي كانت ترسلها إليَّ بانتظام مع الرسالة. في غمرة موسم المرفع[1] وضعت أمي نعيًا في الصحيفة المحلية، يقول إن أختنا العزيزة، ابنة حمي وعمتي فارقت هذه الحياة في نيويورك بعد فترة قصيرة من إصابتها بعدوى مرضية تحمّلتها بشجاعة. كل هذا استدعى الكلام من جديد عن وفاة الخال تيو المبكّرة، لكن، كما أتذكّر جيدًا، ليس عن الخال أدلفارت الذي مرّت على وفاته، مثل تيو، بضع سنوات تقريبًا.

ربما كانت زيارات أقربائنا الصيفية السبب المبدئي الذي دعاني، وأنا أكبر، أن أتخيّل أني أنا أيضًا سأذهب يومًا ما للعيش في أميركا. مع ذلك كان أسلوب الحياة اليومية المختلف أكثر أهمية لحلمي بأميركا، الذي أبدته قوات الاحتلال المتمركزة في بلدتنا. وجد

(1) فترة الاحتفالات العامة الكاثوليكية التي تقام عادة خلال الأسبوع الذي يسبق الصوم الكبير.

السكان المحليون سلوكهم الأخلاقي -وقد عبّروا عن رأيهم هذا بتعليقات مهموسة تارة، وملفوظة جهارًا طورًا -غير لائق من أمة منتصرة عمومًا، فقد أحالوا المنازل التي استولوا عليها خرابًا، ولم يضعوا أصص الزهور على الشُّرفات، ووضعوا حُجبًا من المناخل في النوافذ بدلًا من الستائر، خرجت جماعة النساء بالسراويل ورمت أعقاب سجائرها الملطخة بأحمر الشفاه في الشارع، ورفع الرجال أقدامهم على الطاولات، وترك الأطفال دراجاتهم في الحديقة ليلًا، أما بالنسبة لهؤلاء السود، لم يعلم أحد ما فائدتهم. عزز هذا النوع بالضبط من الملاحظات المنتقصة رغبتي في رؤية البلد الأجنبي الذي لم أكن أملك فكرة عنه على الإطلاق. في الأمسيات، وأثناء الدروس المتصلة في المدرسة على وجه الخصوص، تصورت كل تفصيل من تفاصيل مستقبلي في أميركا. بلغت هذه الفترة من أمركة خيالي التي قطعت أثناءها الولايات المتحدة برمتها جيئةً وذهابًا، حينًا على ظهر حصان، وتارة على متن سيارة الأولدزموبيل[1] البنية الغامقة اللون، ذروتها بين سنتَي السادسة والسابعة عشرة في محاولتي لإتقان السلوك الجسدي والعقلي لبطل همنغواي، مغامرة في التقليد كان محكوم عليها بالفشل لعدة أسباب يمكن تخيّلها بسهولة. بالتالي تلاشت أحلامي الأميركية تدريجًا، وعند وصولها إلى نقطة التلاشي كان قد حلَّ محلها كره لكل ما هو أميركي. مدَّ هذا البغض جذوره عميقًا جدًا في حناياي خلال سنوات الدراسة وسريعًا لم يبد شيء أكثر سخفًا عندي من فكرة أني قد أسافر يومًا إلى أميركا، إلا مرغمًا. مع ذلك، طرت في النهاية إلى «نيوآرك»[2] في الثاني من

(1) Oldsmobile: نوع من السيارات الأميركية من إنتاج شركة جنرال موتورز.
(2) Newark: مدينة في ولاية نيوجرزي الأميركية.

شهر كانون الثاني العام 1981. كان الدافع وراء هذا التغيير في الرأي ألبوم صور لأمي وقع في يدي قبل بضعة أشهر احتوى على صور لم أرها من قبل لأقربائنا الذين هاجروا أثناء سنوات جمهورية فايمار[1]. كلما تفحصت صور الألبوم أكثر كلما شعرت بحاجة ملحة متزايدة إلى الاطلاع أكثر على حياة الناس التي تُصوّرها. التقطت الصورة التي تتبع هنا على سبيل المثال، في برونكس في آذار العام 1939.



لينا جالسة إلى اليسار قرب كازيمير: الخالة تيريز إلى أقصى اليمين. لا أعرف الآخرين الجالسين على الأريكة، باستثناء الفتاة الصغيرة التي تضع النظارات. إنها فلوسي التي عملت لاحقًا كسكرتيرة في توسن، أريزونا، وتعلّمت الرقص الشرقي عندما

(1) Weimar: تسمية غير رسمية للدولة الألمانية بين العامين 1919 و1933. والاسم مشتق من مدينة فايمار، حيث جرى التجمع الدستوري لأول مرة. وكان الاسم الرسمي للدولة الرايخ الألماني.

كانت في عقدها الخامس. تبيِّن اللوحة الزيتية على الجدار قريتنا «و». بقدر ما كنت قادرًا على الاكتشاف، لا أحد يعلم الآن مكان تلك الصورة. حتى الخال كازيمير الذي جلبها معه إلى نيويورك ملفوفة في أنبوب من ورق مقوى، كهدية وداعية من والديه، لا يعرف أين يمكن أن تكون قد التقطت.

وهكذا في الثاني من كانون الثاني ذاك الذي كان نهارًا مكفهرًا وموحشًا، انطلقت جنوبًا من مطار «نيوآرك» على طريق نيوجيرزي الرئيس باتجاه ليكهورست، حيث اشترى كلٌّ من الخالة فيني والخال كازيمير، بعد أن انتقلا من منطقة برونكس وقرية ماميرونك أواسط السبعينات، كوخًا في ما يسمى «مجتمع المتقاعدين» وسط حقول العنب البري. ما إن خرجت من المطار تمامًا وكنت على وشك الانطلاق على الطريق حتى ظهر في الهواء فوق كومة ضخمة حقًّا من القمامة شيء ضخم للغاية تعوزه الرشاقة، مثل مخلوق من عصور ما قبل التاريخ. كان يجرّ خلفه وشاحًا أسود ضاربًا إلى الرمادي من البخار، وللحظة بدا كما لو أنه أفرد جناحيه. ثم انطلق نحو الريف المنبسط، حيث على طول مسافة طريق نيوجرزي السريع لم يكن هناك شيء سوى أشجار مقزَّمة، وحقول ينمو فيها الخلنج بإفراط، ومنازل خشبية مهجورة، مكسوَّة جزئيًا بألواح خشب، مع حجرات متداعية والدجاج يتقافز في كل مكان. أخبرني الخال كازيمير لاحقًا أنه كان هناك أعداد هائلة من الدجاج محفوظة حتى سنوات ما بعد الحرب، تبيض بالملايين لسوق نيويورك إلى أن جعلت طرق تربية الطيور الداجنة الجديدة هذه التجارة عديمة الجدوى واختفى أصحاب الحيازات الصغيرة وطيورهم. سلكت طريقًا جانبيًا يتفرّع من الطريق السريع مسافة عدة كيلومترات عبر ما

يشبه المستنقع، ووصلت بُعيد الغروب إلى بلدة المسنين المسماة «سيدار غلن وست»[1]. على الرغم من أن هذه البلدة غطّت المنطقة الواسعة، وبالرغم من حقيقة أن تلك الأكواخ المشتركة كان يتعذّر تمييز الواحد منها عن الآخر، وعلاوة على ذلك، كانت مجسّمات «سانتا كلوز» المتوهجة، والمتماثلة تقريبًا، موضوعة في كل حديقة أمامية، وجدت منزل الخالة فيني بسهولة، إذ أن كل شيء في «سيدار غلن وست» كان منظّمًا بصرامة على منوال تناظري.

كانت الخالة فيني قد حضّرت لي «مولتاشن»[2]. جلست إلى الطاولة معي وحثتني على تناول الطعام بينما هي لم تأكل شيئًا، كما تفعل النساء المسنات غالبًا عندما يحضّرن الطعام للزائرين من الأقارب الأصغر سنًا. تحدثت خالتي عن الماضي، مغطية بإحدى يديها الجانب الأيسر من وجهها أحيانًا، حيث كانت تعاني لأسابيع من ألم أعصاب. من وقت لآخر، كانت تمسح الدموع التي ذرفتها والتي سبّبها لها الألم أو ذكرياتها. روت لي عن وفاة تيو المبكرة، وعن السنوات التي تلتها، عندما كان عليها غالبًا أن تعمل مدة ست عشرة ساعة أو أكثر يوميًا، ومضت تخبرني عن الخالة تيريز، وكيف أنها قبل أن تفارق الحياة، مشت لأشهر هنا وهناك كما لو أنها غريبة عن المكان. بدت أحيانًا، في ضوء الصيف مثل قديسة، في قفازاتها البيضاء المصنوعة من قماش التول القطني التي لبستها لسنوات بسبب إصابتها بالأكزيما. قالت الخالة فيني، ربما كانت تيريز قديسة حقًّا. تنكّبت في كل الأحداث حصتها من المتاعب. حتى عندما كانت طفلة قال لها مدرّس التعليم المسيحي إنها كانت

(1) Cedar Glen West: وادي الأرز الغربي.
(2) Maultaschen: من الأطباق التقليدية الألمانية.

سريعة البكاء، وفكّر في ذلك، قالت الخالة فيني، تبدو تيريز حقًّا أنها بكت معظم حياتها. لم تعرفها يومًا من دون منديل مبلل في يدها. وبالتأكيد، كانت دومًا تتخلّى عن كل شيء: كل ما جنته، وكل ما قُدّم لها عندما كانت تعمل كمدبرة منزل المليونير والرشتاين. هذا حقيقي كحقيقة جلوسي هنا، قالت الخالة فيني، وتوفيت تيريز فقيرة. شك كازيمير، ولا سيما لينا، بذلك، لكنها في الحقيقة لم تترك شيئًا سوى مجموعة من مائة تمثال من التماثيل الخزفية الصغيرة تقريبًا، وخزانتها (التي أؤكد لك أنها كانت رائعة)، وكمية كبيرة من الماس الصناعي – كلها معًا لم تكن لتغطي تكاليف الجنازة فقط إلا بالكاد.



قالت الخالة فيني ونحن نتصفّح ألبوم صورها، رحلنا، تيريز وكازيمير وأنا، من «و»، في نهاية العشرينات. أولًا، ركبت سفينة

مع تيريز في بريمرهافن في السادس من أيلول العام 1927. كانت تيريز في الثالثة والعشرين وأنا في الحادية والعشرين، كلتانا كنا نعتمر القلنسوات. تبعنا كازيمير من هامبورغ صيف العام 1929، قبل بضعة أسابيع من الجمعة السوداء[1]. كان قد تدرب على مهنة السمكرة، ولم يكن قادرًا على إيجاد عمل مثلي، كمدرسة، أو مثل تيريز كخياطة. كنت قد تخرّجت السنة السابقة من معهد ويتينهاوزن، ومنذ خريف العام 1926 عملت مدرسة مساعدة بلا أجر في المدرسة الابتدائية في «و». هذه صورة فوتوغرافية التقطت في ذلك الحين. كنا في نزهة إلى فالكينشتاين.



وقف التلاميذ جميعهم في مؤخّرة الشاحنة، بينما جلست في مقصورة السائق مع مدرّسة تدعى فوشسلوغر كانت واحدة من

---

(1) Black Friday: ذكرت الجمعة السوداء لأول مرة عام 1869 للإشارة إلى فضيحة مالية كبيرة في الولايات المتحدة، في الستينات بدأ الناس يستعملون التعبير نفسه للإشارة إلى يوم التسوق الذي يتبع عيد الشكر مباشرة.

الاشتراكيين القوميين الأوائل، وبينيديكت تانهايمر، مالك مدرسة آدلر ومالك الشاحنة. الطفلة في الخلف، المرسوم فوق رأسها علامة صليب هي والدتك روزا. أتذكر، قالت الخالة فيني، أنه بعد شهر تقريبًا، قبل يومين من ركوبي السفينة، ذهبت معها إلى كلوسترفالد، وأوصلتها إلى مدرستها الداخلية. أظن أن روزا في ذلك الحين كانت تتنازعها كمية كبيرة من المخاوف، بالنظر إلى أن مغادرتها البيت تزامنت، لسوء الحظ، مع رحيل إخوتها إلى حياة أخرى وراء البحار، لأنها أرسلت إلينا رسالة إلى نيويورك في عيد الميلاد تقول فيها إنها شعرت بالخوف عندما استلقت مستيقظة في مبنى الطلبة ليلًا. حاولت مواساتها بالقول إنه لا يزال لديها كازيمير، لكن بعدئذٍ غادر كازيمير إلى أميركا أيضًا، ولم تكن روزا قد تجاوزت الخامسة عشرة من عمرها. وهكذا هو الحال دومًا، قالت الخالة فيني بشكل تأمّلي: أمر تلو آخر. واصلت بعد بعض الوقت، مهما يكن من أمر، عشنا تيريزا وأنا برخاء نسبي إبّان وصولنا إلى نيويورك. استطاع الخال أدلفارت، شقيق والدتنا الذي رحل إلى أميركا قبل الحرب العالمية الأولى وكان يعمل في أفضل المنازل منذ ذلك الحين، أن يجد لنا عملًا بفضل علاقاته الكثيرة. عملت مربية عند عائلة سيليغمان في ميناء واشنطن، وتيريز عملت كوصيفة للسيدة والرشتاين التي تجايلها في العمر تقريبًا، وقد جمع زوجها الذي ينحدر من منطقة قرب أولم، ثروة كبيرة من عدة رخص لتخمير البيرة، ثروة راحت تتزايد على مر السنين.

قالت الخالة فيني، كما لو أنها كانت تبدأ الآن قصة جديدة كليًا وأكثر أهمية بالإجمال، كان الخال أدلفارت الذي لم تعد تتذكّره على الأرجح، رجلًا ذا رفعة نادرة. ولد في غوبرختس قرب كيمبتن العام

1886، هو الأصغر بين ثمانية أطفال، جميعهم فتيات فيما عداه. ربما توفيت والدته من الإرهاق قبل أن يبلغ الخال أدلفارت الذي منح اسم آمبروز، السنتين. بعد موتها، كان على الابنة الأكبر، كيرتسينز التي لا يمكن أن تكون قد تجاوزت السابعة عشرة من عمرها حينذاك، أن تدير أمور المنزل وتلعب دور الأم بأفضل ما استطاعت، في حين لم يعرف والدهم صاحب النزل سوى الجلوس بصحبة زبائنه. مثل الأخوات الأخريات، انبغى على آمبروز أن يقدّم لتسينزي المساعدة في وقت مبكر جدًا، أُرسل في عمر الخامسة إلى السوق الأسبوعي في ايمنشتات، مع ميني التي لم تكن تكبره بكثير، ليبيعا ما جمعاه في اليوم السابق من الفطر والتوت البري. وهكذا حتى الخريف، قالت الخالة فيني، لم يفعل الأصغران من بين أطفال عائلة أدلفارت أحيانًا شيئًا لأسابيع متواصلة سوى أن يجلبا إلى البيت سلالًا من الزعرور البري، كانا يفتحان كل ثمرة، ثم يستخرجان البذار الوبرية بطرف ملعقة، وبعد تركها في حوض غسيل بضعة أيام لسحب الرطوبة، يضعان لب الزعرور الأحمر في العصارة. إذا فكر المرء الآن بالظروف التي نشأ فيها آمبروز، قالت الخالة فيني، سيخلص حتمًا إلى أنه لم يعش طفولة حقيقية أبدًا. غادر البيت في الثالثة عشرة من عمره ذاهبًا إلى ليندو، حيث عمل في مطابخ فندق (بايرشر هوف) إلى أن جمع ما يكفي من نقود لشراء تذكرة إلى لوزان، بعد أن سمع تمجيدًا حماسيًا لجمالها في النزل في غوبريختس من ساعاتي مسافر. قالت الخالة فيني، سوف لن أعرف أبدًا مرد ذلك، لكنني أرى أمبروز في خيالي دومًا يعبر بحيرة كنوستانس من ليندو بالباخرة، في ضوء القمر، على الرغم من أنه لا يمكن أن يكون هذا ما جرى في الواقع إلا بالكاد. أمر وحيد مؤكد: إنه خلال بضعة أيام من مغادرته

وطنه نهائيًا، آمبروز الذي لم يكن يتجاوز عمره حينها أربعة عشر عامًا، كان يعمل كصبي متمرن[1] على خدمة الغرف في فندق عدن الكبير في مونترو، ربما يعود الفضل في ذلك إلى جاذبيته الاستثنائية وضبط النفس على حد سواء. قالت الخالة فيني، على الأقل أظن أنه كان فندق عدن، ففي أحد ألبومات البطاقات البريدية التي تركها الخال أدلفارت، يظهر الفندق الشهير عالميًا في إحدى الصفحات الافتتاحية، وظلّاته المسدلة على النوافذ تجاه شمس الأصيل. تابعت الخالة فيني بعد أن جلبت الألبوم من أحد أدراج غرفة نومها وفتحته أمامي، أثناء تمرسه في مونترو، لم يكن آمبروز ملمًّا بكل أسرار حياة الفندق فقط، بل تعلم الفرنسية حتى أتقنها أيضًا، أو بالأحرى تشرَّبها. كانت لديه موهبة خاصة في اتقان اللغات الأجنبية بمفرده، من دون جهد ظاهر أو أية مساعدة تدريسية، خلال سنة أو اثنتين، بإجراء تعديلات معينة (كما شرح لي مرة) على سريرته.



(1) Apprenti garcon: بالفرنسية في الأصل.

عدا عن انكليزية نيويورك المتقنة تمامًا، تحدّث أيضًا بفرنسية أنيقة للغاية وألمانية مفخَّمة جدًا، ما أثار دهشتي إلى أبعد حد، بما أنه بالكاد استطاع أن يمتلكها عندما كان في غوبريختس. فضلًا عن ذلك، تذكرت الخالة فيني، لم يكن إلمامه باللغة اليابانية مجرد معرفة أولية، كما سبق أن اكتشفت مصادفة عندما كنا نتسوّق معًا من محلات «ساكس» وأتى إلى نجدة سيد ياباني لا يعرف الإنكليزية وكان متورطًا في أمر بغيض.

سافر آمبروز إلى لندن بعدما أنهى سنوات تتلمذه في سويسرا، مصحوبًا بتزكيات ممتازة وشهادات بالأهلية، حيث عمل في فندق السافوي في شارع الستراند خريف العام 1905 في خدمة الغرف ثانيةً. أثناء فترة إقامته في لندن جرت الحادثة الغريبة المتعلّقة بالسيدة القادمة من شنغهاي. كل ما أعرفه عنها هو ولعها بالقفازات الناعمة[1] البنية اللون، على الرغم من أن الخال أدلفارت أشار لاحقًا بين الحين والآخر إلى ما عاناه مع هذه السيدة (قال مرة، لقد وَسَمتْ مستهلّ مهنتي بسوء الحظ)، لم أتمكّن يومًا من اكتشاف مجريات الأمر في حقيقتها. أحسبُ أن السيدة من شنغهاي وقد ربطتُها دومًا، بسخافة لا شك، بماتا هاري[2]- أقامت غالبًا في فندق السافوي، وأن آمبروز الذي كان حينها في العشرين من عمره تقريبًا، تواصل معها بحرَفية، إذا كان ممكنًا قول ذلك. كذلك الأمر مع المستشار

(1) Kid gloves: قفازات تصنع عادة من جلود صغار الماعز.

(2) Mata Hari (1876 – 1917) Margaretha Geertruida MacLeod: وهو الاسم الفني الذي اشتهرت به أشهر جاسوسة في التاريخ الحديث. كانت راقصة هولندية، وموسمًا أيضًا لدى رجال الطبقة العليا من المجتمع، تم إعدامها من قبل الفرنسيين رميًا بالرصاص بتهمة التجسس عليهم لصالح ألمانيا خلال الحرب العالمية الأولى.

من المفوضية اليابانية الذي رافقه العام 1907، إن لم أكن مخطئة، في رحلة بالسفينة والقطار عبر كوبنهاغن، ريغا، سان بطرسبورغ، وموسكو، عبر سيبيريا، إلى اليابان، حيث يملك السيد العازب منزلًا رائعًا على بحيرة، قرب كيوتو. أمضى آمبروز سنتين تقريبًا، من ناحية خادمًا ومن ناحية أخرى ضيفًا على المستشار، في ذلك المنزل العائم الفارغ تقريبًا، وبقدر اطلاعي على الأمر شعر بالسعادة هناك أكثر من أي مكان آخر حتى ذلك الحين. قالت الخالة فيني، مرة في ماميرونيك، أمضى الخال أدلفارت فترة الأصيل يخبرني عن المدة التي قضاها في اليابان. لكن لم أعد أتذكّر بالضبط ما الذي قاله لي. شيء عن جدران ورقية، كما أظن، وعن الرماية بالنبال، والكثير عن الغار الدائم الخضرة، والآس والكاميليا البرية.



وأتذكّر شيئًا عن شجرة كارفور عتيقةً جوفاء كانت تتسع فيما يبدو لخمسة عشر شخصًا في جوفها، قصة عن قطع رأس، قالت الخالة فيني، بعينين نصف مغمضتين، ونداء طائر الوقواق الياباني هوتوتوغيسو الذي استطاع محاكاته جيّدًا جدًّا.

ذهبت بعد قهوة الصباح في اليوم الثاني من إقامتي في «سيدار غلن وست»، إلى الخال كازيمير. كانت الساعة تقارب العاشرة والنصف عندما جلست معه إلى طاولة المطبخ. كانت لينا منشغلة عند الموقد. جاء خالي بكأسين وصبَّ البراندي المصنوع من الجنتيانا[1] الذي جلبته معي. حالما تمكنت من توجيه الحديث نحو موضوع الاغتراب بدأ بالقول، في تلك الأيام، بكل بساطة لم يحظَ أمثالنا من الناس بفرصة في ألمانيا. حصلت على عمل مرة واحدة فقط، عندما أنهيت تدربي على مهنة السمكرة في التنشتات، العام 1928، عندما كانوا يعملون على تركيب سطح نحاسي جديد للكنيس في اوغسبورغ. تبرع يهود اوغسبورغ بالسطح النحاسي القديم للمجهود الحربي خلال الحرب العالمية الأولى، ولم يمتلكوا النقود التي يحتاجونها لشراء سقف جديد حتى العام 1928.



(1) Gentian: نبات ينمو في المناطق المعتدلة الجبلية، وخصوصًا في المناطق الجبلية الألبية في القطب الشمالي، ولبعضها استخدامات في صناعة الادوية.

قال الخال كازيمير وهو يدفع عبر الطاولة صورة مؤطرة بحجم بطاقة بريدية أنزلها عن الجدار، هذا أنا إلى أقصى اليمين من حيث تنظر. لكن بعد ذلك العمل لم يكن هناك شيء لأسابيع، وواحد من رفاقي، يدعى جوزف وولفارت كان لا يزال يشعر بالثقة تجاه الأمور عندما كنا نعمل على سطح الكنيس، شنق نفسه في ما بعد يائسًا. كتبت فيني رسائل حماسية من موطنها الجديد، فلم يكن هناك عجب أن قررتُ أخيرًا اللحاق بأخواتي إلى أميركا. لا أتذكّر شيئًا عن الرحلة على متن قطار عبر ألمانيا، إلا أن كل شيء بدا لي غير مألوف وغير مفهوم -البلد الذي عبرناه، محطات القطار الضخمة والمدن، الراينلاند[1] والسُّهول الفسيحة شمالًا -أغلب الظن لأني لم أذهب يومًا أبعد من ألغاو ومنطقة ليشفيلد. لكن لا أزال أرى مكاتب شركة [2]نوردويتشر لويد في برمرهافن بوضوح تام أمامي. كان المسافرون الذين لا يملكون إلا القليل من المال مجبرين على الانتظار هناك حتى يتمكنوا من ركوب السفينة. أتذكّر بشكل خاص الأنواع الكثيرة المختلفة من أغطية الرأس التي اعتمرها المغتربون: قلنسوات وقبعات، شتوية وصيفية، شالات ومناديل ثم القبعات المستدقة الطَّرف لمضيفي الخطوط الملاحية وزيِّ موظفي الجمارك والقبعات السود للوسطاء والسماسرة. عُلّقت على الجدران لوحات زيتية كبيرة لسفن الركاب من عابرات

(1) Rhineland: الاسم الذي يطلق على المنطقة الواقعة غرب ألمانيا على طول نهر الراين، وتحديدًا القسم الأوسط.

(2) من أهم شركات الشحن الألمانية في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

المحيط التابعة لأسطول شركة ليولد. كانت كل واحدة منها تشق طريقها بكامل استطاعتها، ترتفع المقدمة من بين الأمواج، فتنقل إحساسًا بأن قوة لا يمكن إيقافها تتجه قدمًا. كان معلقًا فوق الباب الذي عبرنا من خلاله أخيرًا ساعة دائرية بأرقام رومانية، وفوق الساعة بأحرف مزخرفة كان شعار «حقلي هو العالم»[1].

كانت الخالة لينا تقحم بطاطا مسلوقة في مكبس على دفٍ منثور عليه الدقيق، والخال كازيمير، يصب لي كاسًا أخرى من مشروب الجنتيانا. ومضى في وصف عبوره في عين عواصف شهر شباط قائلًا إن الأمواج كانت مرعبة وهي ترتفع من الأعماق وتهبط متدحرجة. حتى في طفولتي كنت أخاف عندما كانت تتجمّد بركة الضفادع، وكنا نلعب على الجليد لعبة الكرلينغ[2]، وفجأة أفكر بالعتمة تحت قدميَّ. والآن، لا شيء سوى ماء أسود في كل مكان. والأيام تمرّ، والسفينة تبدو دومًا أنها تتراوح في المكان. كان معظم رفاقي المسافرين مصابين بدوار البحر. تمدّدوا منهكين في مضاجعهم، عيونهم كامدة أو نصف مغلقة. آخرون أقعوا على الأرض، أو وقفوا يتكئون لساعات إلى جدار، أو ترنحوا على طول الممرات كالمسرنمين. لأسبوع كامل، أنا أيضًا شعرت بدنو موتي. لم أشعر بتحسّن إلى أن عبرنا المضايق ودخلنا آبر باي[3]. جلست على مقعد على ظهر المركب. كانت السفينة قد أبطأت. شعرت بنسيم عليل

---

(1) Mein Feld ist die Welt: وهي عبارة وردت في انجيل متى 13:38 (وَالْحَقْلُ هُوَ الْعَالَمُ. وَالزَّرْعُ الْجَيِّدُ هُوَ بَنُو الْمَلَكُوتِ. وَالزَّوَانُ هُوَ بَنُو الشِّرِّيرِ.)

(2) Curling: لعبة على الجليد.

(3) مرفأ نيويورك.

على جبهتي، ونحن نقترب من الواجهة البحرية، نهضت مانهاتن شيئًا فشيئًا أمامنا من وسط سحب شمس الصباح الحارة.

لم تستطع أخواتي اللواتي كن ينتظرنني على رصيف الميناء، تقديم الكثير من العون، ولا الخال أدلفارت استطاع أن يجد لي عملًا، لأني لم أكن أتقن أعمال البستنة أو الطهو أو الخدمة. في اليوم التالي لوصولي استأجرت غرفة خلفية تطل على منور ضيّق، من السيدة ريزا ليتواك في شارع بايارد في حي «لاور إست سايد»[1]. السيدة ليتواك التي مرَّ عام على وفاة زوجها، أمضت اليوم بطوله في الطهو والتنظيف، أو إذا لم تكن تطهو وتنظف كانت تصنع زهورًا ورقية أو تخيط طوال الليل لأطفالها أو لأناس آخرين، أو تعمل كخياطة احتياطية لحساب متجر أو آخر. عزفت أحيانًا على البيانولا أغاني جميلة جدًّا بدوت أني أعرفها من مكان ما. حتى الحرب العالمية الأولى كان كل من شارع باويري وحي لاور است سايد بكامله يشكلان المناطق التي سكنها المهاجرون بشكل أساسي. كان يصل أكثر من مائة ألف يهودي إلى هناك سنويًا، يسكنون في شقق ضيقة قذرة في مبانٍ مؤلفة من خمسة أو ستة طوابق. كانت ما سميت بالردهة، المواجهة للشارع، الغرفة الوحيدة التي لها نافذتان، وسلَّمًا للنجاة يمر بمحاذاة واحدة منهما. في الخريف، كان اليهود يبنون مظالّهم[2] على بسطات سلالم النجاة، وفي الصيف، عندما لا

---

(1) Lower East Side.

(2) Sukkahs: من العبرية السكوت أو المظال التي تنصب عادة في عيد المظال وهو ثالث الأعياد الكبرى عند اليهود.
وهو عيد زراعي، يرمز إلى تخزين المواد الزراعيّة، الذي يسبق فصل الخريف. =

تبارح الحرارة شوارع المدينة طوال أسابيع ولم تكن الحياة تُطاق داخل البيوت، ينام مئات وآلاف الناس في الخارج، في الأعالي المهَوّاة، أو حتى على السطوح أو الأرصفة أو بقع العشب الصغيرة على شارع ديلانسي وفي حديقة سيوارد. كان حي لاور إست سايد بأكمله حجرة واحدة ضخمة. مع ذلك، كان المهاجرون مفعمين بالأمل في تلك الأيام، وأنا شخصيًّا لم أكن قانطًا بأية حال من الأحوال عندما بدأت أبحث عن عمل في نهاية شهر شباط العام 1928. وقبل نهاية الأسبوع حصلت على مكاني إلى طاولة الحرفي، في مشاغل سيكلر ومارغاريتن للمياه الغازية والفوَّراة «سيلتزر» قرب الطريق المنزلق الواصل إلى جسر بروكلين. صنعت هناك مراجل من الفولاذ المقاوم للصدأ وبراميل من أحجام مختلفة، باع سيكلر الكبير الذي كان يهوديًا من برين (لم أعرف يومًا من يكون مارغاريتن) معظمها على أنها «عدة للتموين» إلى معامل التقطير المحظورة حيث لم تكن مسألة السؤال عن السعر مهمة بقدر أهمية القيام بالعمل بأقصى قدر من العناية. قال سيكلر الذي كان لسبب ما مولعًا بي، إن بيع هذه البراميل المصنوعة من الفولاذ وجميع اللوازم الأخرى الأساسية لمعامل التقطير توسّعت لتصبح خط إنتاج جانبي من تلقاء نفسها تقريبًا دون أن يبذل جهدًا لتنشيطها، إلى جانب العمل الرئيس في المياه الغازية والفوارة، وهكذا ببساطة لم يكن قلبه يطاوعه على إيقافها. لقد أطرى سيكلر على عملي دومًا، لكنه كان يرفض الدفع، ومنحني راتبًا ضئيلًا.

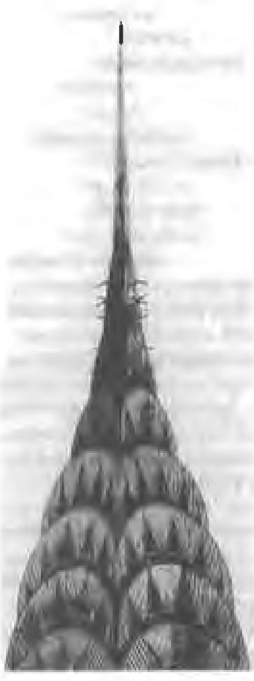
= بعد يوم كيبور مباشرة، يبدأ اليهود ببناء أكواخ تميّز عيد المظال، إحياء لذكرى تيه الإسرائيليين في بريّة سيناء حيث اعتادوا الإقامة تحت المظال.



كان يقول، على الأقل أنت معي على أولى درجات السلم. ثم ذات يوم دعاني إلى مكتبه بعد عدة أسابيع من فصح اليهود، انحنى إلى الخلف في كرسيه وقال: هل أنت ماهر في العمل على الأماكن المرتفعة؟ إذا كنت كذلك، يمكنك التقدم إلى مؤسسة «يشيفا»[1] الجديدة، يحتاجون إلى حدادين مثلك. وأعطاني العنوان 500- ويست الشارع 187 ناصية جادة آمستردام. في اليوم التالي كنت على قمة البرج، تمامًا كما كنت على كنيس أوغسبورغ، لكنه أكثر ارتفاعًا، أساعد في تثبيت حزم نحاسيةٍ بعرض ستة أمتار تقريبًا على القبة المتوّجة للمبنى الذيَ بدا هجينًا بين محطة قطار وقصر

(1) Yeshiva: وهي مؤسسة يهودية تركز على دراسة النصوص الدينية القديمة.

شرقي. بعد ذلك، عملت كثيرًا على قمم ناطحات السحاب التي استمروا في بنائها حتى بداية الثلاثينات في نيويورك، على الرغم من الكساد الاقتصادي. وضعت الأغطية النحاسية على مبنى شركة جنرال إلكتريك، وأمضيت سنة بين العامين 1929 و1930 في أعمال الفولاذ والتصفيح على قمة مبنى كريسلر وكانت صعبة بما لا يصدّق بسبب التحدُّبات والانحدارات. بطبيعة الحال، ولأن كل أعمالي البهلوانية تم تنفيذها على ارتفاع مئتين أو ثلاثمائة متر فوق سطح الأرض، كسبت الكثير من المال، لكنني أنفقته بالسرعة التي كسبته فيها. ثم كسرت رسغي وأنا أتزلج في السنترال بارك ولم أعمل حتى العام 1934. ثم انتقلنا إلى برونكس، والحياة في المرتفعات المدوِّخة بلغت نهايتها.



بعد الغداء، بدا الخال كازيمير ضجِرًا وراح يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، وقال أخيرًا: عليَّ الخروج من المنزل! أجابت الخالة لينا التي كانت تغسل: يا له من يوم للخروج في جولة! قد يخيل للمرء حقًّا أن الليل كان يسقط، كانت السماء منخفضة جدًا وحالكة السواد، وكانت الشوارع مقفرة. عبرنا بعدد قليل جدًا من السيارات على الطريق. استغرقنا ساعة تقريبًا لاجتياز ثلاثين كيلومترًا نحو الأطلسي، لم يسبق يومًا أن عرفت شخصًا يقود على طريق ممتد مفتوح بالبطء الذي قاد به الخال كازيمير. جلس مائلًا إلى العجلة، يقود بيده اليسرى ويروي الحكايات عن ذروة حظر الكحول[1]. كان يلقي بين الحين والآخر بنظرة إلى الأمام ليتأكد من أننا لا نزال في المسار الصحيح. قال إن الإيطاليين قاموا بمعظم العمل. بنوا على طول الساحل، في أماكن مثل ليوناردو، اتلانتيك هايلاندز، ليتل سيلفر، أوشن غروف، نبتون سيتي، بيلمار وليك كومو، قصورًا صيفية لعائلاتهم وفيلّات لنسائهم، وكما جرت العادة بنوا كنيسة أيضًا ومنزلًا صغيرًا للقسيس. خفَّف الخال السرعة أكثر وفتح نافذته. قال، هذا نهر تومز، لا يبقى أحد هنا في الشتاء. في المرفأ تربض المراكب الشراعية متلاصقة مثل قطيع خائف، حبال الأشرعة تجلجل. وقف نَوْرَسان على قمة مقهى مبني على شكل منزل كعكة الزنجبيل[2]. كان متجر بايرايت مغلقًا، وكذلك بيتزا بارلور وهمبرغر هيفين، والبيوت الخاصة مقفلة ومصاريع نوافذها مغلقة

(1) قانون الحظر كان قانونًا فيدراليًا يحظر بيع وتصنيع ونقل المشروبات الكحولية في الولايات المتحدة في الفترة ما بين العامين 1920 – 1933. في حين لم يكن تناول المشروبات الكحولية ممنوعاً.

(2) وهي كعكة تصنع على شكل منزل من خبز الزنجبيل.

أيضًا. هبَّت الريح الرملية عبر الطريق وتحت الأرصفة الخشب. قال الخال، الكثيبات تجتاح البلدة. إذا لم يواظب الناس على المجيء في الصيف، هذا كله سيدفن خلال بضع سنوات. من نهر تومز هبط الطريق نحو خليج بارنيغيت وعبر جزيرة بيليكان إلى قطعة أرض بطول ثمانين كيلومترًا امتدت على طول ساحل نيوجرزي بعرض لا يتجاوز كيلومترًا واحدًا. ركنَّا السيارة ومشينا على طول الشاطئ تلسع ظهرينا الريح الشمال الشرقية. قال الخال كازيمير، أخشى أني لا أعرف الكثير عن آمبروز أدلفارت. عندما وصلت إلى نيويورك كان قد تجاوز الأربعين من عمره، وفي الأيام الأولى، وما تلاها أيضًا، لم أره إلا لمامًا، ليس أكثر من مرة أو مرتين في السنة. بالتأكيد سرت شائعات بقدر ما كان الأمر يتعلّق بماضيه الأسطوري، لكن كل ما أعرفه على نحو مؤكد هو أن آمبروز كان قهرمانًا وكبير خدم آل سولومون الذين يملكون عقارًا في روكي بوينت، في طرف لونغ آيلاند القصي، كان محاطًا بالماء من ثلاثة جوانب.



كان آل سولومون -مع آل سيليغمان، ليوب، وكون، وسباير وورمسر من بين العائلات اليهودية العاملة بالصِّرافة الأكثر ثراءً في نيويورك. قبل أن يصبح آمبروز كبير خدم عائلة سولومون كان خادمًا

ورفيق سفر لكوزمو، ابن العائلة الذي كان يصغره ببضع سنوات وكان ذائع الصيت في مجتمع نيويورك بإسرافه وأعماله الطائشة التي لا حدود لها. ذات مرة، على سبيل المثال، قالوا إنه حاول أن يقود حصانًا على الدرج في بهو فندق بريكرز في بالم بيتش. لكني أعرف قصصًا شبيهة بتلك من أقوال الناس فقط. أحيانًا ألمحت فيني التي صارت موضع ثقة آمبروز قرب النهاية، إلى أنه كان هناك شيء مأساوي في العلاقة بين آمبروز وابن عائلة سولومون. وبقدر ما أعرف، أصيب الشّاب سولومون بمرض عقلي مدمّر في أواسط العشرينات. أما بالنسبة للخال أدلفارت، فكل ما يمكنني قوله هو أني شعرت دومًا بالأسف عليه، لأنه لم يستطع أبدًا، طوال حياته، أن يسمح لأي شيء أن يزعزع رباطة جأشه. قال الخال كازيمير، بالتأكيد كان من المذهب الآخر، كما يستطيع أن يرى الجميع، حتى لو تجاهلت العائلة الأمر دومًا أو تستّرت عليه. ربما بعض منهم لم يدرك أبدًا. كلما كبر الخال أدلفارت في السّن، كلما بدا لي أكثر نحولًا، آخر مرة رأيته، في المنزل في ماميرونيك الذي وهبه إياه آل سولومون، المؤثث على نحو ممتاز جدًا، كان كما لو أن ملابسه كانت تمسك به. كما قلت، رعته فيني حتى النهاية. ستكون قادرة على منحك فكرة أفضل عنه. توقف الخال كازيمير ووقف يحدق بالمحيط وقال: هذه حافة الظلمة. وفي الحقيقة بدا البر كما لو أنه مغمور خلفنا وكما لو أنه لا يوجد شيء عدا هذا القفر المائي سوى هذا الشريط الرملي الضيق يندفع شمالًا وجنوبًا. آتي كثيرًا إلى هنا، قال الخال كازيمير، إنه يمنحني شعورًا بأني بعيد لوقت طويل، ولو أني لم أعرف تمامًا أبدًا بعيد عن ماذا. ثم أخرج آلة تصوير من سترته العريضة بنقوشها التربيعية الشّكل والتقط هذه الصورة، أرسل لي

نسخة منها بعد سنتين، ربما عندما انتهى أخيرًا من تصوير كامل الفيلم، مع ساعة جيبه الذهبية.



كانت الخالة فيني جالسة في كرسيّها ذي المسندين في غرفة الجلوس المعتمة عندما دخلت عليها ذلك المساء. لم يكن سوى وهج مصابيح الشارع ملقىً على وجهها. قالت، خفَّت الآلام، لقد اختفى الألم تقريبًا. ظننت أولًا أني كنت أتخيل فقط أنه كان يتحسن، كان التحسن بطيئًا جدًّا. وعندما تعافيت تقريبًا، فكرت: لو تحركت الآن سيبدأ مجددًا. لذا بقيت جالسة هنا. كنت جالسة هنا طوال الأصيل. لم أستطع معرفة إن كنت غفوت بين الحين والآخر. أظن أني كنت غارقة في أفكاري أغلب الوقت. أضاءت خالتي مصباح القراءة الصغير لكن أبقت عينيها مغلقتين. خرجت إلى المطبخ وسلقت لها بيضتين برشت، وخبزًا محمصًا، وشايًا بالنعناع. عندما

أخذت إليها الصينية أدرت دفة الحديث نحو الخال أدلفارت. قالت الخالة فيني، وهي تغمس الخبز المحمَّص[1] في إحدى البيضتين، بعد حوالى سنتين من وصوله إلى أميركا، استلم آمبروز وظيفة عند آل سولومون في لونغ آيلاند. لا أتذكر الآن ما الذي حلَّ بالمستشار في المفوضية اليابانية. في كل الأحوال، شقَّ الخال طريقه سريعًا لدى آل سولومون. خلال فترة قصيرة، وعلى نحو مثير للدهشة، عرض عليه ساموييل سولومون الأب الذي كان متأثرًا جدًا بيقين آمبروز الثابت إزاء كل الأمور، وظيفة مرافق شخصي لابنه، ليعتني به. لقد كان يعتقد، وكانت لديه أسبابه، أن الأخطار العظيمة تحيط به. ما من شك أن كوزمو سولومون الذي لم أحظَ بفرصة لقائه، كان نزَّاعًا إلى الانحراف. كان موهوبًا للغاية، وطالبًا واعدًا يدرس الهندسة، لكنه هجر دراساته ليبني آلات طائرة في مصنع قديم في هاكنساك. أؤكد لك أنه في الوقت نفسه أمضى فترات طويلة في أماكن مثل ينابيع سارتوغا وبالم بيتش، أولًا لأنه كان لاعب بولو ماهرًا، وثانيًا لأنه استطاع إنفاق مبالغ كبيرة في فنادق باذخة مثل البريكر والبوانسيانا أو أميركان أدلفي، وهذا بكل بساطة كان جلّ ما يهمه في ذلك الحين، كما أخبرني الخال أدلفارت مرة. كان سولومون الأب منزعجًا من الحياة الفاسقة التي يحياها ابنه، وشعر بأن لا مستقبل له. عندما حاول أن يقلل من نصيبه الذي لم يكن محدودًا في الحقيقة، خطرت لكوزمو فكرة إيجاد مصدر للدخل لن ينضب أبدًا، باللعب في كازينوات أوروبّا خلال أشهر الصيف. في شهر حزيران من العام 1911، بصحبة آمبروز كصديق له ومرشد، ذهب إلى فرنسا لأول مرة، وفورًا كسب مبلغًا معتبرًا في ايفيان على بحيرة جنيف ثم في مونت كارلو، في صالة شميت.

(1) Soldier: خبز محمص ومقطع بشكل طولاني.



قال لي الخال أدلفارت مرة إن كوزمو يصبح منفصلًا بغرابة وهو يلعب الروليت. أولًا، كان آمبروز يظن أنه كان يركز على حساب الاحتمالات، إلى أن أخبره كوزمو ذات يوم أنه في مثل هذه الأوقات كان بالفعل في غيبوبة من نوع ما، يحاول أن يفك شيفرة الرقم الصحيح عندما ظهر لجزء من الثانية من السديم الذي كان مصمتًا على نحو عادي، وعندئذ من دون أدنى تردد، وكما لو أنه كان لا يزال في حلم، يضع رهانه، إما على عدد محدّد واحد أو رهانًا زوجيًا[1]. ادَّعى كوزمو أن هذا الحال المتمثل في انسحاب كلي من الحياة العادية كان خطرًا، وكانت مهمة آمبروز أن يسهر على رعايته كما يرعى المرء طفلًا نائمًا. بالتأكيد لا أعرف ما الذي كان يجري حقيقة، قالت الخالة فيني، لكن أمرًا وحيدًا مؤكدًا: هو أنهما جمعا في ايفيان ومونت كارلو نقودًا مكّنت كوزمو من شراء طيارة من الصناعي الفرنسي دوتش دو لا مورت[2]، حلّق بها في السباق الجوي Quinzaine d'Aviation de la

(1) en plein أو à cheval: بالفرنسية في الأصل. أنواع من الرهانات النهائية في لعبة الروليت.

(2) (1846 – 1919) :Deutsch de la Meurthe رجل أعمال فرنسي ناجح كان يعمل =

Baie de Seine[1] الذي أقيم في دوفيل في شهر آب ذاك، وكان الأكثر جرأة في التحليق في الطيران. كان كوزمو في دوفيل مع آمبروز صيف العام 1912 وصيف العام 1913 أيضًا، واستأثر بمخيلة المجتمع، ليس فقط بسبب حظه المدهش في الروليت ومخاطراته البهلوانية في ملعب البولو، لكن بشكل أساسي، أنا على ثقة، لأنه رفض كل دعوة تلقّاها لشرب الشاي أو تناول العشاء أو ما شابه، ولم يخرج أبدًا أو يأكل مع أي شخص سوى آمبروز الذي عامله دومًا كندٍّ له. بالمناسبة، قالت الخالة فيني، يوجد في ألبوم بطاقات الخال أدلفارت البريدية صورة تظهر كوزمو مع كأس قدمته سيدة أرستقراطية -الكونتيسة فيتزجيمس، إذا كنت أتذكّر على نحو صحيح - بعد مباراة في مضمار سباق كليرفونتين، ربما حدث خيري. إنها الصورة الوحيدة التي اقتنيها لكوزمو سولومون.



= في مجال النفط ويسمى ملك أوروبا للنفط. وكان واحدًا من أشد المتحمسين للملاحة الجوية.

(1) أسبوعان من الطيران في خليج نهر السين أقيم بين 25 آب و6 أيلول من عام 1910.

هناك عدد قليل نسبيًا من الصور لآمبروز أيضًا ربما لأنه كان خجولًا للغاية مثل كوزمو، على الرغم من إلمامه بأساليب العالم. في صيف العام 1913، تابعت الخالة فيني، كان قد افتُتِحَ كازينو جديدًا في دوفيل، وأثناء الأسابيع الأولى القليلة استولت على الناس حمّى القمار على نحوٍ مسعور جدًّا حتى إن كل طاولات الروليت والباكاراه[1] وما يسمونها لعبة الخيول الصغيرة، كانت باستمرار مشغولة باللاعبين، ومحاصرة بعدد أكبر من طالبي اللعب. يفترض أن مقامرة[2] معروفة جيدًا تدعى مارتا هانو قادت الهيستيريا. أتذكر بوضوح، قالت الخالة فيني -إنَّ الخال أدلفارت دعاها مرة بالنذلة[3]، كانت شوكة في لحم إدارة الكازينو لسنوات لكنها كانت في ذلك الوقت تتملّق المقامرين إلى الطاولات نيابة عنهم وبناء على طلبهم. من وجهة نظر الخال أدلفارت، بمعزل عن مكائد مارتا هانو، كان الجو الهائج الذي كان قد تغيّر تمامًا بالترف المتباهي للكازينو الجديد، هو المسؤول عن الارتفاع الفريد في مكاسب مصرف دوفيل ذلك الصيف من العام 1913. أما كوزمو فقد أصبح في صيف العام 1913 أكثر انعزالًا من السنوات السابقة عن دوّامة اجتماعية كانت تزداد جموحًا، وكان يعزف فقط في وقت متأخر من المساء، في الحرَم الداخلي، في صالة دو لا كوفيت. كان مسموحًا فقط للسادة في البزّات الرسمية بالتواجد في الصالة الخاصة، حيث كان الجو السائد دومًا مشؤومًا، كما وصفه الخال أدلفارت، -ولا عجب،

(1) Baccarat: من ألعاب الورق التي تلعب في الكازينوات.
(2) Joueuse: بالفرنسية في الأصل.
(3) Filibustière: بالفرنسية في الأصل.

قالت الخالة فيني، إذا فكّرت أن جميع الثروات، وأملاك العائلة، والعقارات وإنجازات مدى الحياة لم يكن من النادر المقامرة عليها خلال ساعات. كثيرًا ما كان حظ كوزمو متقلبًا في بداية الموسم، لكن مع اقتراب النهاية سوف يتجاوز حتى توقعاته الشخصية. بعيون نصف مغلقة، سيكسب المرة تلو المرة، يتوقف فقط عندما يجلب له آمبروز حساء الكونسوميه أو القهوة بالحليب[1]. أخبرني الخال أدلفارت أن كوزمو أفرغ البنك في أمسيتين على التعاقب، وكان على مشغّلي الآلة جلب المزيد من النقود، قالت الخالة فيني: ثم في مساء اليوم الثالث، عندما أفلس البنك ثانية، ربح كوزمو الكثير حتى إن آمبروز انشغل حتى الفجر بعدِّ المال وحفظه في صندوق باخرة. بعد قضاء الصيف في دوفيل، سافر كوزمو وآمبروز من باريس والبندقية إلى القسطنطينية والقدس. لا يمكنني أن أخبرك أي شيء عما حدث في تلك الرحلة، قالت الخالة فيني، لأن الخال أدلفارت لم يجب يومًا على الأسئلة التي طرحتها عن تلك الرحلة. لكن هناك صورة له في زيّ عربي، التقطت عندما كانا في القدس، وقالت الخالة فيني، لديّ نوع من يوميات أيضًا، بخط صغير، احتفظ بها آمبروز.

لوقت طويل كنت قد نسيت أمرها تمامًا، لكن من الغريب القول، حاولت فقط مؤخرًا أن أفك رموزها. إلا أنني بعينيَّ الضعيفتين لم أنجح في تمييز الكثير فيها سوى كلمات غريبة، ربما عليك أن تحاول.

(1) بالفرنسية في الأصل.



مع وقفات طويلة، بدت أثناءها غالبًا بعيدة جدًا وضائعة، حدثتني الخالة فيني في يومي الأخير في «سيدار غلن وست»، عن نهاية كوزمو سولومون وسنوات خال والدتي آمبروز أدلفارت اللاحقة. بعد وقت قصير من عودة الجوّابين من الأرض المقدسة، على حد قول الخالة فيني، اندلعت الحرب في أوروبا. كلما اشتدت، وكلما علمنا عن اتساع الخراب، كلما قلّت قدرة كوزمو أكثر على ترسيخ قدمه في الحياة اليومية الثابتة في أميركا. أصبح غريبًا عن أصدقائه السابقين، وتخلى عن شقته في مدينة نيويورك، وحتى في لونغ آيلاند سرعان ما تخلّى كليًا عن مسكنه وفي النهاية تخلّى عن منزل الحديقة المنعزل المعروف بفيلا الصيف. قالت الخالة فيني إن رجلًا مسنًا من حدائقيي آل سولومون قال لها مرة إن كوزمو في تلك الأيام كان غالبًا غارقًا في الكآبة طوال النهار، ثم ليلًا يذرع فيلا الصيف الباردة جيئة وذهابًا، متأوهًا برقّة. في حالة من الهياج الشديد، كان ينظم كلمات لها

علاقة بالقتال، وهو يلفظ هذه الكلمات عن الحرب يبدو أنه يضرب جبهته بيده، كما لو أنه مغتاظ من عدم فهمه لها، أو أنه يحاول حفظ ما قاله عن ظهر قلب. بين الحين والآخر يخرج عن طوره كثيرًا فلا يعود يتعرّف إلى آمبروز. ومع ذلك ادّعى أنه يمكنه أن يرى بوضوح، في رأسه، ما كان يحصل في أوروبا: الجحيم، المحتضرون، الأجساد المتحلّلة ممددة تحت الشمس في ساحات القتال المكشوفة. مرة أخذ يضرب الجرذان التي رآها تجري عبر الخنادق بهراوة. عندما انتهت الحرب، تحسّنت حالة كوزمو موقتًا. عاد إلى تصميم الآلات الطائرة. رسم مخططًا لمنزل برجي على ساحل «ماين». أخذ يعزف على التشيللو ثانية. درس خرائط ومخططات المحيط، وناقش مع آمبروز الأسفار المتنوعة التي خطط لها. على حد علمي، ذهبا في واحدة فقط من تلك الرحلات، في بداية صيف العام 1923، عندما كليهما ذهبا إلى هليوبوليس. نجت صورة أو اثنتان من تلك الزيارة إلى مصر: واحدة تظهر مقهى[1] في الإسكندرية يدعى باراديسوس، وصورة لكازينو سان ستيفانو في الرملة، ولكازينو في هليوبوليس.



(1) Kafeneion: مقهى باليونانية.

يبدو أن زيارتهما إلى مصر انتهت خلال وقت قصير نسبيًا، قالت الخالة فيني، ومما قاله لي الخال أدلفارت كان محاولة لاستعادة الماضي، محاولة تبدو أنها فشلت تمامًا. بداية انهيار كوزمو العصبي الثاني الخطير يبدو أنها كانت متصلة بفيلم ألماني عن مقامر صُوِّر في نيويورك في ذلك الوقت، وصفه كوزمو بأنه متاهة مبتكرة لسجنه ودفعه إلى الجنون بكل مراياها العاكسة. كان منزعجًا بشكلٍ خاصٍّ من الحدث نحو نهاية الفيلم الذي تسبب فيه مخرج مسرحيٌ أبتر اليد ومنوِّم مغناطيسي يدعى ساندور ويلتمان بنوع من هلوسة جماعية في جمهوره. ظهرت من أعماق المسرح (كما وصف كوزمو دومًا لآمبروز) الصورة السراب للواحات. انبثقت قافلة على المنصة من بستان النخيل، عبرت الخشبة، ونزلت إلى القاعة، عبرت بين النَّظارة الذين كانوا يمدون أعناقهم ذاهلين وتلاشت بغموض كما ظهرت. كان الأمر الرهيب (أصرَّ كوزمو) أنه هو شخصيًا ذهب بطريقة ما من القاعة بصحبة القافلة، والآن لم يعد يستطيع أن يعرف أين كان. تابعت الخالة فيني، بعد وقت قصير اختفى كوزمو ذات يوم. لا أعرف أين بحثوا عنه، أو كم من الوقت طال بحثهم، لكن أعرف أن آمبروز وجده أخيرًا بعد يومين أو ثلاثة في الطابق العلوي من المنزل، في إحدى غرف الأطفال التي كانت مقفلة لسنوات. كان واقفًا على مقعد، ذراعاه متدليتان بلا حراك، يحدّق نحو البحر حيث تمر بواخر بين الحين والآخر، ببطء شديد، متجهة إلى بوسطن أو هاليفاكس. عندما سأله آمبروز عن سبب صعوده إلى هناك، قال كوزمو إنه أراد أن يرى كيف كان أخوه. لكن لم يكن لديه أخ أبدًا، وفقًا للخال آمبروز. بعد وقت قصير، عندما تحسّنت حالة كوزمو بعض الشيء، رافقه آمبروز إلى متنزّه «بناف»

في الجبال الصخرية الكندية، من أجل الهواء النظيف وفقًا لنصيحة الأطباء.



أمضيا الصيف بطوله في فندق «بناف سبرينغز» الشَّهير. كان كوزمو حينها مثل طفل حسن السلوك غير مهتم بأي شيء، وكان آمبروز منشغلًا تمامًا بعمله وقلقهُ المتزايد على مسؤوليته. في أواسط شهر تشرين الأول انهمر الثلج لأول مرة. أمضى كوزمو ساعات طويلة ينظر من نافذة البرج إلى غابات الصَّنوبر الشَّاسعة المحيطة والثلج يتهاطل من المرتفعات المنيعة. كان يقبض يائسًا على منديله الملفوف ويعضّ عليه مرارًا. عندما تحلّ الظلمة سيتمدّد على الأرض، يسحب ساقيه إلى صدره ويخفي وجهه في يديه. كان في تلك الحالة فتوجب على آمبروز أن يعيده إلى البيت، وبعد أسبوع أرسله إلى مصحّة السَّامرة في إيثاكا، نيويورك، حيث رحل في تلك السنة نفسها، من دون أن يأتِي بنأمة أو ينبس ببنت شَفَة.

مضى على هذه الأمور أكثر من نصف قرن، قالت الخالة فيني. في ذلك الحين كنت في مؤسسة ويتينهاوزن ولا أعرف شيئًا عن كوزمو سولومون، ولا عن شقيق والدتنا الذي هاجر من غوبريختس. مرَّ وقت طويل قبل أن أعلم أي شيء عن أيام الخال أدلفارت الأولى، حتى بعد أن وصلت إلى نيويورك، وبالرغم من أني كنت دومًا على اتصال به. بعد موت كوزمو، أصبح كبير الخدم في منزل روكي بوينت. من العام 1930 إلى العام 1950 قدت بانتظام إلى لونغ آيلاند، إما وحدي أو مع تيو، كمساعدة إضافية عندما كان يتم التحضير لمناسبات كبيرة أو لمجرد الزيارة. في تلك الأيام، كان تحت إمرة الخال أدلفارت أكثر من نصف دزينة من الخدم، عدا عن الحدائقيين والسائقين. استنفد عمله كل وقته وطاقته. بالنظر إلى الوراء، يمكنك القول إن آمبروز أدلفارت الرجل المميز انقطع عن الوجود، ولم يبقَ منه شيء سوى قشرة من اللياقة. لم أستطع فعليًا أن أتخيّله في قميصه ذي الأكمام، أو في قدميه المجوربتين وجزمته التي تصل حتى بطة الساق، مطليّة من دون كلل حتى تلتمع، وكان دومًا لغزًا بالنسبة لي عندما -أو إذا-نام، أو ببساطة استراح قليلًا. في ذلك الحين لم يكن مهتمًا بالتحدّث عن الماضي على الإطلاق. كل ما كان يهمه هو أن تمر السَّاعات والأيام في خدمة آل سولومون من دون أي عطالة، وأن مصالح سولومون الأب وطرقه يجب ألا تتعارض مع تلك التي للسيدة سولومون. قالت الخالة فيني، منذ أن بلغ الخامسة والثلاثين من عمره تقريبًا، أصبح هذا صعبًا بصورة خاصة على الخال أدلفارت، بالنظر إلى أن سولومون الأب كان قد أعلن ذات يوم، من دون مقدمات، أنه لن يحضر بعد اليوم أي حفل

عشاء أو اجتماعات على الإطلاق، وأنه لن يكون هناك ما يربطه بعد الآن بالعالم الخارجي، وأنه سيكرس نفسه كليًا لزراعة الأوركيديا، بينما السَّيدة سولومون الثانية التي كانت تصغره بعشرين عامًا، فقد اشتهرت في نيويورك وأماكن أبعد منها بحفلاتها في نهاية الأسبوع التي يصلها الضيوف عمومًا أصيل يوم الجمعة. وهكذا انشغل الخال أدلفارت بازدياد من جهة بالعناية بسولومون الأب الذي عاش عمليًّا في بيوته الزجاجية، ومن جهة ثانية كان منشغلًا كليًّا في اتخاذ إجراءات احتياطية لمنع السيدة سولومون الثانية من ارتكاب حماقات تافهة كانت مولعة بها بطبعها. على ما يبدو أن متطلّبات هذه الواجبات المضاعفة أرهقته، على المدى الطويل، أكثر مما اعترف لنفسه، لا سيما خلال سنوات الحرب، عندما صدم سولومون الأب، بالقصص التي ظلت تصله إلى معتزله، يمضي معظم وقته في الجلوس ملتحفًا ببطانية في البيت الزجاجي مرتفع الحرارة وسط الجذور الهوائية المتدلية من نباتاته الجنوب أميركية، ونادرًا ما يقول شيئًا أكثر من اللازم. بينما ثابرت مارغو سولومون على عقد الاجتماعات. لكن حدث شيء غريب عندما توفّي سولومون الأب في كرسيه المتحرك في الأشهر الأولى من عام 1947، قالت الخالة فيني: الآن، مارغو التي تجاهلت زوجها لما يقارب عشر سنوات، تم إقناعها بصعوبة بمغادرة غرفتها. طُرد جميع العمال تقريبًا. صار واجب الخال أدلفارت الأساسي الآن هو العناية بالمنزل الذي كان مهجورًا تقريبًا ومكسوًا على نحو كبير بالشراشف البيضاء المغبرَّة. عندها بدأ الخال أدلفارت بين حين وآخر، يسرد لي حوادث من حياته السابقة. كان أقل تفصيل

من ذكريات ماضيه التي استحضرها ببطء شديد من أعماق لا يُسبر لها غور بجلاء، دقيقًا على نحو مذهل. وهكذا، بإصغائي إليه، زاد يقيني تدريجًا بأن الخال أدلفارت كان يملك ذاكرة معصومة، لكن في الوقت نفسه، بالكاد سمح لنفسه بالوصول إليها. لهذا السبب، كان سرد القصص تعذيبًا له بقدر ما هو محاولة لتحرير النفس. كان في الوقت نفسه ينقذ نفسه، بطريقة ما، ومن دون رحمة، يدمّر نفسه. كما لو لتلهيني عن كلماتها الأخيرة، التقطت الخالة فيني أحد الألبومات عن طاولة جانبية.



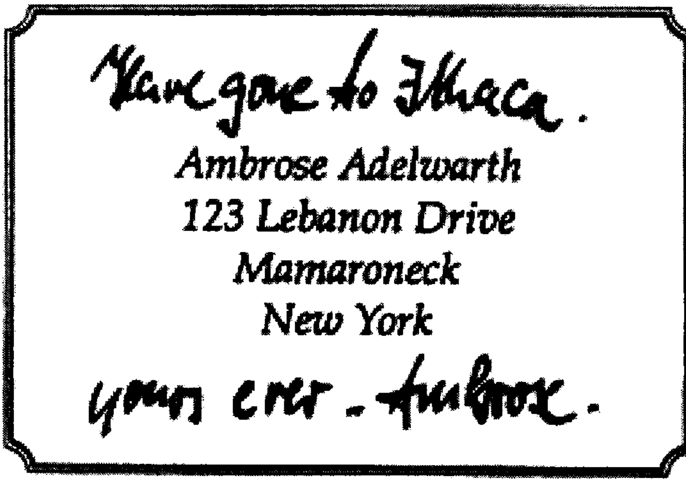
قالت وهي تفتحه وتمرره لي، هذا هو الخال أدلفارت كما كان حينذاك. كما يمكنك أن ترى، أنا إلى اليسار مع تيو، وإلى اليمين، تجلس بجانب الخال، أخته بالبينا التي كانت حينها تزور أميركا

للمرة الأولى. ذلك كان في شهر أيار العام 1950. بعد عدة شهور من التقاط الصورة، توفيت مارغو سولومون إثر إصابتها بمتلازمة بانتي[1]. انتقلت ملكية منزل «روكي بوينت» إلى عدة مستفيدين وتم بيعه مع جميع الأثاث والمتاع، في مزاد علني دام بضعة أيام. تأثر الخال أدلفارت على نحو موجع من التبدد، وبعد بضعة أسابيع انتقل إلى المنزل في ماميرونيك الذي قدّمه سولومون الكبير له قبل أن يموت. هناك صورة لغرفة الجلوس في إحدى الصفحات التالية، قالت الخالة فيني. كان المنزل كله دومًا أنيقًا جدًّا ومرتبًا، بدقة، مثل الغرفة في هذه الصورة.



(1) Banti: مرض مزمن يصيب العديد من أجهزة الجسم، يعد تضخم الطحال وتشمع الكبد وتكسر كريّات الدم الحمراء من أهم أعراضه.

غالبًا ما بدا لي كما لو أن الخال أدلفارت كان يتوقع زيارة غريب في أية لحظة. لكن لم يفعل أحد على الإطلاق. ومن سيفعل، قالت الخالة فيني. وهكذا ذهبت إلى ماميرونيك على الأقل مرتين في الأسبوع. كنت عندما أزوره أجلس عادة في الكرسي الأزرق، ويجلس الخال إلى مكتبه، بزاوية مائلة، كما لو أنه على وشك أن يكتب شيئًا. ومن مكانه كان يروي لي قصصًا والكثير من الحكايات الغريبة. أحيانًا فكرت بأن الأشياء التي قال إنه شهدها، مثل قطع الرؤوس في اليابان، مستبعدة للغاية حتى إني افترضت أنه يعاني من متلازمة كورساكوف: كما قد تعلم، قالت الخالة فيني، إنه مرض يسبب فقدان الذاكرة لتستبدل باختراعات من صنع الخيال. في كل الأحوال، كلما روى الخال أدلفارت قصصه، كلما زاد وحشة. بعد عيد الميلاد العام 1952 عانى من اكتئاب شديد، بالرغم من أنه شعر بوضوح بحاجة عظيمة للتحدّث عن حياته، لم يعد يستطيع أن يصوغ جملة واحدة، أو يلفظ كلمة واحدة، أو يُصدر أي صوت على الإطلاق. كان يجلس إلى مكتبه، يلتفت قليلًا إلى أحد الجانبين، يد على سطح المكتب والأخرى في حِجْره، نظره لا يحيد عن الأرض. إذا ما تحدثت إليه عن مسائل عائلية، عن تيو أو التوأم أو سيارة الأولدزموبيل الجديدة بإطاراتها المحاطة باللون الأبيض، لم أستطع أن أعرف أبدًا إذا كان يصغي أم لا. إذا ما حاولت أن أتملّقه لأقنعه بالخروج إلى الحديقة، لا يستجيب، ورفض أن يستشير طبيبًا أيضًا. ذات صباح عندما خرجت إلى ماميرونيك، كان الخال أدلفارت قد رحل. كان قد علق في مرآة شماعة الملابس بطاقة زيارة مع رسالة لي، وحملتها معي منذ ذلك اليوم. ذهبت إلى إيثاكا. المخلص لك أبدًا -آمبروز.



Have gone to Ithaca.

Ambrose Adelwarth
123 Lebanon Drive
Mamaroneck
New York

yours ever - Ambrose.

مرت فترة قبل أن أفهم ماذا عنى بإيثاكا. من نافل القول، قدت إلى إيثاكا كلما استطعت في الأسابيع والأشهر التي تلت. إيثاكا منطقة ريفية جميلة. كل ما يحيط بالمنطقة هناك هو الغابات والوهاد التي تتدفّق عبرها المياه نحو البحيرة. مصحّة كان يديرها البروفيسور فانستوك، كانت تقع في مساحات تبدو كما لو أنها حديقة. لا أزال أذكر، قالت الخالة فيني، وقوفي مع الخال أدلفارت إلى نافذته ذات صباح صيفيّ هنديّ صافٍ تمامًا. كان الهواء قادمًا من الخارج وكنا ننظر من فوق الأشجار الساكنة تقريبًا إلى مرج ذكّرني بمستنقع «التاش» عندما ظهر رجل كهلٌ يحمل أمامه شبكة بيضاء على عمود وبين الحين والآخر يقفز قفزات غريبة. حدّق الخال أدلفارت باستقامة، لكنه تأثر بذهولي رغم ذلك، وقال: إنه رجل الفراشات، كما تعلمين. هو كثيرًا ما يأتي إلى هنا. ظننت أني سمعت نبرة تهكم خفيضة في الكلمات، واعتبرتها إشارة على التحسّن الذي لمس البروفسور فانستوك تحققه بالعلاج بالصدمات الكهربائية. لكن

لاحقًا، في الخريف، كان حجم الضرر الذي حلّ بروح الخال وجسده يزداد وضوحًا. أصبح أكثر هزالًا، ارتجفت يداه اللتان كانتا هادئتين جدًا، انكفأ وجهه، وعينه اليسرى طرفت بلا هوادة. كانت المرة الأخيرة التي زرت فيها الخال أدلفارت في شهر تشرين الثاني. عندما حل وقت مغادرتي، أصر على أن يرافقني حتى سيارتي. ولهذا السبب ارتدى خصيصًا معطفه مع ياقة من المخمل الأسود، وقبعته المصنوعة من اللباد. ولا أزال أراه واقفًا هناك في العتبة، قالت الخالة فيني، كان يبدو في ذلك المعطف الثقيل، ضعيفًا جدًا وخائرًا.

كان صباح مغادرتي لسيدار غلن وست جليديًا ومعتمًا. وبالضبط، كما وصفَت الخال أدلفارت في اليوم السابق، وقفت الخالة فيني الآن على الرصيف أمام كوخها، في معطف شتوي داكن كان ثقيلًا جدًا عليها، تلوّح بمنديل في إثري. وأنا أبتعد رأيتها عبر المرآة، وسحب بيضاء تنطلق من حولها، تتصاغر شيئًا فشيئًا، وأنا أتذكر صورة المرآة تلك، أجد نفسي أفكر كم غريبًا أنه ما أحد منذ ذلك الحين لوَّح لي بمنديل وأنا أبتعد مودّعًا. في الأيام القليلة في نيويورك بدأت أدوّن ملاحظاتي عن الخالة تيريز التي لم تكن لتتعزى، وعن الخال كازيمير على سطح كنيس أوغسبورغ. لكن أفكاري ظلَّت تعود إلى آمبروز أدلفارت بشكل خاص، وما إذا كان عليَّ أن أرى المصحة في إيثاكا التي دخلها طوعًا في السابعة والستين من عمره حيث فارق الحياة في ما بعد. في ذلك الوقت، حقًّا، ظلت الفكرة مجرد فكرة، إما لأني لم أرغب في خسارة تذكرة العودة إلى لندن أو لأني حاذرت الإمعان في المسألة. ما إن حلت بداية صيف العام 1984 حتى ذهبت أخيرًا إلى إيثاكا، وبذلت

قصارى جهدي في تلك الأثناء لفك رموز يوميات سفر الخال أدلفارت العام 1913، وتوصلت إلى أنه إذا نويت الذهاب إلى إيثاكا، عليَّ ألّا أرجئ الزيارة مزيدًا من الوقت. وهكذا طرت مرة أخرى إلى نيويورك وانطلقت نحو الشمال الغربي على طول الطريق السريع 17 في اليوم نفسه، في سيارة مستأجرة، مرورًا بشتى البلدات المنتشرة، ولو أن أسماء بعضها كان مألوفًا، بدت جميعها تتوسط اللامكان. مونترو، مونتيشيلو، ميدلتاون، ورتسبورو، وأورسينغ، كلوشيستر وكادوزيا، ديبوزيت، دلهي، نيفرسينك ونينيفي-شعرت كما لو أن جهاز تحكم كان يوجهني، وأن السيارة التي جلست فيها تسير في مدينة ألعاب هائلة حيث اختار طفل ضخم غير مرئي أسماء الأماكن عشوائيًا، من خرائب عالم آخر مهجور منذ زمن بعيد. بدا كما لو أن للسيارة إرادة خاصة على الطريق السريع الفسيح. بينما سارت جميع العربات بالسرعة نفسها تقريبًا، حدث فجأة أن سارت جميعها ببطء شديد حتى إني بدأت أشعر كما لو أني رفيق سفر لجاري في المسار المجاور وأنا أتقدّم ببطء. على سبيل المثال قدت عند مرحلة ما، بصحبة عائلة من الزنوج لمدة نصف ساعة. لوَّحوا وابتسموا مرارًا ليظهروا أني حزت مكانًا في قلوبهم، كصديق للعائلة، إذا جاز التعبير، وعندما ابتعدوا عني في المنعطف العريض عند مخرج «هورليفيل» -مدَّ الأطفال وجوهًا فظةً من النافذة الخلفية -شعرت لفترة بالوحشة والبؤس. كما أن الريف راح يبدو غير آهل أكثر فأكثر أيضًا. يرتفع الطريق عبر هضبة كبيرة، مع تلال وتموّجات إلى اليمين، نحو جبال مرتفعة قليلًا في الأفق الشمالي. كان أديم الأرض الآن معتمًا وشاحبًا تمامًا كما كان في الأيام الثلاثة الشَّتوية التي أمضيتها في أميركا قبل ثلاث سنوات، رقعة من الخضرة،

يغمرها الضوء. نمت في المراعي المهجورة الممتدة طويلًا نحو الجبال، أيكات من أشجار البلوط وجار الماء، تعاقبت مغارس مستقيمة الخطوط من شجر الراتينج مع نصب متقطعة من البتولا والحور الرجراج، الأوراق المرتعشة العديدة لم يمض على بزوغها سوى أسبوع تقريبًا، وحتى على المنحدرات المعتمة البعيدة، حيث تغطي غابات الصنوبر سفوح الجبال، توهَّج لون شجر الشربين الأخضر الشَّاحب المضاء بشمس المساء هنا وهناك في الخلفية. عندما رأيت هذه النِّجاد التي تبدو غير آهلة، تذكرت التشوق إلى أماكن بعيدة عرفتها عندما انكببت على معجمي الجغرافي المصوَّر حين كنت تلميذًا في مدرسة الراهبات، وكم سافرت كثيرًا في أفكاري عبر الولايات الأميركية التي في وسعي تلاوة أسمائها غيبًا في ترتيب أبجدي. خلال درس الجغرافيا الذي طال حتى خِلت أنه الأبد -كان أزرق الصباح الباكر في الخارج لا يزال بكرًا في الظهيرة الساطعة - استكشفت المناطق التي كنت أجتازها الآن، وأيضًا جبال إديرونداك نحو الشمال التي أخبرني الخال كازيمير أنها بدت تشبه الوطن تمامًا. لا أزال أذكر البحث في الخريطة بواسطة مجهرٍ عن منبع نهر هادسن، والاستغراق في خريطة مربعة الشكل فيها عدد كبير جدًا من الجبال والبحيرات. ظلت أسماء أماكن محددة مثل ساباتيز، غابرييلز، هاوكي، بحيرة آمبر، بحيرة ليلى وبحيرة «دموع في السحاب» راسخة في ذاكرتي منذ ذلك الحين.

عند أويغو، حيث كان عليَّ أن أنعطف نحو طريق الولاية السريع، توقفت وجلست حتى السَّاعة التاسعة تقريبًا في مقهى على جانب الطريق، أدوّن أحيانًا كلمة أو اثنتين لكن في الغالب أحدّق بذهن شارد من خلال النوافذ المتّسعة إلى حركة المرور

اللانهائية والسَّماء الغربية التي لا تزال مخططة باللون البرتقالي والفلامنغو الوردي والذهبي بعد وقت طويل من مغيب الشَّمس. وهكذا وصلت إلى إيثاكا في وقت متأخّر من المساء. قدت لمدة نصف ساعة تقريبًا حول البلدة وضواحيها، لأتآلف مع المكان قبل أن أتوقف أمام نزل عند شارع فرعي صامت وقد أُضيئت حديقته المعتمة، مثل «امبراطورية الضوء»[1] التي لم يطأ أرضها أحد. انعطف ممر من الرصيف وانتهى عند درج الباب الرئيس الحجري، حيث مدَّت شجيرة أغصانها الأفقية تحمل زهورًا بيضاء. ظننت في ضوء المصباح لوهلة بأنها كانت مكسوَّة بالثلج. من الواضح أن الجميع كانوا نيامًا، انتظرت قليلًا قبل أن يظهر حارس مسنٌّ من أعماق النُّزل. كان محنيّ الظهر حتى أنه لم يتمكّن من رؤية أكثر من النِّصف السُّفلي من جسد أي شخص واقف أمامه. بسبب عاهته، لا شك، كان قد ألقى بنظرة سريعة على الوافد المتأخر عند الباب الصَّقيل قبل أن يعبر القاعة، نظرة كانت الأكثر نفاذًا لأنها موجزة. رافقني، دونما كلمة، على درج من خشب الماهوغاني الفاخر نحو الطابق العلوي، حيث أراني غرفة واسعة تطلُّ على الحديقة الخلفية. وضعت حقيبتي، ثم فتحت إحدى النوافذ العالية، ونظرت نحو الظلال الثقيلة لشجرة سرو تسامقت من الأعماق. كان الهواء عابقًا بعطرها وبصوت مندفع متواصل، لم تحدثه الريح في الأشجار، كما خيل إليَّ أولًا، بل شلالات إيثاكا القريبة، ولو أنها غير مرئية من نافذتي. قبل وصولي إلى البلدة كان يستحيل تخيل وجود ما يتجاوز عدد المائة من هذه الشَّلالات في بحيرة منطقة كايوغا كانت تهوي في الممرات الشديدة الانحدار ووديان منذ العصر الجليدي.

(1) Empire des Lumières: سلسلة لوحات للرسام البلجيكي رينيه ماغريت.

تمدّدت وفي الحال خلدت إلى نوم عميق، منهَكًا من الرحلة الطويلة. انجرفت الحُجب المغبرَّة التي نهضت بصمت من هدير الشَّلالات إلى نومي مثل ستائر بيضاء هبّت في غرفة سوَّدها الليل. بحثت صباح اليوم التالي في دليل الهاتف سدًى عن مصحة السَّامرة أو عن البروفيسور فانستوك الذي ذكرته الخالة فيني. ولم أحقق أي نجاح عندما اتصلت بممارس للطب النفسي، وعندما سألت السَّيدة المكسوَّة بالأزرق في الاستقبال بدا شحوبها واضحًا لدى سماعها كلمات: **منزلٌ عقليٌّ خاصٌّ**. وبينما كنت مغادرًا الفندق لأتحرّى في البلدة، التقيت بالحارس المحني في الحديقة الأمامية، آتيًا في الدرب وفي يده مكنسة. أصغى إلى طلبي للمعلومات بانتباه تام ثم فكر بصمت متكئًا على مكنسته برهةً. فانستوك، تعجَّب طويلًا، بصوت مرتفع كما لو أنه يتحدث إلى أصم، توفي فانستوك في الخمسينات. توفي بالسكتة، إن لم أكن مخطئًا. وبكلمات قليلة صدرت مترافقة مع خشخشة من صدره المنقبض مضى يخبرني أن فانستوك كان له خلَف، دكتور إبرامسكي، ولو أن إبرامسكي لم يعد يستقبل مرضى في المصحَّة منذ أواخر الستينات. ولا أحد يعلم ما يفعله هذه الأيام في ذلك المكان القديم، قال الحارس، وهو يلتفت ليتابع سيره. ومن الباب قال بصوتٍ مرتفع: لقد سمعت بأنه أصبح نحّالًا.

مكنتني معلومات الحارس المسن من إيجاد المصحة بسهولة ذلك الأصيل. رحلة طويلة انجرفت عبر متنزه لا بد أنه يغطي مساحة ما يقارب مائة فدَّان، ويفضي إلى فيلا مبنية كليًّا من الخشب. شابهت الريف الروسي بفرنداتها المسقوفة وبلاكينها، أو واحد من تلك الأكواخ الكبيرة المصنوعة من خشب الصنوبر المتخمة

بالنُصُب التذكارية التي بناها الأمراء النمساويون والأرشيدوقات على أراضي صيدهم في أستيريا وتيرول أواخر القرن التاسع عشر، ليقيم فيها ضيوفهم الأرستقراطيون وبارونات الصناعة المشهورين. كانت مظاهر التهالك واضحة للغاية، على نحو غريب جدًا. ومضت ألواح النوافذ في ضوء الشمس، حتى إني لم أجرؤ على الاقتراب قيد أنملة، وبدلًا من ذلك بدأت بالتلفت حول الحديقة، حيث صنوبريات من كل نوع تقريبًا -أرز لبنان، الشوكران الجبلي، تنُّوب دوغلاس، شجر الشُّوح، صنوبر آرولا ومونتيري، وشجر سرو مستنقعي ريشي -تام النمو حتى حجمه الكامل. كانت بعض أشجار الأرز والشوح بطول أربعين مترًا، وواحدة من شجر الشوكران لا بد أنها كانت بطول خمسين مترًا. كان هناك مروج حرجية بين الأشجار حيث نمت أزهار الجريس، والكارداماين الأبيض ولحية الماعز الأصفر جنبًا إلى جنب. في أجزاء أخرى من الحديقة كان هناك الكثير من السَّراخس المختلفة، وخضرة يانعة من القيقب الياباني القزم، مضاءة بأشعة الشمس، تمايلت فوق الأوراق المتساقطة تحت الأقدام. كنت قد تمشّيت في المشتل لما يقارب الساعة عندما التقيت بالدكتور إبرامسكي منشغلًا في إعداد خلايا نحل جديدة أمام منحلته. كان رجلًا مربوع القامة يناهز عمره الستين، يرتدي سروالًا رثًا. نتأ من جيب سترته المرقّعة الأيمن جناح أوزة، كما لو أنه استعمله سابقًا كفرشاة يدوية. كان ما لفتني في الحال في الدكتور إبرامسكي شعره الكث الأحمر الناري الكثيف الذي انتصب بثبات كما لو أنه على قلق عظيم، لقد ذكّرني بألسنة نار عيد الحصاد على رؤوس الحواريين[1] المرسومين في كتاب تعليم الدين المسيحي

(1) تلاميذ السيد المسيح.

في صفّي الأول. رابط الجأش تمامًا بمواجهة ظهوري المفاجئ، جذب دكتور ابرامسكي كرسيًا مصنوعًا من الأملود لأجلس عليه وواصل عمله على خلايا النحل، أصغى إلى قصتي وعندما انتهيت وضع أدواته جانبًا وبدأ يتحدّث. لم أعرف أبدًا كوزمو سولومون، قال، لكني أعرف خال والدتك منذ أن بدأت هنا عام 1949 في عمر الحادية والثلاثين كمساعد لفانستوك. أتذكّر حالة أدلفارت بوضوح لسبب خاص. لقد وصل مع بداية تبدل كلّي في تفكيري، تغير أفضى بي في العقد الذي تلا موت فانستوك، إلى تقليص ممارستي للطب النفسي أكثر فأكثر لأتخلى أخيرًا عنها كليًا. منذ أواسط شهر أيار من عام -1969 قريبًا جدًا سوف يمضي على تقاعدي خمس عشرة سنة- أمضيت حياتي في الهواء الطلق هنا، في مبنى لإيواء القوارب أو في المنحلة، بحسب الطقس، ولم أعد أهتم شخصيًا بما يجري في ما يسمى العالم الحقيقي. لا شك أني الآن مجنون، إلى حد ما، لكن، كما تعرف ربما، هذه الأشياء مجرد وجهة نظر. سوف تشاهد كيف أن السّامرية مهجورة الآن. كان تركها خطوة توجب عليَّ اتخاذها كي أحرر نفسي من أي انخراط في الحياة. لا أتوقّع أن يستطيع أحد تخيل الألم والشّقاء اللذين خُزِّنا سابقًا في هذا القصر الخشبي الباهظ، وآمل أن يذوب كل هذا البلاء تدريجًا مع تداعيه الآن. لم يقل الدكتور ابرامسكي شيئًا لبعض الوقت، واكتفى بالتحديق في البعيد. قال أخيرًا، في الحقيقة لم يوْدِع آمبروز أدلفارت في عنايتنا أي من أقربائه، بل أتى إلينا بمحض إرادته الحرة. ظلَّ سبب مجيئه إلى هنا لغزًا بالنسبة لي لوقت طويل، ولم يتحدث عن الأمر أبدًا. شخَّص فانستوك مرضه على أنه اكتئاب شيخوخة حاد مع ميل إلى نوبات مرضية تصلبيَّة، ولو أن هذا كان منقوضًا بواقعة أن آمبروز

لم يبدِ أي إشارة على الإطلاق لتجاهل شخصه، كعادة المرضى في تلك الحالة. بل على العكس تمامًا، عقد أهمية كبيرة على مظهره. لم أره أبدًا إلّا في بدلة مؤلفة من ثلاث قطع، ويضع ربطة عنق (فراشة) لا تشوبها شائبة. مع ذلك، حتى عندما كان يقف ببساطة إلى النافذة يتطلّع إلى الخارج، كنت تحسّ دومًا بأنه مفعم بأسى مرعب. قال الدكتور إبرامسكي، لا أظن بأني التقيت يومًا شخصًا أكثر سوداوية من خال والدتك. كانت كل كلمة عرضية، كل نظرة، كل تصرفاته بمجملها (ظل صامدًا حتى النهاية)، تُضارع ابتهالًا مستمرًا لإذن بالغياب. عند الوجبات -التي لم يتلكأ عن حضورها، طالما أنه ظل محافظًا على مسائل الكياسة حتى في أسوأ أوقاته -ظل يتناول الطعام، لكن ما أكله بالفعل لم يزد عن التقديمات الرمزية التي كانت توضع سابقًا على أضرحة الموتى. كان أيضًا جديرًا بالملاحظة كيف خضع آمبروز عن طيب نفس إلى العلاج بالصَّدمة الذي كان في بداية الخمسينات، كما فهمت لاحقًا فقط، يكاد يكون عذابًا أو تضحية بالنفس. توجَّب غالبًا جرّ مرضى آخرين إلى غرفة العلاج، قال الدكتور إبرامسكي، لكنك كنت تجد آمبروز دومًا جالسًا على المقعد عند الباب في الموعد المحدد للجلسة، مسندًا رأسه إلى الجدار، مغلقًا عينيه، ينتظر ما كان مخبّئًا له.

وصف دكتور إبرامسكي، استجابة لطلبي، العلاج بالصدمة بتفصيل تام. قال، كنت في بداية ممارستي للطب النفسي، من الرأي القائل إن العلاج الكهربائي يمثل شكلًا إنسانيًا وفعالًا من العلاج. كما درسنا عندما كنا طلبة -ووصف فانتسوك مرارًا، في قصصه عن الممارسة السَّريرية، بمصطلحات بيانية -كيف أنه في سالف الأيام، عندما كانت حقن الإنسولين تتسبب بنوبات شبيهة بنوبات

الصرع، قد يتشنّج المرضى لدقائق، على وشك الموت ظاهريًا، بوجوه ملتوية ومزرقّة. مقارنة مع هذه الطريقة، فإن العلاج بالصَّدمة الكهربائية الذي كان ممكنًا تنفيذه بدقَّة أكبر والتوقف المباشر إذا كان ردُّ فعل المريض شديدًا، شكَّل خطوة كبيرة متقدمة. من وجهة نظرنا، بدا شرعيًا تمامًا عندما وضعت العقارات المسكنة ومرخيات العضلات في حيز الاستعمال بداية الخمسينات، لتجنّب الأسوأ من الإصابات الطارئة، من مثل انخلاع الكتفين أو الفكَّين، أو كسر الأسنان، أو كسور أخرى. نظرًا إلى هذه التطورات الكبيرة في العلاج بالصدمة، صرف فانستوك النظر (للأسف) عن اعتراضاتي القليلة الفعالية بطبعه المتكبّر، متبنيًا ما كان معروفًا باسم طريقة الإعاقة، وهي دورة علاجية أوصى بها الطبيب النفسي الألماني «براونمول» كثيرًا ما كانت تستلزم أكثر من مائة صدمة كهربائية بفواصل زمنية من بضعة أيام وحسب. هذا كان قبل حوالى ستة أشهر من التحاق آمبروز بنا. من نافل القول، عندما كان العلاج متكررًا جدًّا، سوف يكون هناك بلا شك توثيق مناسب وتقييم للعلاج، وذلك ما حدث مع خال والدتك أيضًا. إلى جانب أن جميع المواد المحفوظة، قال الدكتور إبرامسكي، -احتفظ فانستوك بتاريخ الحالة والسِّجلات الطبية يوميًا، وإن يكن بطريقة واضحة التعجل -ربما كانت الفئران تأكلها منذ وقت طويل. لقد استولت على مستشفى الأمراض العقلية بعد إغلاقه وتكاثرت من دون انقطاع منذ ذلك الحين، بكل الأحوال، في الليالي التي لا تهب فيها الريح أستطيع سماع عدو مستمر وحفيف في هيكل المبنى الآخذ بالتصدع، وأحيانًا عندما يظهر القمر بتمامه خلف الأشجار، أتخيل أني أستطيع سماع الأغنية المحزنة تصدح من ألف حنجرة صغيرة. في هذه الأيام وضعت كل

أملي في الفئران، وفي سوس الخشب وخنافس حُرَّاس الموت. المصحّة تصرّ، وهي منهارة في بعض الأماكن من الداخل الآن، ستتهاوى عاجلًا أم آجلًا. لديّ حلم متكرّر الحدوث عن ذلك الانهيار، قال الدكتور إبرامسكي، محدقًّا براحة يده اليسرى وهو يتحدّث. أرى المصحّة على شموخها، أرى كل شيء في آن، المبنى ككل وأيضًا التفاصيل الدقيقة، وأعرف أن أشغال الخشب، وروافد السَّطح، وأعمدة الأبواب والألواح، ألواح الأرضية والأدراج، والأسيجة وأعمدتها، العتبات والأفاريز، قد تجوّفت الآن تحت السَّطح، وأنه في أية لحظة، حالما يرسل المختار من بين جحافل الخنافس العمياء قوَّاته الأخيرة، المادة تقاوم في فكاكها بالكاد، ستقع الأرض كلها، وهذا بالضبط ما حدث في حلمي، أمام عيني، ببطء كبير بما لا يقاس، وسحابة مصفرَّة كبيرة تموج وتختفي. وحيث كانت المصحة سابقًا لا يوجد سوى كومة من مسحوق نشارة الخشب، مثل غبار الطلع. أصبح صوت د. إبرامسكي أكثر خفوتًا وهو يتحدّث، لكن الآن، بعد أن توقف أولًا ليراجع (كما تصورت) المشهد المتخيَّل مرة أخرى أمام عين عقله، عاد إلى الواقع. استأنف القول، كان فانستوك قد تدرَّب على دراسة الجهاز العصبي في مستشفى ليمبيرغ للصحة النفسية، قبيل الحرب العالمية الأولى. في ذلك الحين، أي عندما كان طب النفس يهتم بشكل أوّلي بترويض هؤلاء الذين في عهدته، واحتجازهم في مأمن. لذلك كان بطبيعة الحال ميّالًا إلى تفسير الكآبة المتكررة وفتور المرضى الخاضعين إلى علاج مستمر بالصدمة، وعجزهم المتنامي عن التركيز، وخمولهم الذهني، وأصواتهم المكتومة، وحتى أحيانًا عندما يتوقّف المرضى كليًا عن الكلام، على أن كل ذلك إشارات

على العلاج النَّاجع. وهكذا في اعتقاده كان لين عريكة آمبروز نتيجة للعلاج الجديد. كان آمبروز واحدًا من أوائل مرضانا الذين خضعوا لسلسلة من الصَّدمات، على مدى أسابيع وأشهر، لكن ذلك اللّين، وقد بدأ الشَّك يخامرني، كان في الواقع عائدٌ ببساطة إلى توق خال والدتك إلى انقراض كلّي ومبرَم قدر الإمكان لقدرته على التفكير والتذكّر.

ران صمت طويل مرة ثانية على د. إبرامسكي، راح يتفحص من وقت إلى آخر خطوط يده اليسرى. وتابع بعدئذٍ، وهو يرفع بصره نحوي، أعتقد بأنها نبرة فانستوك النمساوية من غير ريب التي جعلتني أميل إليه أولًا. ذكّرني بوالدي الذي كان من كولوميا[1] وجاء بعد انهيار امبراطورية هابسبورغ مثله في هذا مثل فانستوك القادم إلى الغرب من غاليسيا[2]. حاول فانستوك بناء نفسه ثانية في بلدته، لينز، في حين حاول والدي أن يبدأ بالعمل في تجارة الخمر في فيينا، لكن كلاهما اصطدما بالظروف، أحدهما في لينز والآخر في حي ليوبولدشتات في فيينا. رحل والدي إلى أميركا بداية العام 1921، ولا بد أن فانستوك وصل إلى نيويورك خلال أشهر الصيف، حيث استأنف سريعًا مهنته في طب النفس. استلم عام 1925، بعد سنتين في مستشفى ولاية ألباني، عملًا في السَّامرية التي كانت مصحة خاصة مؤسسة حديثًا. توفي والدي في نفس الوقت تقريبًا، عندما انفجر مرجل في مصنع للمياه الغازية في حي» لاور إست سايد». بُعيد الحادثة، وُجد جسده مسلوقًا إلى حد ما. افتقدته كثيرًا عندما كنت أكبر في بروكلين. كان مطمئنًا حتى في وجه

(1) مدينة في أوكرانيا.
(2) مدينة في اسبانيا.

أعتى الظروف، أمي على العكس، بدت بعد وفاته ظلًا فقط. الآن أفكر أنه عندما بدأت شخصيًا كمساعد في السَّامرية، كنت ضعيف التمييز إلى جانب فانستوك لأنه ذكرني بوالدي كثيرًا. لكن عندما بدأ فانستوك مع اقتراب نهاية مهنته يعتقد بأنه اكتشف علاجًا نفسيًّا عجيبًا في طريقة الإبطال أو الإعاقة، وعندما، هو الذي لم يكن لديه أدنى طموح علمي، استحوذ عليه بازدياد نوع من هَوس تجريبي، بل خطط لنشر ورقة بحثية عن آمبروز، حينها، وحينها فقط، خطر لي أن اهتمامه المتعصّب كان كما تذبذبي في النهاية، مجرّد دليل على جهلنا المرعب وقابليتنا للفساد.

مع حلول المساء تقريبًا، رافقني د. ابرامسكي إلى الطريق عبر المشتل. كان يمسك جناح الإوزة الأبيض، وبين الفينة والأخرى يشير به نحو الطريق. قال فيما نحن سائرين، قرب النهاية، عانى خال والدتك من شلل متقدّم في المفاصل والأطراف، ربما سببه العلاج بالصدمة. بعد حين كان يعاني أعظم الصعوبات في أداء الواجبات اليومية. استغرق اليوم بطوله تقريبًا لارتداء ثيابه. ببساطة استغرق ساعات ليزرر أزرار سترته ويعقد ربطة عنقه على شكل فراشة. وما إن يكاد ينهي ارتداء ملابسه حتى يحل موعد خلعها ثانية. علاوة على ذلك، كان يعاني باستمرار من مشاكل في الرؤية، وعانى من صداع شديد في الرأس، وهكذا غالبًا ما وضع حافة قبعة خضراء اللون -مثل شخص يعمل في صالة للقمار. عندما ذهبت لرؤيته في غرفته آخر يوم من أيام حياته، لأنه تلكّأ عن الحضور إلى العلاج للمرة الأولى، كان يقف إلى النافذة، مرتديًا حافة القبعة تلك، يحدق نحو المستنقعات خلف الحديقة. بصورة غريبة، كان قد ارتدى أساور حتى أعلى الذراع مصنوعة من قماش يشبه الساتان، ربما لبس مثلها

عندما كان يُلمِّع الفضة. عندما سألته عن سبب عدم حضوره إلى الموعد المحدّد، أجاب (أتذكر كلماته بالضبط): لا بد أنني نسيت بينما كنت أنتظر رجل الفراشات. بعد أن أبدى هذه الملاحظة الغامضة، رافقني آمبروز من دون إبطاء، نحو غرفة العلاج حيث كان فانستوك ينتظر، وخضع لجميع التحضيرات بلا أدنى مقاومة، كما عهده دومًا. أراه ممددًا أمامي، قال د. إبرامسكي، الأقطاب الكهربائية على صدغيه، الشَّكيمة المطاطية بين أسنانه، مشبوكًا في أغطية من الخيش ومثبتًا بإحكام إلى طاولة العلاج مثل رجل كفّن ليدفن في بحر. تتابعت الجلسة من دون مشاكل. كانت تكهنات فانستوك بالشِّفاء متفائلة بوضوح. لكني رأيت من وجه آمبروز أنه كان الآن مدمَّرًا، لم يبق منه أثر. عندما صحا من المخدّر، عيناه اللتين كانتا الآن كامدتين بغرابة ومسمَّرتين، مغشيتين، وصعدت من صدره تنهيدة أستطيع سماعها حتى هذا اليوم. أعاده ممرض إلى غرفته، وعندما ذهبت إلى هناك في الصباح الباكر من اليوم التالي، بضمير معذَّب، وجدته ممددًا على سريره، منتعلًا جزمته الجلدية الملمعة جيدًا، بزيه الكامل، إذا جاز القول. مشى د. إبرامسكي إلى جانبي بقية الطريق صامتًا. ولم يقل كلمة وداعية، لكنه رسم قوسًا رقيقًا بجناح الإوزة في الهواء المعتم.

أواسط شهر أيلول عام 1991، عندما سافرت من إنكلترا إلى دوفيل أثناء فترة القحط المروّعة، كان قد مضى وقت طويل على انتهاء الموسم، وحتى مهرجان السينما الأميركية الذي حاولوا بواسطته إطالة أشهر الصيف المثمرة قليلًا، كان قد بلغ منتهاه. لا يمكنني القول ما إذا كنت أنتظر أن يكون لدى دوفيل شيءٌ خاصٌ تقدمه -أثر من الماضي، جادات خضراء، نزهات الشاطئ، أو

حتى زبائن متأنقين أو فاضحين، مهما كانت تصوراتي، كان باديًا في الحال أن ما كان سابقًا منتجَعًا أسطوريًا، كما في كل مكان آخر يزوره المرء الآن، في أي بلد أو قارة، كان على نحو يائس متهاويًا ومدمَّرًا بحركة المرور، والمتاجر ومحلات بيع الملابس، والإصرار الجشع على التخريب. الفيلات المبنية في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، والقلاع القوطية الجديدة مع الأبراج الصغيرة وشرفات الحصون، والشاليهات السويسرية، وحتى المساكن التي تحاكي البيوت الشرقية، كانت جميعها تقريبًا بلا استثناء صورة للإهمال والخراب. إذا ما توقف المرء قليلًا أمام أحد هذه المنازل غير الآهلة في ما يبدو، كما فعلت عدة مرات في صباحي الأول عبر شوارع دوفيل، سوف ينفتح قليلًا واحد من مصاريع النوافذ المغلقة في الحديقة، أو الطابق الرئيس[1]، أو الطابق الأعلى. من الغريب القول إن يدًا ستظهر لتنفض ريشة غبار، ببطء وخشية، وسرعان ما يستنتج المرء حتمًا أن دوفيل بأسرها مكونة من أماكن داخلية كئيبة حيث جماعة النساء، محكومة باختفاء أبدي وبنفض دائم للغبار، تتحرّك بصمت في المكان، تنتظر اللحظة التي تستطيع فيها أن تومئ بمنافضها إلى عابر صادف أنه توقف أمام سجنها ووقف يحدق عاليًا. كان تقريبًا كل شيء في الواقع مغلقًا، في دوفيل وفي الجهة الأخرى من النهر في تروفيل -متحف منتيبيلو، ودار المحفوظات في البلدية، والمكتبة (التي خططت للنظر فيها)، وحتى روضة أطفال الطفل يسوع[2] المؤسسة بمكرمة من السيدة الراحلة البارونة

(1) Parterre أو bel étage: بالفرنسية في الأصل.

(2) De l'enfant Jesus: بالفرنسية في الأصل.

ديرلانجيه، كما علمت من اللوحة التذكارية التي وضعها مواطنو دوفيل الممتنين على واجهة المبنى.



ولم يعد فندق دي روش نوار الكبير مفتوحًا بعد الآن، مبنى ضخم قرميدي حيث تمتّع كبار أصحاب الملايين الأميركيين، الارستقراطيون الإنكليز، كبار الرأسماليين الفرنسيين والصناعيون الألمان واحدهم برفقة الآخر نهاية القرن.



أغلق فندق دي روش نوار أبوابه في الخمسينات أو الستينات بحسب ما اكتشفت، وتم تحويله إلى شقق، ولو أن تلك الشقق التي لها إطلالة بحرية فقط بيعت بسعر جيد. الآن، ما كان سابقًا الفندق الأكثر بذخًا على ساحل النورماندي، ما هو إلا ضخامة

تذكارية نصف غارقة في الرمال. معظم الشقق مهجورة منذ وقت طويل، رحل مالكوها عن هذه الحياة. لكن لا تزال بعض السيدات المعمِّرات تأتين كل صيف لارتياد الصَّرح الضخم. يسحبن الأغطية البيضاء عن الأثاث لبضعة أسابيع ويتمددن ليلًا بصمت على نعوشهنّ، في وسطه الفارغ. يتجوّلن على طول الممرات الفسيحة، عبر غرف الاستقبال الضخمة، يصعدن ويهبطن الأدراج التي تصدر أصواتًا، يضعن قدمًا قبل الأخرى بعناية، وفي الصباحات الباكرة يصحبن كلاب البودل[1] المتقرّحة والبيكينز في نزهة. على عكس فندق دي روش نوار، الآخذ بالتداعي تدريجًا، لا يزال فندق النورماندي في الطرف الثاني من تروفيل -دوفيل، الذي تم إنجازه عام 1912 مؤسسة للطبقة الأرقى.



شُيّد حول عدة باحات من الخشب جزئيًا، ويبدو أكبر مما ينبغي ومصغرًا في آن، يرتاده في هذه الأيام بشكل حصري تقريبًا اليابانيون الذين يتبعون البرنامج اليومي المنصوص عليه بدقة من

(1) Poodles و Pekingese: من أنواع الكلاب الصغيرة الحجم.

قبل موظفي الفندق بإتقان لكن أيضًا، كما لاحظت، بكياسة باردة كالجليد تتاخم السُّخط. وحقًا لا يشعر المرء في النورماندي بأنه في فندق شهير ذي شأن عالمي بقدر ما يشعر بأنه في جناح خاص بفن الأكل بناه الفرنسيون لمعرض عالمي في مكان ما قرب أوساكا، ولم أكن لأتفاجأ ولو قليلًا لو خرجت من النورماندي لأجد قربه اختراعًا متنافرًا آخر على طراز العمارة في بالي الإندونيسية أو تيرول النمساوية. كل ثلاثة أيام كان اليابانيون في النورماندي يُستبدَلون بفريق آخر من مواطنيهم الذين كما شرح لي أحد نزلاء الفندق، كانوا يأتون جوًا بطائرات مكيَّفة مباشرة من مطار شارل ديغول إلى دوفيل، الزيارة الثالثة (بعد لاس فيغاس ومدينة أتلانتيك) في جولة مقامرة عالمية أعادتهم إلى طوكيو، عبر فيينا، بودابست، مكاو. كانوا يحتشدون في دوفيل، يوميًا عند العاشرة صباحًا، بإفراط إلى الكازينو الجديد الذي بُني في نفس وقت بناء النورماندي، حيث يلعبون بالآلات حتى موعد الغداء، في مبنى مقنطر بأضواء وامضة ملونة ويصفرون باستمرار تشكيلة من الأصوات. كانت الأصائل والأمسيات أيضًا تمضي عند الآلات حيث ضحّوا، بوجوه رزينة، بحُفَن من النقود، وكانوا مبتهجين كالأطفال في فورة عندما تخرج أخيراً دفعة كبيرة من النقود من الصندوق مصدرة رنينًا. لم أر يومًا أيًا منهم عند طاولة الروليت. مع دنوّ الليل من منتصفه، لن يكون سوى بعض الزبائن المريبين من الأقاليم يلعبون هناك، محامون مشبوهون، سماسرة عقارات أو تجار سيارات مع خليلاتهم يحاولون مناورة الحظ الذي وقف أمامهم في شخص مدير لعبة القمار المربوع المتّشح على نحو غير مناسب بزيّ صاحب سيرك في الخيمة الكبيرة. كانت طاولة الروليت، بحواجب[1] من الزجاج

(1) Paravents: بالفرنسية في الأصل.

بلون اليشب الأخضر في القاعة الداخلية المجددة -بكلمات أخرى ليس حيث قامر اللاعبون في دوفيل في أزمنة سابقة. عرفت أنه في تلك الأيام كانت قاعة اللعب أكبر حجمًا. حينها كان هناك صَفَّان من طاولات الروليت والباكارا أيضًا حيث يمكن للمرء أن يراهن على أحصنة صغيرة ظلت تعدو في حلقات. تدلّت ثريات مصنوعة من زجاج فينيسي من السَّقف المزخرف، وعبر عشرات النوافذ نصف المدوَّرة على علو ثمانية أمتار يطل المرء على مصطبة حيث ستجتمع هناك أكثر الشخصيات غرابة، ثنائيات أو مجموعات، وخلف الدرابزين، في الضوء الذي سقط من الكازينو، يمكن للمرء أن يرى الرمال البيضاء وأبعد اليخوت المسافرة في المحيط والبواخر الصغيرة، مضاءة وتأخذ مجراها عند المرساة. تشع مصابيح الإشارة في سماء الليل، ومراكب صغيرة تتحرك جيئة وذهابًا مثل سُرُج الليل البطيئة بينها وبين الساحل. أول ما وضعت قدمي في الكازينو في دوفيل كانت قاعة المقامرة القديمة زاخرة بآخر بَريق من نور المساء. كانت الطاولات معدَّة لما يزيد على مائة شخص، لمأدبة زواج أو احتفال بذكرى سنوية. قبضت الكؤوس على أشعة الشمس الآفلة وتلألأت على طبول الفرقة الموسيقية الفضية التي كانت لتوها تبدأ بالتمرين على حفلتها الموسيقية. كان العازفون بشعور مجعدة ولم يعودوا الأصغر سنًا. كانت الأغاني التي عزفوها من الستينات، أغاني سمعتها مرات لا تُعدّ ولا تحصى في بار يونيون في مانشستر. **إنه المساء**[1]. المغنية، وهي فتاة شقراء لا يزال صوتها طفوليًا بوضوح، تنفست بشهوانية في المصدح الذي قربته من شفتيها بكلتا يديها. كانت تغني بالإنكليزية، وإن

(1) As Tears Go By: أغنية غنتها المغنية البريطانية ماريان فيثفول عام 1964 ثم غناها فريق الرولينغ ستون في ما بعد.

بلكنة فرنسية. إنه المساء، أجلس وأراقب الأطفال يلعبون. أحيانًا، عندما لم تتمكن من تذكر الكلمات الصحيحة، سيغدو غناؤها دندنة بالغة الرقّة. جلست في إحدى الكراسي البيضاء المورنشة. ملأت الموسيقى الغرفة كاملة. سحب منتفخة وردية وصولاً إلى الأرابيسك الذهبي لجص السقف. «زاد وجهك شحوبًا[1]».

أنصتُ في وقت لاحق من تلك الليلة، في غرفتي الفندقية، إلى صوت البحر. حلمت بأني كنت أعبر الأطلسي في سفينة[2] بدا هيكل سطحها الفوقي مثل فندق النورماندي بالضبط. كنت واقفًا إلى السور عندما دخلنا مدينة «لو هافر» فجرًا. أطلقت صفارة الإنذار وقت الضباب ثلاث مرات والسفينة الضخمة تزلزلت تحت قدميّ. استقليت القطار من لو هافر إلى دوفيل. كانت تجلس في مقصورتي امرأة تعتمر قبعة مكسوَّة بالريش، مع تشكيلة واسعة من صناديق القبّعات. كانت تدخن سيجار هافانا كبيرًا، وحدقت إليَّ عبر السَّديم الأزرق مستهزئة من وقت إلى آخر. لكنني لم أعرف كيف أخاطبها، جلست مرتبكًا أحدّق بالقفازات البيضاء الصغيرة بأزرارها العديدة المتناهية في الصغر الموضوعة بجانبها على المقعد المنجَّد. عندما وصلت دوفيل انطلقت بسرعة إلى فندق دي روش نوار. كانت الشوارع بادية الازدحام: حافلات وعربات من كل نوع، سيارات، عربات تدفع باليد، درَّاجات، سعاة من الفتية، رجال التوصيل ومتسكعون[3] شقّوا طرقهم التي تبدو بغير هدى. كان كما لو أن كل

(1) A whiter shade of pale: وهي عبارة وردت في الأغنية التي تحمل العنوان نفسه والتي صدرت عام 1967 لفريق الروك الإنكليزي Procol Harum.
(2) Paquebot: بالفرنسية في الأصل.
(3) Flàneurs: بالفرنسية في الأصل.

صخب قد انفلت. كان الفندق مكتظًا بالنزلاء أشد الاكتظاظ. كانت حشود من الناس تتدافع عند مكتب الاستقبال. كان الوقت تمامًا قبل بداية موسم السِّباق، وكان الجميع عازمًا على الإقامة في واحد من أفضل الفنادق مهما كلف الثمن. هؤلاء المقيمون في فندق دي روش نوار استأجروا أرائك أو كراسي ليناموا عليها في غرفة القراءة أو في الصالة: أُجلي العاملون من غرفهم في الطابق الأعلى إلى القبو، تخلَّى السادة عن أسرّتهم للسيدات وتمددوا حيث وجدوا مكانًا، في البهو أو في الممرات، وعلى عتبات النوافذ أو بسطات السلالم، وعلى طاولات البلياردو. دفعت رشوة كبيرة وضمنت مبيتًا في غرفة العفش، عاليًا على الجدار مثل رف للأمتعة. صعدت إليه فقط عندما كنت مرهَقًا للغاية ونمت لساعة تقريبًا. كنت بقية الوقت أبحث عن كوزمو وآمبروز ليل نهار. خيل إليَّ بين الحين والآخر أني رأيتهما يتواريان في مدخل أو مصعد أو ينعطفان عند مفترق طريق. أو أيضًا رأيتهما حقًا، يتناولان الشاي في الفناء، أو في القاعة يتصفَّحان آخر الصحف التي كان يجلبها السائق غابرييل في الصباح الباكر بسرعة مهلكة من باريس إلى دوفيل. كانا صامتَيْن، كما يكون الموتى عادة عندما يظهرون في أحلامنا، وبديا بطريقة ما مكتئبين ومغتمِّيْن. عمومًا، في الواقع، تصرفا كما لو أن حالهما المتبدّل، إذا جاز القول، كان سرًّا عائليًّا رهيبًا لن يكشف تحت أي ظرف. إذا ما اقتربت منهما، ذابا أمام عيني، غير تاركَيْن خلفهما شيئًا سوى المكان الشاغر الذي كانا يشغلانه. كلما لمحتهما، أقنعت نفسي بمراقبتهما من بعيد. كلما التقيت بهما مصادفة كانا كما لو أنهما شكلا نقطة سكون في اللغط الدائم. بدا كما لو أن العالم كله تجمّع هناك في دوفيل صيف العام 1913. رأيت الكونتيسة دي مونتغمري،

الكونتيسة فيتزجيمس، البارونة ديرلانجيه، والماركيز دي ماسا، الروتشيلدز، رجل الأعمال الفرنسي دوتش دي لا مورت، كوكلان وبريجيل، بيجو، ورمس، وهينيسي، إيسفولسكي وأورلوف، فنانين من الجنسين، نساء عجولات من ريغان وريتشنبيرغ، أباطرة الشَّحن اليونانيين، أقطاب النفط المكسيكيين وزارعي قطن من لويزيانا. أفادت جريدة تروفيل الرسمية بأن موجة محقّقة من الغرابة اجتاحت دوفيل تلك السنة: **المسلمون المولدوفيون الأفلاق**[1]، **الهندوس البراهمة وجميع الأصناف من نسلهم، البابوانيين**[2]، **النيام-نيام**[3] **والباش بُزُق**[4] **المستورَدين إلى أوروبا مع رقصاتهم الشبيهة برقصات القرود وآلاتهم الهمجية**[5]. كانت الأشياء تحدث على مدار الساعة. في أول سباق كبير في الموسم، في مضمار توك[6]، سمعت صحافيًا إنكليزيًا يكتب عمودًا يتناول الإشاعات يقول: يبدو بالفعل كما لو أن الناس تعلّموا أن يناموا واقفين. إنها نظرتهم اللامعة التي تبوح بسرّهم. المسهم، ولسوف ينقلبون. وأنا ميت من التعب شخصيًا، وقفت على مدرج المضمار. كان المسار العشبي حول ملعب البولو مسيَّجًا بصفوف طويلة من شجر الحور. رأيت أوراقها من خلال منظاري تلتف مع النسيم، رمادية فضية.

(1) الأفلاق هي منطقة جغرافية وتاريخية في رومانيا، تقع في الشمال من نهر الدانوب وفي الجنوب من سلسلة جبال الكارابات، أطلق على المنطقة اسم الأفلاق في العهد العثماني.
(2) وهو شعب منطقة بابوا الإندونيسية.
(3) أبناء قبيلة النيام نيام الأفريقية (الأزاندي.)
(4) الباشي بزُق كانوا جنودًا غير نظاميين في الجيش العثماني.
(5) بالفرنسية في الأصل.
(6) Touque: نهر ساحلي صغير في منطقة النورماندي، فرنسا.

كان الحشد ينمو باطراد. وسريعًا كان هناك بحر فسيح من القبعات يموج تحتي، يعلوها ريش طائر البلشون الأبيض مثل تيجان الزبد على الأمواج التي تنحسر بعيدًا بكآبة. ظهرت أجمل السيدات الشابات في الآخر، حوليات الموسم، إذا جاز القول، ترتدي أردية مزركشة لمعت من خلالها أثوابها التحتية الحريرية بألوان الأخضر النيلي، والوردي بلون الجمبري، أو لون نبات الأفسنتين. كنَّ جميعهن خلال وقت قصير محاطات بالرجال المتشحين بالسواد، وقد رفع الأكثر خلاعة من بينهم قبعاتهم عاليًا على عكاكيزهم. الآن، عندما كان السباق على وشك البدء، وصل مهراجا كشمير في سيارته الرولز المطلية بالذهب، ومن سيارة ليموزين ثانية خلفها ترجّلت سيدة سمينة بشكل لا يصدَّق وأرشدها سائسان مسنّان إلى مقعدها. أدركت فجأة أن كوزمو سولومون وآمبروز كانا جالسين فوقها مباشرة. كان أمبروز يرتدي بدلة من الكتان برتقالية اللون ويعتمر قبعةً من القش إسبانية مطلية بالورنيش بالأسود. لكن كوزمو كان متشحًا بمعطف سميك صوفيّ، على الرغم من طقس منتصف الصيف الصافي، ويعتمر قبعة طيار هربت منها خصلات شعره الأشقر. كانت ذراعه اليمنى مستريحة على ظهر مقعد آمبروز، بلا حراك، وبلا حراك حدَّقا في البعيد. بخلاف ذلك، كما أتذكر الآن، كانت أحلامي في دوفيل تعج بهمسات مستمرة من الشائعات التي كانت تنتشر عن كوزمو وآمبروز. رأيت مرة الشابَّين جالسَين في وقت متأخر من المساء في قاعة طعام النورماندي الواسعة إلى طاولة صغيرة بمفردهما، موضوعة خصيصًا لهما وسط الغرفة، بمعزل عن البقية. على طبق فضي كبير بينهما، وضع سرطان يتحرك أحيانًا حركات بطيئة ويلمع بلون زهريّ رائع في الجو المكتوم.

كان آمبروز بثبات يفكك السرطان، بمهارة عظيمة، يضع لقمة صغيرة أمام كوزمو فيتناولها مثل طفل مهذّب. رواد الغرفة تمايلوا كما لو أن هناك موجة خفيفة، ولم يكن مرئيًا سوى أقراط النساء اللماعة وعقودهن ومقدمات قمصان الرجال البيضاء. مع ذلك، أحسست بأن الجميع أولوا اهتمامًا لآكلَيْ السرطان اللذين سمعت عدة مرات بأنهما يوصفان بالسيد والرجل، صديقَاْن، قريبان، أو حتى أخوَيْن. كانت محاسن ومساوئ كل هذه النظريات معزَّزة إلى ما لا نهاية، والنقاشات ملأت القاعة بتمتمات خفيضة، حتى بعد وقت طويل من شغور طاولتهما والخيط الأول للفجر كان في النوافذ. لا شك كانت قبل كل شيء غرابة أطوار كوزمو، مرفوقة مع سلوك آمبروز المنزَّه عن الخطأ، ما أثار فضول زوَّار صيف دوفيل. وفضولهم تنامى بطبيعة الحال، والشكوك التي كانت صريحة تزايدت على نحو أكثر جرأة، كلما قنع الصديقان برفقة بعضهما البعض، رافضين الدعوات التي كانت تقدَّم لهما يوميًا. استدعت فصاحة آمبروز المذهلة التي تضادت بشكل غاية في الإدهاش مع عجز كوزمو التام الظاهر عن الكلام، والتأمل أيضًا. علاوة على ذلك، حركات كوزمو البهلوانية وأعماله الطائشة في ملعب البولو كانت مدار حديث متواصل، واهتمام الناس بالأميركيَّيْن المثيرين للفضول بلغ ذروته عندما بدأت ضربة حظ كوزمو التي لا مثيل لها، في غرفة مستقلة[1] في الكازينو. انتشر نبأ عنها عبر دوفيل كانتشار النار في الهشيم. سرت شائعة عن احتيال أضيفت إلى الهمسات الشائعة سلفًا، أو عن سلوك منحرف، وحديث في تلك الأمسية في غرفة الطعام أيضًا -لم يكل أبدًا عن الإلماح إلى أنَّ آمبروز الذي

(1) Séparée: بالفرنسية في الأصل.

لم يجلس إلى طاولة الروليت شخصيًا، لكنه كان دومًا واقفًا خلف كوزمو مباشرة، يمتلك قوى منوِّم مغناطيسي[1] غامضة. بالفعل، كان لا يسبَر له غور حتى إني شعرت بأنه لا يقارَن إلا بالكونتيسة السويسرية، امرأة الماضي المظلم[2] التي راودتني عن نفسها في الزوايا القصية بطريقة ما في أرض أحلامي في دوفيل. بنية دقيقة على نحو استثنائي، وتكاد تكون شفافة حقًّا، ارتدت فساتين حريرية مموجة بنّية أو رمادية، محاطة في أي وقت من النهار أو الليل بجماعة من المعجَبين من كلا الجنسين. لم يعرف أحد اسمها الحقيقي (لم يكن هناك من يدعى غرافين ديمبوفسكي في فيينا)، ولا استطاع أحد تخمين عمرها أو القول إذا ما كانت متزوجة أم عزباء، أو أرملة. لاحظت أولًا غرافين ديمبوفسكي عندما أقدمت على فعل شيء لم تجرؤ امرأة على فعله من قبل: خلعت قبعتها البيضاء على مصطبة الكازينو ووضعتها على الدرابزين بجانبها. ورأيتها للمرة الأخيرة عندما ذهبت إلى نافذة غرفتي في الفندق مستيقظًا من حلم دوفيل. كان الصبح ينبلج. الشاطئ لا يزال غارقًا في البحر بلا لون، البحر في السماء. وهناك كانت، في نور الفجر الشاحب لكن المحتشد، على ممشى دي بلانش الخشبيّ المقفر. مكسوّة بزي ينمُّ عن انعدام الذوق مصمَّمًا على نحو مروِّع، هناك أتت وأرنب من نوع أنغورا أبيض اللون يثب أمامها. كان يصحبها أيضًا رجل من روّاد النوادي يرتدي بزة ذات لون أخضر مصفرّ، كان ينحني كلما رفض الأرنب التقدم ليطعمه قليلًا من قنبيطةٍ هائلة أمسكها بيده اليسرى المعوجّة.

يوجد أمامي على المكتب المفكّرة التي كانت تعود لآمبروز.

(1) Magnetiseur: بالفرنسية في الأصل.

(2) femme au passé obscure: بالفرنسية في الأصل.

أعطتني إياها الخالة فيني في زيارتي الشتوية إلى «سيدار غلن وست». إنها مفكرة جيب تعود للعام 1913، مغلفة بجلد برغندي اللون ناعم وقياسها حوالى اثني عشر بثمانية سم. لا بد أن آمبروز اشتراها من ميلانو، لأن تدويناته بدأت هناك، في العشرين من شهر آب: القصر ه، الثالثة بعد الظهر، السيدة م. مساء، مسرح س. مارتن، مسار 5. إ م. أنصاف الكرة الثلاث[1].



(1) بالإيطالية في الأصل.

كان تفسير خطه الصغير، الذي تنقَّل أحيانًا جيئة وذهابًا بين عدة لغات، مهمة صعبة، ربما لم أكن لأنجزها لو لم تتكشف تلك الكلمات المدونة على ورق منذ ثمانين عامًا تقريبًا، من تلقاء نفسها، إذا جاز القول. أصبحت التدوينات تدريجًا أكثر تفصيلًا، ويظهر أنه في نهاية شهر آب، غادر آمبروز وكوزمو البندقية إلى اليونان والقسطنطينية على متن يختٍ بخاري. في الصباح الباكر (تقول)، أنا على ظهر المركب بمفردي منذ وقت طويل، أنظر إلى الخلف. ترتدّ أضواء المدينة نحو البعيد تحت حجاب من المطر. الجزر في البحيرة الضحلة كالظلال. **مشتاقًا إلى الوطن، راح البحّار يدوِّن يومياته وهو ينظر إلى الأرض التي يبتعد عنها**[1]. يكتب في اليوم التالي: قبالة الساحل الكرواتي. كوزمو على أشده من الضجر. سماء جميلة. جبال جرداء. الغيوم عالية. ظلمة عند الساعة الثالثة بعد الظهر. طقس رديء. رفعنا أشرعتنا. السابعة مساء، العاصفة عاتية جدًا. الأمواج تتكسّر على السطح. أضاء القبطان النمساوي مصباحًا زيتيًّا أمام صورة سيدتنا العذراء مريم في مقصورته. إنه يركع على الأرض، ويصلّي. يصلّي بالإيطالية، يا للغرابة، لأن الملاح المسكين البائس **دُفن في هذا البحر المقدس**[2]. تبع الليلة العاصفة نهار صحو. زدنا السرعة بثبات نحو الجنوب. أعدت الأمور إلى نصابها. في الضوء الضعيف أمامنا، رمادية لؤلؤيّة عند خط الأفق، تظهر جزيرة. يقف كوزمو أمامي مثل مرشد السفن. يخاطب بحّارًا باسم فانو. يصرخ البحار بكلام غير مفهوم مشيرًا إلى الأمام، يكرر بصوت أعلى: فانو! فانو! لاحقًا، تحت، على الجزيرة

(1) بالفرنسية في الأصل.
(2) بالإيطالية في الأصل.

المعتمة الآن، أرى نارًا. هناك صيادو سمك على الشاطئ. يلوِّح أحدهم بقطعة خشب مشتعلة. مررنا بهم، وبعد بضع ساعات دخلنا مرفأ كاسيوبِه على الساحل الشمالي لجزيرة كيركيرا[1]. في الصباح التالي الحدث الأكثر رعبًا على متن المركب. تصليح العطل في المحرك. نحو الشاطئ مع كوزمو. نحو خرائب التحصينات. جزيرة من شجر البلوط تنمو خارج القلعة مباشرة. نتمدّد تحت ظلة من أوراق الشجر كما لو كانت تعريشة. في الأسفل، يطرقون عند المرجل. يوم خارج الزمن. نمنا ليلًا على ظهر المركب. غناء الجداجد. أيقظني النسيم الذي هبَّ على جبيني. عبر المضايق، خلف جبال ألبانيا السَّوداء الضاربة إلى الزرقة، ينبلج الفجر، يتأجّج لهبه المتوهج عبر العالم المظلم. وفي نفس الوقت ينفث يختان أبيضان عابران للمحيط دخانًا أبيض عبر المشهد، ببطء شديد كما لو أنهما كانا مسحوبان عبر منصة بوصة تلو أخرى. بالكاد يظن المرء بأنهما كانا يتحركان، لكن رحلا أخيرًا، نحو أجنحة «رأس فارفارا»[2] بغاباتها الخضراء الداكنة التي يتدلّى فوقها منجل الهلال الرفيع. - في السادس من أيلول: من كيركيرا عبر إيثاكا وباتراس نحو خليج كورنث. عند إيتيا قررا إرسال المركب قُدُمًا والسفر برًا نحو أثينا. الآن في التلال عند دلفي، كان الليل منعشًا جدًّا. استلقينا للنوم منذ ساعتين، ملتحفَيْن بمعاطفنا. متوسّدين سروجنا. على مقربة وقفت الأحصنة محنية تحت شجرة الغار، الأوراق تحفّ بنعومة مثل صفائح صغيرة من المعدن. فوقنا درب التبانة (حيث مرت الآلهة، يقول كوزمو)، ساطع جدًّا حتى إني أستطيع أن أكتب

(1) جزيرة كورفو في اليونان.
(2) Varvara: قرية تقع جنوب شرقي بلغاريا على البحر الأسود.

على ضوئه. إذا ما نظرت مباشرة أرى كوكبة البجعة[1] وكاسيوبيا[2]. إنها النجوم نفسها التي رأيتها فوق جبال الألب في طفولتي ولاحقًا فوق المنزل الياباني في بحيرته، فوق المحيط الهادئ، وفوق مصب لونغ آيلاند. لا يمكنني أن أصدّق إلا بالكاد بأني الشخص نفسه، وفي اليونان. لكن بين الحين والآخر عطر شجر العرعر ينبعث نحونا، فهو من المؤكّد كذلك.

بعد هذه التدوينات الليلية، كانت التدوينات اللاحقة على اختلاف طولها مكتوبة يوم وصولهما إلى القسطنطينية. سجل آمبروز في الخامس عشر من أيلول: صباح البارحة غادرنا بيرايوس. إلى حد ما أسوأ ما يمكن احتماله، كتبٍ، بعد رحلة برية مجهدة. سفر هادئ، الاستراحة لساعات تحت الظّلة على السطح. لم أر أبدًا ماء بمثل هذه الزرقة. لازورديٌ حقًّا. هذا الصباح عبر الدردنيل. أسراب كبيرة من طيور الغاق. في وقت مبكر من الأصيل، أمامنا في البعيد، ظهرت عاصمة الشرق، أولًا مثل سراب، ثم أصبحت خضرة الأشجار والمنازل الملوّنة المتزاحمة أكثر وضوحًا تدريجًا. صواري السفن، محتشدة وتتمايل بلطف مع النسيم، والمآذن تبدو أنها تتأرجح قليلًا أيضًا. - دفعنا أجر القبطان من تريستي، استأجرنا مسكنًا موقتًا في بيرا بالاس. دخلنا البهو أثناء تقديم شاي الأصيل. يكتب كوزمو في السجل: **الأخوان سولومون، نيويورك، في طريقنا إلى الصين. بيرا**[3]، أخبرني موظف الاستقبال عندما استفسرت بأن بيرا تعني وراء. وراء اسطنبول. موسيقى أوركسترالية ناعمة تنساق

(1) وتعرف أيضًا باسم كوكبة الدجاجة.
(2) وتعرف بالعربية باسم كوكبة ذات الكرسي.
(3) بالفرنسية في الأصل.

عبر البهو. خلف ستائر قاعة الرقص المسدلة المصنوعة من التُّول تنزلق ظلال الثنائيات الراقصة. عندما يموت الحب[1]، تغني امرأة، يتمعّج صوتها بشكل مخيف. الأدراج والغرف رائعة. صور لمناظر طبيعية مفروشة تحت سقفٍ عالٍ. أحواض كبيرة في الحمامات. من الشرفة، منظر القرن الذهبي[2]. يحل المساء. راقبنا هبوط الظلام من التلال النائية على الأسطح المنخفضة، يرتفع من أعماق المدينة فوق قباب المساجد الرمادية إلى أن تبلغ أخيرًا أطراف المآذن التي تومض بشكلٍ خاصٍ ببهاء للمرة الأخيرة قبل رحيل الضوء. - عند هذا الحد، تستمر تدّوينات آمبروز بدون تأريخ في يومياته. يكتب، ما من أحد يمكنه أن يتصوّر مثل هذه المدينة. أنواع مختلفة كثيرًا من المباني، الكثير من الخضرة المختلفة. تيجان الصنوبر عالية. الأكاسيا، شجر الفلّين، الدِّلب، الأوكاليبتوس، العرعر، الغار، جنّة من الأشجار، منحدرات ظليلة وبساتين مع جداول تتهاوى وينابيع. كل نزهة مليئة بالمفاجآت وحقًّا بالذعر. تتغيّر المناظر كما تتغير المشاهد في المسرحية. شارع تصطف فيه مبانٍ فخمة تنتهي عند وهدة. تذهب إلى مسرح وينفتح باب في البهو على أيكة، مرة أخرى، تدور نحو شارع خلفي كئيب يضيق ويضيق حتى تظن بأنك وقعت في فخ، وعندئذ تأخذ انعطافةً أخيرة يائسة حول الزاوية وتجد نفسك فجأة تحدق من نقطة تنظر عبر المناظر البانورامية الأكثر اتساعًا. تصعد سفح تلة جرداء دومًا وتجد نفسك مرة أخرى في وادٍ ظليلٍ. تدخل بوابة منزل وها هي في الشارع. مساقة مع الضجيج

(1) Quand l'amour meurt: أغنية للمغنية والممثلة الألمانية مارلين ديتريش.

(2) القرن الذهبي: شبه جزيرة في إسطنبول الأوروبيَّة ويقع فيها قصر الباب العالي ومسجد السلطان أحمد.

في السوق وفجأة وسط بلاطات الأضرحة. لأن مقابر القسطنطينية وسط الحياة مثل الموت نفسه. كل شخص يغادر الحياة، يقولون، سروة مزروعة. في أغصانها الكثة تعشش اليمائم. عندما يحلّ الليل تتوقف عن الهديل وتشارك الموتى صمتهم. عندما يرين الصمت، تخرج الخفافيش مرفرفة وتمضي في سبيلها. يدّعي كوزمو أن في وسعه سماع كل صرخة من صرخاتها. - جميع أحياء المدينة مبنية من الخشب كليًّا. منازل من ألواح مجوّاة رمادية وبنية ودعامات، وأسطح بأفاريز مسطّحة القمة وشرفات. الحي اليهودي مبني بنفس الطريقة. فيما نحن سائران فيه اليوم انعطفنا، وعلى نحو غير متوقّع رأينا من بعيد سلسلة الجبال الزرق وقمة جبل الأولمب الثلجية. في خفقة قلب مهولة أتخيل نفسي في سويسرا أو في الوطن ثانية...



وجدنا منزلًا خارج حدود المدينة، في «أيوب»[1]. يقع بجانب مسجد القرية القديم، في مقدمة ساحة حيث تلتقي ثلاث طرق. في

(1) منطقة تقع في الجانب الأوروبي من مدينة إسطنبول.

وسط الساحة المرصوفة، مع أشجار الدلب المقطوعة الرؤوس، جرن نافورة مستدير من الرخام الأبيض. توقف كثير من الريفيين هنا في طريقهم إلى المدينة. فلّاحون يحملون سلال الخضار، مواقد تعمل على الفحم، غجر، سائرون على الحبال ومدرّبو الدببة. يفاجئني عدم رؤية عربة واحدة أو أية وسيلة نقل أخرى إلا بالكاد.

الجميع يسير على قدميه، أو في أفضل الأحوال يركب على دابّة. كما لو أن العجلة لم تُخترع بعد. أو أننا لم نعد جزءًا من الزمن؟ ماذا كان يعني تاريخ مثل الرابع والعشرين من أيلول؟ -خلف المنزل هناك حديقة، أو بالأحرى نوع من فناء فيه شجرتَا تين ورمان. نَمَت أعشاب أيضًا هناك -إكليل الجبل، المريمية، الآس، البيلسان. روائح مُسكِنَّة. الدخول من باب مطلي باللون الأزرق في الخلف. القاعة فسيحة ومرصوفة بالحجر ومبيَّضة حديثًا. الجدران ناصعة البياض. الغرف خالية من التجهيزات تقريبًا، وتمنح انطباعًا بأنها مهجورة وفارغة. يقول كوزمو إننا استأجرنا منزل أشباح. درجات خشبية تفضي إلى سطيحة تظلّلها كرمة عتيقة. يظهر مؤذّن من الباب المجاور، عند شرفة المئذنة، أشبه بالقزم. إنه قريب للغاية حتى إن في وسعنا رؤية قَسَمات وجهه. ينادينا محيّيًا قبل أن يتلو الأذان. تحت عريشة الكرمة، وجبة المساء الأول في منزلنا. تحت، عند القرن الذهبي يمكننا أن نرى آلاف المراكب تعبر جيئة وذهابًا، وإلى اليمين تمتد مدينة اسطنبول نحو الأفق. فوقها متاريس من السحب، حمراء نارية اللون، نحاسية، وقرمزية، تضيئها الشمس الآفلة. قرب انبلاج الفجر نسمع صوتًا يملأ الهواء، كما لم نسمع من قبل، صوت مثل همس حشد بعيد تجمَّع في الهواء الطلق في حقل أو على سفح جبل. صعدنا إلى السطح ورأينا مظلّة تتحرك، غطاء مكوَّن من

اللونين الأسود والأبيض في السماء على مد النظر. لقالق لا تُعدّ ولا تُحصى، تهاجر جنوبًا. لاحقًا في الصباح كنا لا نزال نتحدث عنها في المقهى على شاطئ «القرن». نحن جالسان على شرفة مكشوفة على شيء من العلو، نبدو مثل قديسين. عبرت سفينتان شراعيتان، قريبتان جدًّا. يمكن للمرء أن يشعر بحركة الهواء فيما هما تمضيان. أحيانًا في طقس عاصف، يقول المالك، يحطم دويّها نافذة أو يخلع النباتات عن عتبات النوافذ. - السابع عشر من شهر تشرين الأول: أجلس في الخلف مع مدوّناتي، حيث قدر أقل من متطلبات الحياة وأكثر من التكاسل. البارحة نزهة في مركب تركي، نحو القرن الذهبي ثم نحو اليمين، الضِّفة الآسيوية للبوسفور. خلّفنا الأجزاء الخارجية للمدينة وراءنا. جروف مشجرة، تحدّها الأشجار الدائمة الخضرة. هنا وهناك، فيلات منعزلة ومنازل صيفية بيضاء. يثبت كوزمو أنه بحّار جيد. عند حدٍّ معين نحن محاطان لست أدري بكم من الدلافين. لا بد أنهم كانوا بالمئات، إن لم يكن بالآلاف. مثل قطيع كبير من الخنازير حرثوا الأمواج بخطومهم وداروا من حولنا مرارًا قبل أن يغطسوا أخيرًا بالتتابع. في الخلجان الصغيرة العميقة، انحنت أغصان على المياه المدوِّمة. انزلقنا تحت الأشجار، وببعض الشَّد على المجاذيف دخلنا مرفأ محاطًا بمنازل صامتة بغرابة. كان رجلان مقعيان على رصيف الميناء يلعبان النرد. بخلاف ذلك لم يكن هناك أحد في الأنحاء. دخلنا المسجد الصغير من البوابة. جلس شاب يقرأ القرآن في فجوة في الجدار خافتة الإضاءة. كان جفناه نصف مغلقين، وشفتاه تدمدمان همسًا، وجسده يتأرجح جيئة وذهابًا. في وسط القاعة كان فلاح يصلّي صلاة العصر. مسَّ جبهته مرارًا وتكرارًا بالأرض وظل محنيًّا وقتًا طويلًا بدا لي كأنه الأبد. لمع كعبا قدميه

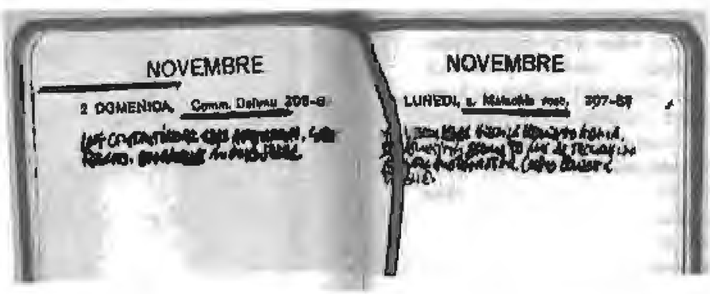
في الضوء المبعثر الداخل من الباب. نهض أخيرًا، أولًا ملقيًا بنظرة مراعية يمنة ويسرة من فوق كتفيه محييًا الملاكَيْن الحارسَيْن اللذين وقفا خلفه، قال كوزمو. التفتنا بنيّة المغادرة، من ظلمة المسجد الجزئية نحو سطوع الرمل الأبيض في ساحة المرفأ. ونحن نعبرها، نستر عيوننا المنبهرة مثل مسافرين في صحراء، ترنحت حمامة رمادية بحجم ديك كامل النمو تقريبًا متثاقلة نحونا، وقادتنا إلى زقاق حيث صادفنا درويشًا يبلغ نحو الثانية عشرة من عمره.



كان يرتدي عباءة عريضة جدًا وصلت إلى الأرض وسترة ضيقة مصنوعة، مثل العباءة، من قماش الكتان الممتاز. كان الفتى جميلًا على نحو استثنائي، يعتمر قبعة صغيرة (توكة) عالية من دون حافة مصنوعة من وبر الجمل. تحدّثت معه بالتركية، لكنه نظر إلينا ولم ينطق بكلمة. في العودة، بدا أن مركبنا ينزلق من تلقاء نفسه على طول الجروف الخضراء الداكنة. غربت الشمس، كانت المياه منبسطة ظليلة لكن في الأعلى ظلُّ الضوء يتحرّك هنا وهناك. يقول كوزمو، من عند الدَّفة، بأنه يريد أن يخرج مرة ثانية قريبًا مع مصور ليلتقط صورًا تذكارية للفتى الدرويش.

يكتب آمبروز في السّادس والعشرين من شهر تشرين الأول: أتيت اليوم بالصور الفوتوغرافية للفتى الأبيض من الأستديو. لاحقًا، تحريت في السّكة الحديد الشرقية وفي البنك العثماني عن رحلتنا القادمة. أيضًا اشتريت زيًا تركيًا لكوزمو وواحدًا لي. أمضينا المساء مع جدول المواعيد، الخرائط ودليل كارل بيديكر السياحي[1].

يمكن تتبع الطريق التي سلكاها من القسطنطينية في دفتر اليوميات عن كثب إلى حد ما، على الرغم من واقعة أنها أكثر تباعدًا الآن، وأحيانا تتوقف.



لا بد أنهما عبرا تركيا كلها على متن القطار، نحو أضنة، ومن هناك ذهبا إلى حلب وبيروت، وبدا أنهما أمضيا مدة ما يقرب من أسبوعين في لبنان، لأنه ما إن حلّ الواحد والعشرون من تشرين الثاني حتى تمّ تدوين «العبور إلى يافا». يوم وصولهما إلى يافا، عن طريق وكيل في فندق فرانكس، د. ايمانويل بيتزينغر، استأجرا

(1) Karl Ludwig Johannes Baedeker: (1801 – 1859) كان ناشرًا ألمانيًا.

حصانَين مقابل 15 فرنك لكل واحد منهما لقاء ركوب اثنتي عشرة ساعة من السَّاحل إلى القدس. أرسلت الأمتعة بالقطار. في وقت باكر من صباح الخامس والعشرين، كان كوزمو وآمبروز في طريقهما عبر بيّارات البرتقال باتجاه الجنوب الشرقي، عبر سهول شارون ونحو جبال يهودا عبر الأرض المقدسة يكتب آمبروز، غالبًا بعيدًا عن الطريق. تشعّ الصخور في كل مكان بياضًا في الضوء. لا يوجد شجرة ولا شجيرة على مسافة طويلة، بالكاد كتل هزيلة من الأعشاب الضَّارة. كوزمو صموتٌ للغاية. سماء مظلمة. سحب عظيمة من الغبار تعصف في الهواء. خراب مريع وخلاء. في وقت متأخر من الأصيل صفا الجو مرة أخرى. وهج وردي حلّ على الوادي، وعبر فتحة في الأرض الجبلية رأينا المدينة الموعودة في البعيد -كتلة صخور مدمَّرة ومكسرة، ملكة الصحراء... بعد ساعة من حلول الظلام انطلقنا نحو حوش فندق كامينيتز على طريق يافا. مدير الفندق، رجل فرنسي صغير شعره مدهون بمرهم عطري، مدهوش للغاية، بدا أنه حقًّا مصدوم[1] لرؤية هذين القادمين الجديدين المكسوَّيْن بالغبار، ويهز رأسه وهو يتفحّص قيدنا في السِّجل. إلى أن طلبت منه أن يتثبّت من أن أحصنتنا يتم الاهتمام بها على نحو ملائم، فتذكّر واجباته، وعندئذ تعامل مع كل شيء بأقصى سرعة ممكنة. الغرف مؤثثة على النحو الأكثر تميزًا. لا يمكن للمرء أن يعرف في أي فترة أو جزء من العالم هو موجود. إطلالة على أحد الجوانب عبر سقوف حجرية مقبَّبة. في ضوء القمر الأبيض تشبه بحرًا متجمّدًا. إرهاق شديد، نمنا حتى الصباح. أحلام عدّة

(1) Scandalisé: بالفرنسية في الأصل.

بأصوات غريبة وصرخات. عند الظَّهيرة صمتٌ قاتل، لا يكسره سوى صياح الديكة الذي لا يتوقف. - اليوم (يفسر بعد يومين) أول نزهة عبر المدينة وفي الأحياء الخارجية. انطباع مخيف إجمالًا. باعة للتذكارات والأشياء التعبّدية تقريبًا في كل مبنى. جثموا في عتمة متاجرهم وسط مئات من النقوش على خشب الزيتون وخردة مزينة بعِرق اللؤلؤ. مع نهاية الشهر سيأتي المؤمنون للتبضّع جماعات، عشرة أو خمسة عشر ألف حاج مسيحي من جميع أنحاء العالم. المباني الأحدث عصية على الوصف من شدّة القبح. كميات كبيرة من القذارة في الشوارع. **المشي على الرّوث!!!**[1]. مسحوق حجر الجير يصل حتى الكاحل في بعض الأماكن. بعض النباتات التي نجت من الجفاف الذي استمر منذ شهر أيار مغطاة بهذا الطحين الدقيق كما لو أنه آفة زراعية. لعنة يبدو أنها حلّت على المدينة[2]. البلى، لا شيء سوى البلى، هزال وفراغ. ما من إشارة على أي تجارة أو صناعة. أينما مررنا كان مصنع لصناعة الصابون والودَك وأعمال تذويب العظام. تجاورها، في ساحة عريضة، باحة تاجر الحيوانات. في الوسط فجوة كبيرة. دماء متخثرة، كومة من الأحشاء، كروش حيوانات بنّية مسودة، جافة ومحروقة من الشمس... خلافًا لذلك كنيسة بعد أخرى، أديرة، مؤسسات دينية وخيرية لكل نوع وملّة. على الجانب الشمالي تقع الكاتدرائية الروسية، التكيَّة الروسية للنساء والرجال، مستشفى سان لويس الفرنسي، البيت اليهودي للمكفوفين، كنيسة وتكية القديس أوغسطين، المدرسة الألمانية،

(1) بالفرنسية في الأصل.
(2) بالفرنسية في الأصل.

الميتم الألماني، المصحة الألمانية للصم والبكم، مدرسة البعثة اللندنية لليهود، الكنيسة الحبشية، الكنيسة الأنغليكانية، مقر أساقفة الكنيسة الأنغليكانية، دير الرهبنة الدومينيكانية، المعهد اللاهوتي وبازيليك القديس اسطفان، معهد روتشيلد للفتيات، كلية الاتحاد الإسرائيلي للتجارة، كنيسة نوتردام فرنسا، وبجانب بركة بيت حسدا، دير القديسة آنا، على جبل الزيتون البرج الروسي، كنيسة الصعود، كنيسة الصلاة الربانية الفرنسية، دير الراهبات الكرمليات، مبنى مقر مؤسسة الإمبراطورة أوغسطا فيكتوريا، كنيسة مريم المجدلية الأرثوذكسية الروسية، كنيسة الكرْب، إلى الجنوب والغرب الدير الأرمني الأرثوذكسي لجبل صهيون، المدرسة البروتستانتية، راهبات القديس فانسان، تكيّة فرسان القديس يوحنا، رهبنة أخوات القديسة كلير، تكية مونتفيور وبيت الأبرص المورافي.



في وسط المدينة توجد كنيسة ومسكن بطريرك اللاتين، قبّة الصخرة، مدرسة أخوة الإيمان المسيحي، مدرسة ومطبعة أخوية الفرنسيسكان، الدير القبطي، التكية الألمانية، كنيسة المخلّص البروتستانتية الألمانية، الكنيسة المتحدة الأرمنية للتشنج (كما

تسمى)، دير راهبات صهيون، المشفى النمساوي، دير ومعهد الإرسالية الأخوية الجزائرية، كنيسة القديسة آنا، التكية اليهودية، الكنيس الأشكنازي والسفرديم، وكنيسة القيامة المقدّسة، تحت البوابة التي قدّم منها لنا رجل صغير مشوّه وأنفه كالخيارة خدماته كدليل عبر متاهة من ممرات وأجنحة الكنيسة، الكنائس الصغيرة، المقامات والمذابح. كان يرتدي عباءة راهب صفراء فاقعة اللون تعود في رأيي إلى القرن الماضي، وساقاه المعوجّتان كانتا متشحتين فيما كان سابقًا بنطال فارس قصير بأشرطة سماوية اللون. متخذًا خطوات صغيرة، ملتفتًا نحونا نصف التفاتة دومًا، رقّص قدمًا وتحدث بغير انقطاع بلغة ربما ظن أنها الألمانية أو الإنكليزية لكنها كانت في الواقع من اختراعه، وبالنسبة لي، بكل الأحوال، كانت غير مفهومة تمامًا. كلما وقعت عيناه عليَّ شعرت بالاحتقار والبرود ككلب شارد. لاحقًا، أيضًا، خارج كنيسة الضَّريح المقدس، شعور متواصل بالضِّيق والبؤس. مهما كان الاتجاه الذي نسلكه، وصلنا دومًا إلى إحدى الوهاد الشديدة الانحدار التي تقطع المدينة وتتهاوى نحو الوديان. الآن الوهاد امتلأت كثيرًا بقمامة ألف سنة، وفي كل مكان نفايات سائلة تتدفق نحوها علنًا. بالنتيجة، أصبحت ماء الينابيع العديدة غير قابلة للشرب. ما كانت تشكل أحواض بركة سِلوام[1] لم تعد سوى برك صغيرة ملوثة وبواليع، ومستنقعات يتصاعد منها البخار العفن ما تسبّب بآفات تعصف هنا تقريبًا كل صيف. كوزمو يقول مكررًا إنه ارتعب للغاية في هذه المدينة.

كتب آمبروز في السَّابع والعشرين من تشرين الثاني أنه كان في

---

(1) سلوام كلمة عبرية تعني المُرسَل تقع بالقرب من مدينة القدس وهي البركة التي تسمى اليوم بركة سلوان.

استديو «رعد» للتصوير في طريق يافا، والتقط لنفسه صورةً بناء على رغبة كوزمو، في ثوبه العربي الجديد المخطّط. في الأصيل (يتابع) خارج المدينة إلى جبل الزيتون. نمرُّ بكرم ذابل. كانت التربة تحت الدوالي السَّوداء بلون الصدأ، مستنفدة ومسفوعة. بالكاد شجرة زيتون يابسة، شجيرة شائكة، أو نبتة زوفا صغيرة. على قمة جبل الزيتون يمتد مسار ركوب الخيل. خلف وديان يهوشافاط، حيث يقال إنه في نهاية الزمان، سيتجمّع الجنس البشري برمته بلحمه ودمه، تنهض المدينة الصامتة من حجر الجير الأبيض بقبابها، أبراجها، وخرائبها. فوق سقوف البيوت ما من صوت، ما من أثر لدخان، لا شيء. أبدًا، على مد النظر، ما من أثر لحياة، ما من حيوان يعدو، أو حتى أصغر طائر يطير. **يبدو كما لو أن هذه هي الأرض الملعونة**[1]... على الجانب الآخر، ما لا بد أن يكون على عمق أكثر من ثلاثة آلاف قدم، نهر الأردن وجزء من البحر الميت. كان الهواء صافيًا ورقيقًا ونظيفًا جدًّا حتى إنه من دون تفكير قد يمد المرء يدًا ليلمسّ أشجار الطرفاء في الأسفل هناك على ضفة النهر. لم نغتسل يومًا في مثل هذا الدَّفق من الضوء! للأمام قليلًا، وجدنا مكانًا للاستراحة في جوف جبل حيث شجرة بقش مقزَّمة وبعض أجمات من نبات الشِّيح. اتكأنا على الجدار الصَّخري طويلًا، نشعر كيف أن كل شيء تلاشى تدريجًا... في المساء، تفحّصت دليل السَّائح الذي سبق أن اشتريته من باريس. يقول، في الماضي بدت القدس مختلفة تمامًا. تسعة أعشار بهجة العالم كانت لتوجد في هذه المدينة الرائعة. جلبت قوافل الصحراء التوابل، والأحجار الكريمة، والحرير والذهب. قدمت البضائع بوفرة من موانئ البحر

(1) بالفرنسية في الأصل.

في يافا وعسقلان. كانت الفنون مزدهرة والتجارة. أمام الجدران، انبسطت حدائق مصانة بعناية، كان وادي يهوشافاط مظللًا بشجر الأرز، كانت هناك جداول، ينابيع، وأحواض سمك، وقنوات عميقة، وفي كل مكان ظلال منعشة. ثم جاء عصر الانحطاط، دمرت كل مستوطنة تمتد على رقعة رحلة أربع ساعات في الجهات الأربع، كانت أنظمة الري محطمة، والأشجار والأجمات مقطوعة، محروقة ومنسوفة، حتى آخر أرومة. لسنوات جعل القياصرة العيش مستحيلًا هناك عمدًا، وفي أوقات لاحقة أيضًا هوجمت القدس مرارًا، ثم حُررت وهدأت. إلى أن أخيرًا كان الخراب كاملًا ولم يبقَ شيء من الثروة الفريدة للأرض الموعودة سوى حجر جاف وفكرة بعيدة في رؤوس شعبها، المشتّتين الآن في الدنيا.

في الرابع من كانون الأول: حلمت الليلة الماضية أن كوزمو وأنا عبرنا الفراغ الساطع لوادي الأردن. يتقدّمنا دليل أعمى. يشير بعصاه إلى بقعة قاتمة في الأفق ويصرخ مرات عدة، أريحا، أريحا. ونحن نقترب، تبين أن أريحا قرية قذرة برمال وغبار تدوِّم حولها. تجمَّع السكان كلهم عند طرف القرية في ظلة طاحونة سكّر متداعية. ينتاب المرء انطباعًا بأنهم ليسوا سوى شحّاذين وقطّاع طرق. عدد لافت منهم مصاب بالنُّقرس، حُدب أو مشوَّهون. آخرون برص أو يعانون من تضخّم في الغدة الدرقية. الآن أرى أن كل هؤلاء الناس هم من غوبريختس. أطلق مرافقونا العرب بنادقهم الطويلة في الهواء. عبرنا بهم، ورمى الناس نظرات حقودة خلفنا. عند سفح التلة المنخفضة تجاوزنا الخيام السود. أضرم العرب نارًا صغيرة وطهوا حساء أخضر داكنًا من خبيزة اليهودي وأوراق النعناع، وجلبوا لنا بعضًا منها في أطباق صغيرة، مع حلقات من

الليمون ودقيق القمح. حلَّ الليل سريعًا. أضاء كوزمو المصباح وبسط خريطته على السجادة الملونة. أشار إلى أحد الفراغات البيضاء العديدة قائلًا: نحن الآن في أريحا. تبعد الواحات أربع ساعات سيرًا على الأقدام طولًا وساعة سيرًا على الأقدام عرضًا. جمال نادر لا يضارعه إلا غوطة دمشق الفردوسية[1]. النَّاس هنا لديهم كل ما يلزمهم. كل ما يزرعوه ينمو في الحال في هذه التربة الخصبة. الحدائق البهية مزهرة أبدًا. الذُّرة الخضراء تتمايل في بساتين النخيل الزاهرة. الصيف الحار المتّقد يمكن احتماله لكثرة المروج المروية، تيجان الأشجار وأوراق الكرمة تظلل الدروب. الشتاءات معتدلة جدًا حتى إن شعب الأرض المباركة لا يرتدون أكثر من قمصان كتانية، حتى في جبال اليهودية، القريبة، المكسوة ببياض الثلج. عدة صفحات بيضاء تتبع رواية حلم أريحا. في هذه الأثناء، لا بد أن آمبروز كان منشغلًا بتجنيد فرقة صغيرة من العرب واقتناء التجهيزات والمؤونة اللازمين للقيام بحملة إلى البحر الميت، لأنه يكتب في السَّادس عشر من كانون الأول: غادرنا مدينة القدس التي تعج بحشود الحجاج منذ ثلاثة أيام ونزلنا نحو «وادي قطرون»، أخفض نقطة على سطح الأرض. ثم عند سفح جبال يشيمون، على المسافة نفسها من البحر وعين الجدي. يتخيل المرء مخطئًا أن هذا البحر قد أمطر بالنار والكبريت، وقد اكتسى بالملح على مدى آلاف السنوات. سمعت شخصيًا أن البحر الميت الذي يساوي في الحجم بحيرة ليمان، موصوف بأنه ساكن مثل رصاص مذوَّب، ولو أن السَّطح يتكدر أحيانًا بزبد فوسفوري. يقال إن ما من طير يطير ولا يموت مختنقًا في الهواء، وذكر آخرون ليالي مقمرة،

---

(1) بالفرنسية في الأصل.

هالة القبر بلون مشروب الافسنتين[1]، تصعد من أعماقها. لم نجد أيًا من هذا صحيحًا. في الحقيقة، مياه البحر رائعة الصفاء، ولا تكاد تسمع صوتًا على الشاطئ. على الأرض المرتفعة تصدعات خضراء تتدفق منها جداول. يرى أيضًا خط أبيض غامض يُلحظ في الصباح الباكر. يجري على امتداد البحر، ويتلاشى بعد ساعة تقريبًا. لا أحد، بحسب دليلنا العربي ابراهيم الهاشمي، يمكن أن يشرح أو أن يقدّم سببًا. عين الجدي نفسها هي بقعة مقدسة بمياه نبع نقية وغنية بالنباتات. أقمنا مخيمنا بحذاء بعض الشجيرات على الشاطئ حيث تسلّل طائرا الشنقب والبلبل، بنّي وأزرق الريش وأحمر المنقار يغرِّد. ظننت البارحة أني رأيت أرنبًا بريًا كبيرًا داكن اللون، وفراشة بأجنحة مرقّشَة بالذهبي. في المساء، عندما كنا جالسين على الشاطئ، قال كوزمو إن أرض صُوغَر كلها على الضفة الجنوبية كانت سابقًا على هذا الشكل. حيث لم يبق الآن سوى آثار خمس مدن مدمَّرة وهي عمُّورة، أدمة، سدوم، وصبوئيم، وصوغر. نمت الدُّفلى مرة على ارتفاع ثلاثين قدمًا بجانب الأنهار التي لم تجف أبدًا، وكانت هناك غابات من الآكاسيا وأشجار البلوط كما في فلوريدا. على مدِّ النظر كان يوجد بساتين مروية وحقول مزروعة بالشمَّام، وقد قرأ فقرة حيث ادعى المستكشف لينش أنه من مضيق وادي الكرك يسقط سيل غابة بهدير مخيف لا يمكن مقارنته إلا بشلالات نياغارا. - في الليلة الثالثة من إقامتنا في عين الجدي هبّت رياح عاتية على البحر وحرّكت المياه الثقيلة. كانت أهدأ على البر. كان العرب نائمين منذ وقت طويل بجانب الخيول.

(1) مشروب كحولي يصنع من عشبة الأفسنتين (الشيح) تم منعه لآثاره السمية يتراوح لونه بين الأزرق والأخضر.

كنت لا أزال جالسًا في سريرنا المكشوف على السَّماء، في ضوء الفانوس المتمايل. كان كوزمو وقد ثنى جسده قليلًا، ينام بجانبي. فجأة التجأ طائر سمّان ربما مرعوبًا من العاصفة على البحر، إلى حضنه وظل هناك هادئًا كما لو أنه في مكانه الملائم. لكن مع انبلاج الفجر، عندما تحرّك كوزمو، هرب سريعًا عبر الأرض المنبسطة كما يفعل السَّمّان، ارتفع في الهواء يخبط بجناحيه بسرعة كبيرة للحظة، ثم مدهما بصلابة وبلا حراك وانزلق بجانب أجمة صغيرة بانحناءة جميلة للغاية، ورحل. كان الوقت قُبيل مشرق الشمس. عبر المياه، نحو اثني عشر ميلًا، امتدت السلاسل الزرقاء المسودة لجبال مؤاب في شبه الجزيرة العربية مع خط الأفق ترتفع أو تنخفض قليلًا عند بعض نقاط وحسب لذا قد يظن المرء أن يد الرسام ارتجفت قليلًا.

كُتبت التدوينة الأخيرة في مفكرة خال والدتي الصغيرة في عيد القديس اسطفان. تقول إن كوزمو أصيب بحمًّى شديدة بعد عودتهما إلى القدس لكنه كان الآن في طريق تماثله للشفاء ثانية. دوَّن خال والدتي أيضًا أنها بدأت تثلج عند وقت متأخر من أصيل اليوم السابق، وأن التطلع من نافذة الفندق إلى المدينة البيضاء مع غياب الشمس، جعله يفكر بأيام بعيدة مضت. ذكرى، أضاف في حاشية، كثيرًا ما صدمتني كنوع من الخرس. إنها تجعل عقل المرء ثقيلًا ودائخًا، كما لو أن المرء لم يكن يلتفت إلى الوراء نحو مشاهد منحسرة في الزمن بل نحو الأرض من علوٍ شاهق، من أحد تلك الأبراج التي حجبت السُّحب قممها.

(4)

ماكس فربر

يأتون عند حلول الظلام للبحث عن الحياة

حتى عامي الثَّاني والعشرين لم أكن قد ابتعدت عن البيت مطلقًا ما يزيد على مسافة خمس أو ست ساعات في القطار، وكان من جرَّاء هذا أن قررت في خريف العام 1966 أن أنتقل إلى إنكلترا لأسباب شتَّى، لم يكن لديَّ تصور كافٍ عن حال البلد أو عن الكيفية التي سأتدبر بها أمري في الخارج، وأنا مجبرٌ كليًّا على الاعتماد على مواردي، إلا لمامًا. ربما يعود الأمر جزئيًا لقلَّة خبرتي إذ تمكنت من احتمال السفر ليلًا على متن الطائرة في رحلة دامت ساعتين من مطار «كلوتن» إلى مانشستر، بقدر قليل من الشُّكوك. لم يكن على متنها سوى عدد قليل من المسافرين، وعلى ما أذكر، جلسوا ملتحفين بمعاطفهم، متباعدين في الظلمة الجزئية لبدن الطائرة البارد. عادة في هذه الأيام، عندما أكون محشورًا بصورة مريعة تمامًا مع أمثالي من الرُّكاب، ومستثار بملاطفات طاقم الطائرة غير المرغوبة، ينتابني مرارًا خوف من الطيران لا يمكن كبحه إلا بصعوبة، لكن في ذلك

الحين، ملأني عبورنا الهادئ لسماء الليل بإحساس بالطمأنينة (عار من الصحة، كما أعرف الآن). ما إن عبرنا فرنسا والقناة حتى غصنا في الظلمة، حدّقت أسفل يملأني العجب من شبكة الأضواء التي امتدت من ضواحي لندن الجنوبية إلى وسط البلاد، كان وهجها البرتقالي، الإشارة الأولى على أني منذ الآن فصاعدًا سأحيا في عالم مختلف. ما إن اقتربنا من منطقة بيك ديستريكت جنوب مانشستر حتى أظلمت حبال مصابيح الشارع تدريجيًا. وأشرق، في الوقت نفسه، قرص القمر من خلف ركام سحب غطّت الأفق بكامله، ومع وهجه الشاحب، تبدّت التلال، الذُّرى، والرُّبى التي لم تكن مرئية سابقًا من تحتنا، مثل بحر فسيح جليدي شاحب اندفع بموجة عارمة. هبطت الطائرة بمشقّة بجناحين مرتجفين مصدرة هديرًا طاحنًا، حتى عبرنا بالجانب المضلّع بغرابة، لسلسلة تلال طويلة جرداء تبدو قريبة بما فيه الكفاية لتُلمَسّ، وتظهر لي أنها تنهض وتهبط مثل جسد هاجع ضخم، يموج كلما التقط أنفاسه. انقلبت الطائرة في انعطافة أخرى، مع تنامي هدير المحركات المنتظم، واتخذت لها مسارًا عبر الريف المكشوف. الآن، كان ينبغي أن نتمكن من تمييز كتلة مانشستر الممتدة، ومع ذلك لم يستطع المرء أن يرى شيئًا سوى بريق شاحب، كما لو أنه بصيص نار تكاد تختنق تحت الرماد. غطّت طبقة الضّباب الصّاعدة من السُّهول المستنقعية وامتدت حتى البحر الأيرلندي المدينة الممتدة على مساحة ألف متر مربع، والمبنية من قرميد لا يعد ولا يحصى وتسكنها ملايين الأرواح، من الأحياء والأموات.

لم ينزل من رحلة زيورخ سوى عدد قليل من المسافرين فقط في مطار «رينغواي»، ومع ذلك لم تخرج أمتعتنا من الأعماق إلا

بعد ساعة تقريبًا، ومضت ساعة أخرى في الجمرك: فجأة تحرك حشَدَ الموظفون الذين كانوا سئمين على نحو يمكن تفهمه في ذلك الوقت من الليل، درجة مقلقة من الدِّقة في تعاملهم معي، وقد كنت حالة نادرة، في تلك الأيام، طالبٌ خطّط للإقامة في مانشستر لمتابعة البحث، حاملًا معه تشكيلة من الرسائل ووثائق التعريف والتوصيات. ولهذا السبب كانت السَّاعة قد بلغت الخامسة صباحًا عندما استقليت سيارة أجرة متوجهًا نحو مركز المدينة. في الستينات، على عكس اليوم، بعدما أصابت المواطن البريطاني حماسة قارية للعمل، لم يكن أحد في المدن الإنكليزية ليخرج في الصباح الباكر. وهكذا، لما لم يكن هناك ما يؤخّرنا سوى إشارة المرور الضوئية بين الحين والآخر، قدنا بسرعة عبر ضواحٍ لا تخلو من الجمال، غاتلي ونورثندن وديدزبوري، إلى مانشسترَ نفسها. كان النهار ينبلج للتو، وتطلعت بذهول إلى صفوف المنازل المتماثلة التي بدت أكثر تهالكًا كلَّما اقتربنا من مركز المدينة. في موس سايد وهولم كان يوجد عمارات كاملة مكسوة أبوابها ونوافذها بألواح خشب، ومناطق برمتها كل ما فيها مهدَّم. انكشفت مشاهد على الأرض البور نحو تجمعات لا تزال رائعة المنظر للغاية من عمارات مكتبية فيكتورية ضخمة وعنابر، على مسافة كيلومتر تقريبًا، ما كان في السابق مركز واحدة من آيات مدن القرن التاسع عشر، لكنني سرعان ما اكتشفت، أنها كانت جوفاء حتى النُّخاع تقريبًا. فيما كنَّا نقود وسط الوهاد القاتمة بين المباني القرميدية، كان معظمها على علو ستة أو ثمانية طوابق، المزينة أحيانًا ببلاط السيراميك الصقيل، تكشَّف أنه حتى هناك، في وسط المدينة، لم يكن يُرى أحد، ولو أن السَّاعة كانت تشير إلى السادسة إلا ربعًا.

قد يتصوّر المرء أن المدينة هُجرت منذ أمدٍ طويل، وتُركت الآن كمقبرة كبيرة أو ضريح. أفهمني سائق سيارة الأجرة الذي طلبت منه أن يقلّني إلى فندق قليل الكلفة (كما وصفته)، أن الفنادق من النوع الذي أريده تندر في مركز المدينة، لكن بعد قيادة لبعض الوقت في الأرجاء انعطف من شارع «غريت بريدجواتر» نحو زقاق ضيّق وتوقّف عند منزل لا يكاد يتجاوز عرضه نافذتين، كان اسم آروزا عند الواجهة المسودّة بالسُّخام مكتوبًا بأحرف كبيرة من النيون.

قال السَّائق قبيل مغادرته، فقط واصل الرنين. وكان عليَّ بالفعل أن أضغط على الجرس طويلًا وأكثر من مرة قبل أن أسمع وقع خطوات في الداخل. بعد قدر من العناء والجلجلة، فتحت الباب سيدة شقراء مجعَّدة الشعر، ربما لم تبلغ الأربعين من عمرها تمامًا، كان لها مظهر مائج عمومًا أشبه بلورالي[1]. وقفنا لفترة متواجهَيْن بصمت، ترتسم على وجهينا ملامح عدم التصديق، أنا بجانب أمتعتي وهي في قميص نوم زهري اللون مصنوع من مادة لا تجدها إلا في غرف نوم الطبقات الإنكليزية الفقيرة وتدعى بصورة غير قابلة للتفسير «فتيل الشمعة». السيدة إيرلام -نعم، إيرلام مثل ضاحية إيرلام في مانشستر، سأسمعها لاحقًا تردّد ذلك على الهاتف مرارًا -كسرت السيدة إيرلام الصمت بسؤال جمع بين كل من حالتها المرتجَّة، جراء نهوضها من النوم، وانشراحها لرؤيتي: ومن أين أتيت؟ - سؤال أجابت عليه بنفسها فورًا، ملاحظة أنه لن يظهر على بابها في مثل هذه الساعة من صباح يوم جمعة مبارك سوى «غريب» على الحالة التي أنا عليها. لكن بعدئذ، تراجعت السيدة

(1) امرأة جميلة ألمانية خرافية يقال إنها تعيش على صخرة قرب نهر الراين وتغوي البحارة بغنائها الفاتن.

إيرلام مبتسمة بغموض وتلك كانت إشارة لأتبعها. دخلنا غرفة بلا نوافذ عبر الردهة البالغة الصغر، حيث منضدة ذات غطاء متخمة حد الانفجار برسائل ووثائق، وخزانة من خشب الماهوغني محشوَّة بتشكيلة من الشراشف وأغطية السرير القطنية، وهاتف حائط قديم، وحامل للمفاتيح، وصورة كبيرة لفتاة جميلة من جيش الخلاص في إطار أسود صقيل. بدا لي أن جميع هذه الأشياء لها حياة كاملة تخصّها. كانت الفتاة في الصورة ترتدي الزي الرسمي، واقفة أمام جدار مكسو باللبلاب ممسكة بآلة نفخ نحاسية (فلوغلهورن) تلتمع في ثنية ذراعها. كُتب على الإطار الملطخ قليلًا، في اليد المنسابة المائلة بشدة إلى أحد الجانبين: غريد إيرلام، أورمستون -قرب مانشستر، 17 أيار العام 1944. قالت مومئة عبر الردهة، الطابق الثالث، ثم رفعت حاجبيها مضيفةً: المصعد هناك. كان المصعد صغيرًا جدًّا فلم يكن ممكنًا سوى أن أحشر فيه مع حقيبتي وكانت أرضه رقيقة جدًا حتى إنها تراخت تحت ثقل راكب واحد. لم أستعمله لاحقًا إلا لمامًا، مع أن وقتًا ليس بالقليل استغرقني قبل أن أتمكن من العثور على طريقي في متاهة الممرات المسدودة، ومخارج الطوارئ، وأبواب تفضي إلى غرف، ومراحيض وسلالم النجاة، وأدراج وبسطات السلالم. كانت الغرفة التي انتقلت إليها ذلك الصباح، ولم أنتقل منها حتى الربيع التالي، مفروشة بسجادة ذات تشكيلات نباتية كبيرة، مغطاة بورق جدران مزهر بالبنفسج، ومؤثثة بخزانة ملابس، ومغسلة وسرير حديد مفروش بغطاء من قماش «فتيل الشمعة» القطني. كانت النافذة تطل على مبانٍ إضافية شبه مهجورة في الأسفل مسقوفة بصخر الأردواز، وفناء خلفي تزاحمت فيه الجرذان طوال ذلك الخريف إلى أن حضر قبل أسبوع من عيد الميلاد تقريبًا، صائد جرذان صغير يدعى رينفيلد مرات عدة مع دلوٍ رثٍ مملوء بمسحوق سم الجرذان. وزَّع السُّم في عدة

زوايا، وفي المصارف والأنابيب، مستعملًا ملعقة حساء مربوطة إلى عصا قصيرة، ولعدة أشهر لوحظ تناقص عدد الجرذان. إذا ما نظر المرء عبر الفناء، بدلًا من أن ينزل إليه، قد يرى المستودعات المهجورة العديدة النوافذ العائدة لشركة السكك الحديد «غريت نورثيرن»، تبعد قليلًا عن قناة مياه الصرف الصحي، حيث ترفرف الأضواء بشكل متقطع ليلًا أحيانًا.

كان يوم مجيئي إلى فندق «آروزا»، مثل معظم الأيام والأسابيع والأشهر التي ستتبعه، إبّان صمت لافتٍ وفراغ. أمضيت الصباح أفرغ حقيبتي وأكياسي، وأنضّد ملابسي وبياضاتي، وأرتب أدواتي الكتابية وأمتعة أخرى، ثم خلدت إلى النوم مرهَقًا بعد الرحلة الليلية، على سريري الحديد، دافنًا وجهي في مفرش السَّرير القطني وقد فاح برائحة صابون معطّر بالبنفسج خفيفة. صحوت بعد الساعة الثالثة والنصف تقريبًا، عندما قرعت السيدة إيرلام على بابي. على سبيل ترحيب خاص في ما يبدو، حملت لي على صينية فضية، جهازًا كهربائيًا من نوع لم يسبق لي أن رأيته من قبل. شرحت أنه يدعى (teas-maid) وهو عبارة عن ساعة منبه وآلة لتحضير الشاي في آن.



عندما صنعت شايًا وتصاعد منه البخار، بدا الاختراع الجديد اللماع المصنوع من معدن الستانلس ستيل على قاعدته المعدنية العاجية اللون مثل منمنمة لمحطة كهرباء، وتوهّج قرص السَّاعة، وهذا ما اكتشفته سريعًا بعد حلول الغسق، بلون أخضر زيزفوني فوسفوري عهدته في طفولتي وشعرت دومًا بأنه يمنحني حماية غير معللة في الليل. ربما لهذا السبب، عندما فكرت بتلك الأيام الخوالي في مانشستر، بدا غالبًا كما لو أن آلة تحضير الشاي التي جلبتها السيدة إيرلام إلى غرفتي قائلة: «غريسي، يجب أن تناديني غريسي»، كما لو أن تلك الأداة العجيبة والمفيدة، بوهجها الليلي، وبقبقتها الصَّباحية المكتومة، ومجرد وجودها في النهار، ربطتني بالحياة عندما شعرت بإحساس شديد بالعزلة التي كنت أغرق فيها تمامًا. إنها مفيدة جدًّا، قالت غريسي وهي تشرح لي طريقة تشغيل «آلة تحضير الشاي» أصيل ذلك اليوم من شهر تشرين الثاني، وكانت محقّة. بعد اطلاعي على أسرار ما سمتها غريسي **أعجوبة كهربائية**، مضينا في الكلام بطريقة ودّية، وأكّدت على نحو متكرّر أن فندقها كان منشأة هادئة، حتى بوجود بعض الشَّغب على حد وصفها (أحيانًا في المساءات) لكن هذا يجب ألا يثير قلقك. إنهم السادة المسافرون يروحون ويغدون. وبالفعل، ما كادت تنقضي ساعات العمل حتى انفتحت الأبواب وصرَّت الأدراج في فندق آروزا، وقد يصادف المرء السادة الذين ذكرتهم غريسي، شخصيات نشطة مكسوة جميعها تقريبًا من دون استثناء في مماطر أو معاطف بالية من قماش «الغبردين». ما إن تقترب الساعة من الحادية عشرة ليلًا حتى ينقطع الذهاب والإياب وتختفي النساء المبهرجات اللواتي قد تأتي غريسي على ذكرهنّ من دون أدنى تلميح ساخر

بعبارة فضفاضة صاغتها بنفسها على ما يظهر، على أنهنَّ رفيقات سفر السَّادة.

كان «الآروزا» يعج بالبائعين والكتبة يوميًا في المساء، ما عدا مساء السبت، لم يكن هناك إشارة على الحياة كما هو الحال في جميع أنحاء مركز المدينة. يتخلله فقط بين الحين والآخر زبائن ضالّين دعتهم بغير المنتظمين، ستجلس غريسي إلى المنضدة ذات الغطاء في غرفة مكتبها تعمل على سجلاتها المالية. بذلت قصارى جهدها كي تمهِّد أوراق الجنيهات الخضراء الرمادية اللون وأوراق العشرة شلنات الحمراء القرميدية اللون، ثم كدَّستها بعناية وعدَّتها همسًا كما لو أنها تردد شعيرة غامضة. إلى أن تتوصل إلى نفس الناتج مرتين على الأقل. لم يكن تعاملها مع القطع المعدنية ليقل دقةً، كانت هناك دومًا كمية كبيرة منها، كوَّمتها في أعمدة من القطع النحاسية الحمراء والصفراء والفضية قبل أن تبدأ بحساب المجموع الذي تقوم به جزئيًا يدويًا وجزئيًا بوسائل حسابية، أولًا تعمل على تحويل البنسات، ثلاثة بنسات وستة بنسات إلى شلنات ثم الشلنات، والفلورينات وأنصاف الكراونات، إلى باوندات. تبين أن التحويل الأخير الذي يلي ذلك، هو تحويل مجموع الباوندات التي توصلت إليها إلى جنيهات وكانت في ذلك الوقت العملة المعتمدة في أفضل المؤسسات التجارية، يشكل دومًا الجزء الأكثر صعوبة في هذه العملية المالية، لكن من دون شك كان له أيضًا عظَمَته المتوّجة. ستدوِّن غريسي المجموع بالجنيهات في دفتر الحسابات الجارية، توقّع وتؤرِّخ، ثم تودع المال في خزنة تحمل علامة بيكلي وباتريكروفت التجارية مثبّتة في الجدار بجانب المنضدة. في الآحاد، تغادر دائمًا النُّزل في الصَّباح الباكر، حاملة علبة جلدية لماعة صغيرة، لتعود، بشكل ثابت، يوم الاثنين عند موعد الغداء.

أما أنا، ففي تلك الآحاد، في الفندق المهجور تمامًا، سوف يتملّكني بانتظام إحساس بانعدام الهدف واللا جدوى، وكنت لأخرج فقط كي أختلق هدفًا، فأهيم على غير هدًى وسط مباني المدينة الضَّخمة العائدة إلى القرن التاسع عشر المسوَّدة بمرور الزمن. في تلك الجولات، عندما كان نور الشتاء يغمر الشَّوارع المهجورة والسَّاحات لبضع ساعات نادرة بضوء النهار الحقيقي، كان ذهولي بلا حد إزاء الكمال الذي أظهرت به مدينة مانشستر الفاحمة التي انتشر منها التصنيع إلى جميع أرجاء العالم، العملية المستمرة بوضوح لإفقارها وإذلالها لكل من أراد أن يرى. حتى أكثر المباني فخامة، من مثل الرويال اكسشينج، ومبنى شركة تأمين الملجأ، وصالة غروفنُر السينمائية، وحقًّا ساحة البيكاديللي بلازا التي لم يمضِ على بنائها سوى بضع سنوات، بدت فارغة جدًا ومهجورة حتى إن المرء ليخال نفسه محاطًا بواجهات غامضة أو خلفيات مسرحية. عندئذٍ كل شيء كان يبدو لي مزيفًا تمامًا، في أيام كانون الأول المعتمة تلك عندما كان الغسق يحل عند الساعة الثالثة من بعد الظهر، عندما تهبط الزرازير التي كنت أتخيل سابقًا أنها طيور غرِّيدة مهاجرة، على المدينة أسرابًا داكنة لا بد أنها كانت تعد بمئات الآلاف وتزعق بغير توقف، وتحط متقاربة على الرفوف وعلى أفاريز العنابر المائلة آناء الليل.

شيئًا فشيئًا ستقودني نزهاتي يوم الأحد بعيدًا عن مركز المدينة إلى مناطق مجاورة، من مثل الحي اليهودي سابقًا حول سجن سترينغوايز النَّجمي الشكل، خلف محطة فكتوريا. كان هذا الحي مركزًا لمجتمع مانشستر اليهودي الكبير حتى سنوات ما بين الحربين، إلا أن هؤلاء الذين عاشوا هناك انتقلوا إلى الضَّواحي

وهُدمت المنطقة في هذه الأثناء بأمر من المجلس البلدي. كل ما وجدته ثابتًا في مكانه تجلّى في صف مفرد من منازل فارغة، الريح تهبّ عبر النوافذ المهشّمة والأبواب، ولوحة نحاسية مقروءة بصعوبة لما كان سابقًا مكتب محامين لتدل على أن أحدًا تواجد هناك حقًّا، تحمل أسماء كان لها رنينٌ أسطوريٌّ في أذني: غليكمان، غرونوالد وغاتغيترو. في مناطق إردويك، برونسويك، أول سينتز، هولم وإنجل فيلدز أيضًا، المجاورة للمركز باتجاه الجنوب، دكّت السلطات مساحة كيلومترات كاملة من بيوت الطبقة الكادحة، وهكذا، كان كل ما بقي لتذكر حياة آلاف الأشخاص بعدما أزيلت الأنقاض، مخطط شبكيّ للشوارع.



عندما يحل الليل على تلك الرحاب الفسيحة التي تأملتها كحقول ايليزيان، سوف تبدأ النار بالوميض هنا وهناك وسوف يقف الأطفال من حولها أو يتقافزون، هيئات ظلّية لا تهدأ. في ذلك الحقل الأجرد الذي كان شبيهًا بميدان قتال حول مركز المدينة، في الواقع لم يكن يصادف المرء سوى الأطفال دومًا. تشرّدوا في مجموعات صغيرة، عصابات أو فُرادى، كما لو أن ليس لديهم مكان يمكن أن يدعى بيتًا. أتذكر على سبيل المثال، في أصيل متأخر من شهر تشرين الثاني، عندما كان السّديم الأبيض يرتفع لتوّه عن الأرض، صادفت فتًى

صغيرًا عند مفترق طرق وسط برية آنجل فيلدز، في رفقته شخص محشور في أسمال بالية على عربة تدفع باليد: الشخص الوحيد في كامل المنطقة يرغب بينس لرفيقه الصامت.

كان وقتًا مبكرًا من السنة التالية، إذا كانت ذاكرتي تسعفني، عندما تجاسرت على الخروج من المدينة، نحو الجنوب الغربي، أبعد من سان جورج وأوردسال، على طول ضفة القناة التي رأيت عبرها من نافذتي، مخزن شركة غريت نورثيرن للسكة الحديد. كان يومًا مشرقًا صافيًا والماء أسود برّاق في سدّه المصنوع من كتل بنائية ضخمة، عكس السُّحب البيضاء المتدافعة في السماء. كان صمتًا غريبًا جدًّا (كما أظن الآن أني أتذكر) سمعت تنهُّدات في المخازن المهجورة والعنابر، وذُعرت حدَّ الموت عندما حلّقت عدة نوارس فجأة، تزعق بحدة، من ظل أحد المباني العالية، نحو الضوء.



عبرت بمصانع الغاز المهجورة منذ فترة طويلة، مخزن الفحم، طاحونة العظام، وما بدا سياجًا لا نهائيًا من أوتاد حديد لمسلخ أوردسال، قلعة قوطية من قرميد بنّيّ داكن، بمتاريس، وشرفات، وعدة أبراج صغيرة وبوابات. منظر جلب إلى فكري على نحو سخيف اسم ميتزغر آند هيبرلاين صنّاع خبز الزنجبيل في نورينبرغ، وإذ ذاك علق ذلك الاسم فورًا في رأسي، نكتة سيئة من نوع ما، وواصلت التخبط هناك بقية اليوم. وصلت بعد ثلاثة أرباع الساعة إلى مرفأ مانشستر، حيث تفرعت أرصفة الميناء بطول كيلومترات عن قناة السُّفن وهي تدخل المدينة في قوس عريض، مشكّلة أذرعًا جانبية عريضة وسطوحًا لا يمكن للمرء أن يرى شيئًا يتحرّك عليها لسنوات. تبدو المراكب القليلة وسفن الشحن الجاثمة متباعدة على جوانب الأرصفة مهشّمة بصورة غريبة ذكّرتني بكارثة سفن جسيمة. ليس بعيدًا عن البوابات، عند مصب الميناء، على طريق انطلق من الأرصفة إلى حديقة ترافورد، صادفت لافتة مكتوب عليها عبارة **إلى المراسم** مطليّة بضربات فرشاة غير متقنة. موجّهة نحو فناء معبّدٍ بالحصى كانت في وسطه على رقعة معشبة شجرة لوز مزهرة. لا بد أنَّ الفناء كان يخصّ أعمال نقل في السابق، لأنه كان محاطًا من ناحية بإسطبلات ومبانٍ ملحقة ومن ناحية أخرى بمبانٍ ذات طابق واحد أو طابقين كانت سابقًا بيوتًا للسكن ومباني مكاتب. كان في واحد من تلك المباني التي بدت مهجورة، مرسمًا زرته كثيرًا في الأشهر التالية بقدر ما حسبت أن الأمر مقبولًا، للتحدّث إلى الرسام الذي كان يعمل هناك منذ أواخر الأربعينات، لعشر ساعات في اليوم، من دون استثناء اليوم السابع.

لدى الدخول إلى المرسم تمرُّ فترة لا بأس بها قبل أن تعتاد

العين على الضوء العجيب، وعندما يستعيد المرء قدرته على الإبصار مجددًا، يبدو كما لو أن كل ما كان منيعًا على النظر في ذلك المكان الذي يقيس اثني عشر مترًا طولًا باثني عشر مترًا عرضًا تقريبًا، يتحرّك وإن ببطء نحو الوسط بثبات. الظلمة التي تجمعت في الزوايا، الجص المنتفخ عند حد المد والطلاء الذي تقشّر عن الجدران، الرفوف المحملة بالكتب بإفراط وأكوام الصحف، الصناديق، مناضد العمل، الطاولات الجانبية، الكرسي عالي الظهر، فرن الغاز، الحشايا، جبال من الورق، أوانٍ خزفية ومواد مختلفة، قدور طلاء تلتمع بالأحمر القرمزي، ورق أخضر ورصاص أبيض في الظلمة، اللهب الأزرق لسخانين يعملان على وقود البارافين.. كان الأثاث كله يزحف، ميلليمترًا وراء آخر، نحو المركز حيث وضع فربر مسند لوحاته في الضوء الشاحب المتسرب من النافذة الشمالية العالية حيث تراكمت على مر عقود طبقات من الغبار. بما أنه دهن الطلاء على نحو سميك، ثم خدشه مرارًا عن قماش الخيش أثناء مباشرته لعمله، كانت الأرض مغطاة برواسب متقشّرة ومتصلّبة إلى حد كبير من الجلّة، مشوبة بهباب الفحم، بسماكة عدة سنتيمترات في المركز لترقّ نحو الحواف الخارجية، حتى شابهت في بعض الأماكن الحمم البركانية. قال فربر، كان هذا الناتج الحقيقي لمساعيه المتواصلة، والبرهان الأكثر وضوحًا على فشله. ذكر فربر مرة عَرَضًا أنه لطالما كان على أهمية عظيمة بالنسبة له، وجوب ألا يتغير شيء في مكان عمله، وأن كل شيء يجب أن يبقى على حاله، كما سبق أن رتّبه، وأن لا شيء يجب أن يضاف سوى الحطام الناجم عن الرسم والغبار الذي يتساقط باستمرار والذي كان يستنتج أنه أحبه أكثر من أي شيء آخر في العالم. قال

إنه شعر بقربه من الغبار أكثر من الضوء والهواء أو الماء. كان أكثر ما لا يستطيع احتماله منزل منفوض عنه الغبار جيدًا، ولم يشعر أبدًا بأريحية كما شعر في الأماكن التي تظل فيها الأشياء ساكنة، مصمتة تحت الذرات الرمادية المخملية التي تبقى بعد تحلّل المادة، نحو العدم شيئًا فشيئًا. وبالفعل، عندما راقبت فربر يعمل على إحدى تجارب لوحاته على مدى عدة أسابيع، ظننت بأن همَّه الرئيس كان غالبًا أن يزيد كمية الغبار. رسم بتخلٍ عازم، كثيرًا ما كان يستهلك نصف دزينة من عصي الفحم المصنوعة من خشب الصفصاف خلال أقصر فترة زمنية، وأن عملية الرسم والتظليل على الورق السميك الجلدي، والعمل المصاحب أيضًا من المحو المستمر لما رسمه بخرقة صوفية مثقلة سلفًا بالفحم، لم تتوصل حقًّا إلا إلى إنتاج ثابت للغبار لم يتوقف سوى ليلًا. عجبت مرارًا وتكرارًا، بنهاية يوم العمل، عندما رأيت أن فربر، أبدع ببعض الخطوط والظلال الناجية من الإبطال، لوحة على قدر كبير من الإشراق. وزاد عجبي أكثر عندما في صباح اليوم التالي، ما إن ألقى بنظرة على الموديل الذي قد جلس للتو حتى محا اللوحة مرة ثانية، وشرع مرة أخرى في التنقيب عن ملامح موديله الذي كان الإنهاك باديًا عليه من هذا النحو في العمل على سطح متضرر بشدة من جراء التخريب المستمر. قال فربر إنَّ ملامح الوجه والعينين، ظلت في نهاية الأمر عصيّة على المعرفة بالنسبة له. ربما يستبعد أكثر من أربعين شكلًا مختلفًا أو يطمس معالمها على الورق أو يرسم محاولات جديدة فوقها، وإذا قرر بعد ذلك أن اللوحة تمّت، ليس لاقتناعه بأنها كانت منتهية بقدر ما كان قراره ناجمًا عن إنهاك مطلق، قد يشعر المشاهد أيضًا بأنها نشأت عن سلالة طويلة من وجوه رمادية، متوارثة، ذابت

وصارت رمادًا لكنها لا تزال موجودة كهيئات شبحية على الورق المنهوب.

على العموم، أمضى فربر الصباحات قبل أن يبدأ بالعمل، والمساءات بعد أن يغادر المرسم، في مقهى على الطريق قرب حديقة ترافورد العامة، يحمل اسمًا مألوفًا بغموض «وادي حيفا». ربما لم يكن يملك ترخيصًا من أي نوع، فهو يقع في قبو مبنى شاغر بدا كما لو أنه آيلًا للسقوط في أية لحظة. طوال السَّنوات الثلاث التي أمضيتها في مانشستر، بحثت عن فربر على الأقل مرة أسبوعيًا في تلك الاستراحة الغريبة، وسرعان ما أصبحت غير عابئ مثله إزاء ألوان الطعام المريعة، المستقاة من الأطباق الإنكليزية والأفريقية التي حضّرها طاهي استراحة «وادي حيفا»، بفتور أنيق لا يضاهى، في مقام خلف النضد يشبه مطبخًا ميدانيًا. كان الطاهي يأخذ بحركة بطيئة ظاهريًا بيده اليسرى (كانت يمناه دومًا في جيب بنطاله)، بيضتان أو ثلاث بيضات من الصندوق، يكسرها في المقلاة، ويرمي القشور في سلة المهملات. قال لي فربر إن هذا الطاهي الذي يبلغ طول قامته مترين تقريبًا، كان سابقًا زعيمًا لقبيلة الماساي. يناهز عمره الآن الثمانين عامًا، لا أستطيع أن أعرف (قال فربر)، على أي طرق سريعة وفرعية ارتحل من جنوب كينيا إلى شمال إنكلترا، في سنوات ما بعد الحرب. وهناك سرعان ما تعلم مبادئ الطهو المحلي، وهجر حياة الترحال، مستقرًا في عمله الحالي. بالنسبة للنُّدُل الذين يفوق عددهم عدد الزبائن بشكل لافت، وقفوا أو جلسوا في مقهى وادي حيفا ترتسم على وجوههم ملامح تنم عن منتهى السأم، أكَّد لي فربر أنهم كانوا من دون استثناء أبناء الزعيم، ربما تجاوز أكبرهم الستين من عمره والأصغر في عمر الثانية أو الثالثة عشرة. بما أنهم

كانوا جميعهم متساوين في طول القامة ونحول القوام، وجميعهم أبدوا نفس الأنفة في ملامحهم الجميلة المتشابهة، لم يكن ممكنًا تمييزهم إلا بالكاد، لا سيما وهم يتبادلون المهمات بين الحين والآخر، وهكذا كان فريق الندل القائم على الخدمة يتغيّر باستمرار. مع ذلك، كان فربر الذي راقبهم عن كثب واستخدم الفوارق في أعمارهم للمساعدة على المطابقة، يرى أنه لم يكن هناك سوى اثني عشر نادلًا تمامًا لا أكثر ولا أقل، في حين لم أتمكن أبدًا من جانبي تصور هؤلاء الغائبين في أية لحظة. ما تجدر الإشارة إليه أيضًا أني لم أر أبدًا أي امرأة في وادي حيفا، لا من أفراد العائلة أو صاحبات الرئيس أو بناته أو من بين الزبائن، كان الزبائن بشكل أساسي من عمال شركات الهدم المشتغلين حينها في حديقة ترادفورد، وسائقي شاحنات، وعمال نظافة وآخرين صودف مرورهم في الخارج.

كانت استراحة «وادي حيفا» في كل ساعة من ساعات النهار والليل، منارة بأضواء النيون المتألقة والوامضة بشكل ساطع فلم تسمح لأقل ظل. عندما أعود بتفكيري إلى اجتماعاتنا في حديقة ترافورد، دومًا في ذلك الضوء المطَّرد رأيت فربر جالسًا في المكان نفسه أمام لوحة «الفريسكو» الجصية مجهولة الرسام التي تصور قافلة تتقدم من الأعماق القصية للصورة، عبر سلسلة تلال رملية متموّجة، مباشرة نحو الناظر. افتقر الرسام إلى المهارة اللازمة، وكان المنظور الذي اختاره معقَّدًا، بالنتيجة كان كل من الأشخاص وحيوانات الحمل منحرفين بعض الشيء، وهكذا إذا ما أغمضت عينيك نصف إغماضة بدا المشهد مثل سراب، يرتعش في الحرارة والضوء. وخاصة في الأيام التي كان فربر يعمل فيها بالفحم، فإن الهُباب المسحوق الدقيق يمنح جلده لمعة معدنية، فيبدو أنه انبثق

للتو من مشهد صحراوي أو انتمى إليه. هو شخصيًا ذكر مرة، متفحّصًا وميض الكربون الأسود على ظاهر يديه، أنه في أحلامه، سواء أحلام اليقظة أو النوم، كان بالفعل قد عبر جميع صحاري الأرض الرملية منها والحجرية. لكن بأي حال، تابع متجنّبًا إضافة أي تفسير، ذكَّره اسوداد جلده بمقالة قرأها مؤخرًا في الصحيفة عن سُمِّية الفضة، لم يكن انتشار بعض أعراضها استثنائيًا بين المصورين المحترفين. بحسب المقالة، احتوت محفوظات الجمعيات الطبية البريطانية على وصف حالة قصوى من التسمم بالفضة: في الثلاثينات كان هناك مساعد يعمل في مختبر تصوير فوتوغرافي في مانشستر تشبَّع جسده بالفضة خلال حياته المهنية لدرجة أنه أصبح نوعًا من صورة فوتوغرافية، ما كان ظاهرًا في الواقع (كما أعلمني فربر بوقار)، ازرقّ وجه الرجل ويداه في الضوء القوي أو، كما قد يقول المرء، تحمَّض.

ذات مساء صائف من العام 1966، بعد مرور تسعة أو عشرة أشهر على وصولي إلى مانشستر، كنا فربر وأنا نسير على طول رصيف قناة السفن، مرورًا بضواحي إيكلس، باتريكروفت وبارتون عند إرويل على الجانب الآخر من قناة الصَّرف الصحي، كانت الشمس الآفلة والضواحي المتناثرة مناظر مكشوفة للنظر، متيحة لمحة على المستنقعات الممتدة هناك حتى أواسط القرن التاسع عشر. قال لي فربر، إن حفر قنال السفن في مانشستر، بدأ عام 1887 وأنهي عام 1894. نفذ العمل بشكل أساسي الجيش المعزز باستمرار بعمال إيرلنديين غير مهرة، أزاحوا نحو ستين مليون متر مكعب من الأرض في تلك الفترة وبنوا البوابات الضخمة المعدة لرفع أو إنزال السفن البخارية العابرة للمحيطات حتى طول 150

مترًا وعرض خمسة أو ستة أمتار. كانت مانشستر عندئذٍ بمثابة القدس الصناعية، قال فربر، روحها الريادية ونشاطها المتصاعد كانا موضع حسد العالم، وإكمال مشروع القناة الضخم جعلها أكبر مرفأ داخلي على وجه البسيطة. سفن شركة بواخر كندا ونيوفاوندلاند، وخط الصين المشترك، وشركة مانشستر بومباي للملاحة العامة، والكثير من خطوط الملاحة الأخرى، استخدمت أرصفة الميناء قرب مركز المدينة. لم تتوقف عمليات التحميل والتنزيل أبدًا: القمح، الملح الصخري، خشب البناء، القطن، المطاط، القنّب، وقود القطارات، التبغ، الشّاي، القهوة، السُّكر، الفواكه المستوردة، النحاس والحديد، الفولاذ، الآلات، الرخام وخشب الماهاغوني -كل شيء.

في الحقيقة، ربما كان ذلك تتم معالجته أو تصنيعه في عاصمة تصنيع من ذلك النوع. وصلت حركة سفن مانشستر ذروتها في العام 1930 وبعدئذٍ مضت نحو انحدار مبرم، إلى أن وصلت إلى جمود تام في أواخر الخمسينات. بالنظر إلى الجمود والصمت القاتل الذي يحل على القناة الآن، كان من الصعب تخيّل، قال فربر عندما حدّقنا إلى الوراء نحو المدينة الغارقة في الغسق، إنه هو شخصيًا، في سنوات ما بعد الحرب، رأى سفن النقل الأكثر ضخامة على هذه المياه. تنزلق ببطء، وهي تقترب من المرفأ عابرة وسط المنازل، تظهر في الأفق عاليًا فوق الأسطح المصنوعة من الأردواز الأسود. وفي الشتاء، قال فربر، إذا ما ظهرت فجأة سفينة من قلب الضباب على غير انتظار تعبر بصمت، وتتلاشى مرة أخرى في هواء الشتاء، ثم بالنسبة لي، كان في كل مرة، مشهدًا مستغلقًا على الفهم أثّر بي بشدة.

لم أعد أتذكّر كيف بدأ فربر يروي لي النسخة المتعجلة إلى أبعد حد من قصة حياته التي رواها لي ذلك الحين، ولو أني أتذكر أنه كان كارهًا الإجابة على الأسئلة التي طرحتها عليه عن قصته وسنواته الأولى. في خريف العام 1943، في عمر الثامنة عشرة، ذهب فربر، وكان حينها طالبًا في كلية الآداب، إلى مانشستر للمرة الأولى. خلال أشهر، في بداية العام 1944، استُدعي إلى الخدمة العسكرية. كانت الملاحظة الوحيدة المتعلّقة بتلك الإقامة القصيرة في مانشستر، قال فربر، تتجلّى في أنه سكن في 104، شارع بالاتين -المنزل نفسه الذي عاش فيه لودفيغ فتغنشتاين، وكان حينها في العشرين من عمره يدرس الهندسة، وكان ذلك عام 1908. بلا شك كان أي اتصال استعادي مع فتغنشتاين وهميًا بكل معنى الكلمة، ولهذا السبب لم يكن الأمر على قدر كبير من الأهمية بالنسبة له، قال فربر. حقًّا، هو شعر أحيانًا كما لو أنه كان يشدُّ وثاقه إلى هؤلاء الذين رحلوا سابقًا، ولهذا السبب، كلما تصوَّر الشاب فتغنشتاين منكبًّا على تصميم حجرة احتراق للمحرّكات. أو كان يجرّب تطيير طائرة ورقية من تصميمه على أراضي ديربيشاير القاحلة، كان يلمس إحساس الأخوّة الذي وصل إلى سنوات طويلة قبل أن يولد، أو إلى السنوات التي سبقت ولادته مباشرة أيضًا. قال لي فربر مستكملًا رواية قصته، إنه بعد تدريب أساسي في قرية «كاتريك» في جزء نسيه الله شمال يوركشاير، تطوَّع في فوج المظليين، آملًا أنه بتلك الطريقة سيحظى برؤية موقعةٍ قبل نهاية الحرب التي كان جليًا أنها ليست ببعيدة. عوضًا عن ذلك، أصيب بمرض اليرقان، ونُقل إلى دار النقاهة في فندق البالاس في بكستون، وهكذا أُحبطت آماله. اضطر فربر لقضاء أكثر من ستة أشهر في بلدة ديربيشاير ذات المياه

المعدنية الخلّابة، يتماثل للشفاء مستنفَدًا بالغضب، كما علّق من دون تفسير. كان وقتًا عصبيًا بصورة مريعة بالنسبة إليه، فترة بالكاد يمكن احتمالها، ولم يستطع حمل نفسه على قول المزيد عنها. على كل حال، في بداية شهر أيار من العام 1945، وأوراق تسريحه في جيبه، مشى زهاء أربعين كيلومترًا إلى مانشستر ليستأنف دراساته في الفن هناك. لا يزال في وسعه أن يرى، بوضوح مطلق، هبوطه من حواف الأراضي البور بعد سيره وسط شمس الربيع ووابل أمطاره.



من جرف أخير نظر نظرة شاملة نحو المدينة الممتدة أمامه، المدينة التي سيعيش فيها على الدّوام. تحاصرها التلال من ثلاث جهات، وتنبسط هناك كما لو في قلب مدرَّج طبيعي. فوق الأرض المسطَّحة إلى الغرب، امتدت سحابة غريبة الشكل نحو الأفق، وكانت أشعة الشمس الأخيرة تتوهج عند حوافّها، ولفترة أضاءت المنظر العام برمته كما لو بضوء النار أو بمشاعل البنغال. قال فربر،

ما إن تلاشت هذه الإضاءة حتى طافت عيناه على صفوف المنازل المترابطة والمتراصّة، مصانع النسيج ومشاغل الصباغة، وصهاريج قياس الغاز، مصانع المواد الكيميائية ومعامل من كل نوع، كلما اقترب من مركز المدينة، بدا كل شيء كتلة متماسكة واحدة من سواد مطلق، مجرَّدًا من أي ملامح فارقة إضافية. قال فربر إن الأمر الأكثر تأثيرًا، بالتأكيد، هو تلك المداخن التي تسامقت فوق متاهة البيوت المسطّحة والمنبسطة، على مدّ العين والنظر. جميع هذه المداخن انهدمت أو نُسفت تقريبًا. لكن في ذلك الحين كان لا يزال هناك عدد يقدر بالآلاف منها، جنبًا إلى جنب، تقذف الدخان بقوة ليل نهار.



كان لمداخن السُّفن المربعة والدائرية الشكل، والمداخن العديدة التي تصاعد منها دخان رمادي ضارب إلى الصُّفرة، أثرٌ عليَّ إبان وصولي أعمق من أي شيء آخر سبق أن رأيته، قال فربر. لم يعد بإمكاني تحديد أية أفكار استثار مرأى مانشستر في داخلي

بالضبط حينذاك، لكني أعتقد بأني شعرت بأني عثرت على قَدَري. وأتذكر أيضًا، قال، إنَّه عندما كنت مستعدًا أخيرًا للمضي ألقيت بنظرة أخرى على الحدائق الخضراء الباهتة عميقًا نحو الأسفل، وبعد نصف ساعة من مغيب الشمس رأيت ظلًا رفرف مثل ظلٍ سحابة عبر الحقول -قطيع غزلان توجه لقضاء الليل.

واصل فربر، كما توقّعت، بقيت في مانشستر حتى يومنا هذا. مرَّ الآن اثنان وعشرون عامًا على وصولي، ومع كل سنة تمر يبدو تغيير المكان أقل معقولية. تملكتني مانشستر إلى الأبد. لا يمكنني المغادرة، لا أريد أن أغادر، ليس عليَّ أن أغادر. حتى الزيارات التي عليَّ القيام بها إلى لندن مرة أو مرتين في السنة تضيق عليَّ وتزعجني. الانتظار في المحطات، الإعلانات تخاطب الجمهور، الجلوس في القطار، عبور الريف الذي لا أزال أجهله، هيئات المسافرين، كل هذا يعذبني. لهذا السبب نادرًا ما ذهبت إلى أي مكان في حياتي، إلا مانشستر بالتأكيد، وحتى هنا، غالبًا لا أغادر المنزل أو الورشة لأسابيع متواصلة. منذ أيام شبابي، سافرت منذ سنتين مرة واحدة فقط إلى الخارج عندما ذهبت إلى كولمار في الصيف، ومن كولمار عبر بيسل إلى بحيرة جنيف. لطالما أردت طويلًا رؤية لوحات مذبح أيزنهايم لغرونيفالد التي كانت في عقلي وأنا أعمل في كثير من الأحيان، ولا سيما لوحة «قبر المسيح»، لكني لم أتمكن أبدًا من قهر خشيتي من السفر. لذا حالما قمت بالمجازفة كنت مذهولًا تمامًا، إذ اكتشفت مدى سهولة الأمر. التفتّ إلى الوراءِ من المُعديَّة عند المنحدرات البيضاء في دوڤر، تخيّلت كذلك بأن عليَّ أن أتحرّر من تلك اللحظة، وسار القطار عبر فرنسا التي كنت خائفًا منها بشكل خاص، أيضًا جرت الأمور على

خير ما يرام. كان يومًا ممتازًا، كانت لديّ مقصورة كاملة، العربة كلها لي بالفعل، اندفع الهواء من النافذة، وشعرت بمزاج احتفالي جيد ينمو في داخلي. وصلت إلى كولمار نحو الساعة العاشرة أو الحادية عشرة مساء، حيث أمضيت ليلة جيدة في فندق محطة بريستول في ساحة محطة القطار «Place de la Gare » وفي صباح اليوم التالي ذهبت من دون إبطاء إلى المتحف لأشاهد لوحات غرونيفالد. لطالما شعرت بتناغم مع الرؤيا المتطرفة لذلك الرجل الغريب، الكامنة في كل تفصيل، مشوِّهة كل طرف، مفسدة الألوان مثل مرض، والآن وجدت شعوري مؤكدًا باللقاء المباشر. امتدت بشاعة تلك المعاناة المنبثقة من الهيئات المصوَّرة، لتغطي الطبيعة كاملةً، لتفيض عائدة من المشهد الشاحب إلى البشر الموسومين بالموت، علت وانحسرت في داخلي مثل مَدٍّ وجَزْر. عندما نظرت إلى تلك الأجساد الجريحة، وإلى شاهد الإعدام، المحني بالتفجّع مثل قصب منهوش، فهمت تدريجًا أنه بعد حدٍ معين، يمحو الألم الأمر الوحيد الأساسي لمعاناته أي الشعور، وقد يخمد نفسه، لا نعلم عن هذا إلا النزر اليسير. ما هو مؤكد، مع ذلك، هو أن المعاناة العقلية، في الواقع، لا حدَّ لها. قد يظن المرء أنه بلغ المنتهى، لكن هناك دومًا المزيد من العذابات القادمة. يندفع المرء من هاوية إلى أخرى. قال فربر، كل هذا لاحظته بتفصيل دقيق عندما كنت في كولمار، كيف أفضى أمر إلى آخر وكيف كان في ما بعد. بدأ دفق الذكريات، القليل الذي بقي لي منها الآن، مع تذكري صباح يوم جمعة منذ بضع سنوات عندما باغتتني فجأة نوبة ألم أحدثها انزلاق غضروفي، ألم من نوع لم يسبق لي أن خبرته. ببساطة كنت قد انحنيت نحو القطّة، وأنا أرفع جذعي تمزقت الأنسجة وضغطت

النواة اللبية على الأعصاب. على الأقل هذا ما قاله الطبيب لاحقًا. كان كل ما عرفته في تلك اللحظة، أنه ليس عليَّ أن آتي بأيّ حركة، وأن حياتي برمتها اختُزلت إلى تلك النقطة الصغيرة من الألم المطلق، وأنه حتى التنفس جعل كل شيء يسوَدّ. إلى المساء كنت متجمّدًا في مكان واحد في وضعية شبه منتصبة. لم أعد أتذكر كيف نجحت بعد حلول الظلام في اجتياز الخطوات القليلة التي تفصلني عن الجدار، وكيف سحبت غطاء الترتان الذي كان معلقًا على ظهر الكرسي إلى كتفي. كل ما أتذكره الآن هو أني وقفت إلى ذلك الجدار طوال الليل وجبهتي أمام الجصّ المتعفّن الرطب الذي ازداد برودة، وأن الدموع سالت على وجهي، وأني بدأت أتمتم بالهراء، وأني خلال هذا كله شعرت بأن كوني مشلولًا بالألم كليًا على هذا النحو مرتبط بالتكوين الداخلي الذي اكتسبته على مرّ السنين بأكثر دقّة يمكن تصورها.



أتذكر أيضًا أن وضعية الوقوف الملتوية التي أُجبرت عليها

ذكّرتني، حتى في ألمي، بصورة التقطها لي والدي عندما كنت في الصف الثّاني من المدرسة منكبًا على الكتابة. بأيّ حال، في كولمار، قال فربر بعد توقف طويل، بدأت أتذكر، وربما كانت تلك التذكرات ما حفزني للذهاب إلى بحيرة جنيف بعد ثمانية أيام، لأستعيد في ذهني ذكرى أخرى قديمة دفنت طويلًا ولم أجرؤ يومًا على تكديرها. بدأ فربر بعد صمت قائلًا، كان والدي تاجر لوحات فنية، وفي أشهر الصيف عرض بانتظام ما سماها معارض خاصة في أروقة الفنادق الشهيرة. صحبني العام 1936 إلى أحد هذه المعارض في فندق «فيكتوريا يونغفراو» في إنترلاكن، ثم إلى فندق «البالاس» في مونترو. تكونت معارض والدي عادة من نحو خمس دزينات من اللوحات الفنية من النسق الهولندي، في إطارات ذهبية، أو مشاهد متوسطية على أسلوب الرسام موريللو، ومناظر طبيعية ألمانية مهجورة - أتذكر من بينها لوحة صورت مرجًا مظلمًا مع شجرتَيْ عرعر، متباعدتين في الوهج الأحمر القاني للشمس الآفلة. أيضًا ساعدت والدي قدر استطاعتي في عمر الثانية عشرة، بتعليق وعنونة وإرسال هذه القطع المعروضة التي وصفها على أنها سلع فنية. على سبيل المكافأة لجهودي صحبني والدي الذي أحبَّ جبال الألب بشغف، إلى فالق «يونغفراو يوخ» عبر سكة حديد جبلية، ومن هناك أراني أكبر كتلة جليدية في أوروبّا تلتمع بالثلج الأبيض منتصف فصل الصيف. انطلقنا من مونترو في اليوم التالي لإغلاق معرض فندق البالاس، مستقلين سيارة مستأجرة مسافة قصيرة على طريق وادي الرون، وسريعًا انعطفنا يمنةً على طريق ضيقة ومتعرجة إلى قرية أدهشتني غرابة اسمها الواضحة: مييكس. من مييكس كان مسير ثلاث ساعات مرورًا ببحيرة تاناي، إلى قمة

غرامونت. تمدّدت طوال ظهيرة ذلك اليوم من شهر آب بسمائه الصافية قرب والدي على قمة الجبل، أحدِّق إلى أسفل نحو أزرق البحيرة الداكن، إلى الريف في الجهة المقابلة للبحيرة نحو الصورة الظلّية الشاحبة لسلسلة جبال جورا، إلى البلدات البهية على الضفة البعيدة، وعند سان غينغولف الواقعة تحتنا مباشرة لكن مرئية بالكاد في قبضة الظل ربما على عمق 1500 متر. أثناء رحلتي عبر سويسرا على متن القطار، وكانت صدقًا رحلة جميلة بشكل مذهل، كنت بالفعل أتذكّر هذه المشاهد والصور التي مضى عليها ثلاثون عامًا، قال فربر، لكنها كانت أيضًا مهدِّدة على نحو غريب، كما رأيت بوضوح متنامٍ فترة إقامتي في فندق البالاس، لذا أقفلت في النهاية باب غرفتي، سحبت الستائر وتمدّدت على السرير لساعات متواصلة، وهذا فاقم قلقي الأوّلي ليس إلّا. بعد نحو أسبوع تبادر إلى ذهني بطريقةٍ ما أنه ليس سوى الواقع في الخارج يمكنه إنقاذي. لكن بدلًا من التجول في أرجاء مونترو، أو الذهاب إلى لوزان، انطلقت لتسلق جبل غرامونت مرة ثانية، بغضّ النظر عن حالتي التي كانت في تلك الأثناء ضعيفة تمامًا. كان النهار مشرقًا كما كان في المرة الأولى، وعندما وصلت القمة، منهكًا تمامًا، كان الريف هناك تحتي حول بحيرة جنيف مرة ثانية، يبدو على حاله تمامًا، وما من أثر لحركة سوى مركب أو مركبين صغيرين خلّفا أثرهما الأبيض في الماء الأزرق العميق وهما يسيران ببطء لا يُصَدَّق، والقطارات التي غدت وآبت بين حين وآخر على الضفة البعيدة. قال فربر، مارَسَ ذلك العالم، القريب وبعيد المنال في آن، جاذبية قوية جدًا عليه حتى إنه كان يخشى من أن يقفز نحوه، وربما لكان فعل حقًّا لولا أن رجلًا يناهز عمره الستين ظهر أمامه فجأة - مثل شخص انبلج

على حين غرَّة من الأرض الدامية. كان يحمل شبكة كبيرة بيضاء لصيد الفراشات وقال بصوت إنكليزي لبقٍ لكن يتعذّر تصنيفه، بأن الوقت قد حان للتفكير بالنزول إذا أراد المرء أن يصل مونترو على العشاء. لم يتذكّر أنه نزل بصحبة رجل الفراشات، مع ذلك، قال فربر، في الواقع اختفى الهبوط كليًا من ذاكرته، كذلك أيامه الأخيرة في فندق البالاس ورحلة العودة إلى إنكلترا. لماذا بالضبط سرت بداخله بحيرة الذهول هذه، وإلى أي حد انتشرت، بقي لغزًا بالنسبة له مهما أمعن التفكير في الأمر. إذا ما حاول أن يستذكر الفترة التي نحن بصددها، لم يرَ نفسه ثانية إلا عائدًا إلى المرسم، يعمل على لوحة استغرقه العمل عليها سنة كاملة تقريبًا، مع انقطاعات ثانوية -صورة مجهول الهوية «رجل يحمل شبكة لصيد الفراشات». هذه اعتبرها واحدة من أكثر أعماله غير المرضية، لأنها في رأيه لم تنقل ولو أثرًا طفيفًا من غرابة الشبح الذي تشير إليه. استغرقه العمل على لوحة رجل الفراشات وقتًا أطول من أي لوحة سابقة، لأنه عندما بدأ العمل عليها، بعد دراسات تمهيدية لا تُعَد ولا تحصى، لم يكتفِ بتغطية سطحها مرارًا. لكن أيضًا، كلما كان قماش اللوحة يتهالك بسبب الكشط المستمر وإعادة صبغها بالألوان، خرّبها وأحرقها عدة مرات. اليأس الذي عذبه سلفًا بما فيه الكفاية تمامًا خلال ساعات النهار جراء افتقاره للبراعة، اجتاح الآن لياليه السَّاهدة بازدياد، وهكذا سرعان ما راح يبكي من شدة الإنهاك وهو يعمل. في النهاية لم يكن أمامه بد من تناول المسكنات شديدة الفعالية التي بدورها تسببت له بهلوسات مروِّعة للغاية، لا تختلف عن تلك التي عاناها القديس أنطوان في لوحة الغواية من تحفة «مذبح أيزنهايم». وهكذا، على سبيل المثال، رأى مرة قطته تقفز عموديًا في الهواء

وتتشقلب، ثم تمدّدت متصلّبة حيث وقعت. تذكر بوضوح أنه وضع القطة الميتة في صندوق حذاء ودفنها تحت شجرة اللوز في الباحة. مع ذلك، بنفس هذا الوضوح، كانت القطة عند طبقها صباح اليوم التالي، تنظر إليه كما لو أن شيئًا لم يكن. قال فربر مستخلصًا، ومرة حَلُم (لم يتمكن من تحديد ما إذا رأى الحلم ليلًا أم نهارًا) إنه في العام 1887 افتتح المعرض الفني الكبير في بناء مشيّد لهذا الغرض في حديقة ترافورد هو والملكة فيكتوريا. كان آلاف الناس حاضرين عندما مشى، يدًا بيد، مع الملكة البدينة التي انبعثت منها رائحة كريهة، عبر الردهات اللانهائية التي ضمت 16000 عمل فنّي مؤطّر بإطارات ذهبية.



قال فربر، إنَّ الأعمال الفنية من دون استثناء تقريبًا، كانت لوحات من ممتلكات والده. بأي حال، كان من بينها واحدة أو

اثنتان من لوحاتي، ولو أن ما أرعبني أنهما لم تختلفا على الإطلاق، أو على نحو ضئيل فقط، عن باقي لوحات المعرض. أخيرًا، واصل فربر، عبرنا من باب مطلي بتقنية ترومبلوي في الخداع البصري (منفَّذة بمهارة مدهشة، كما أشارت لي الملكة) نحو رواق مكسو بطبقات من الغبار، في أعظم تضاد ممكن مع القصر الكريستالي المتلألئ، حيث يتضح أن أحدًا لم يطأه بقدم لسنوات، وبعد بعض التردد تعرفت فيه على غرفة رسم والديّ. كان رجلٌ غريبٌ جالسًا على المتكأ مائلًا بعض الشيء. يمسك في حضنه بمصغَّر لهيكل سليمان، مصنوع من خشب الصنوبر وعجينة الورق وطلاء ذهبي. فرومان، من دروبيتش، قال منحنيًا قليلًا، وراح يشرح أن بناء الهيكل استغرقه سبع سنوات، مستعينًا بوصف الكتاب المقدس له، وإنه كان الآن مسافرًا من غيتو إلى غيتو ليعرضه. قال فرومان، انظر فقط: يمكنك أن ترى كل شرفة حصن على الأبراج، كل ستار، كل عتبة، كل إناء مقدَّس. قال فربر، وانحنيت على الهيكل الصغير، وأدركت للمرة الأولى في حياتي كيف يكون العمل الفني الحقيقي. أكملت بحثي بعد إقامتي في مانشستر لمدة تناهز ثلاث سنوات، ثم غادرت المدينة في صيف العام 1969 لأتبع خطة كنت قد وضعتها منذ وقت طويل للعمل في مجال التدريس في سويسرا.

لدى عودتي من مدينة مسوَّدة بالسُّخام كانت تنجرف نحو الدمار بثبات، تأثرت بشدة بجمال وتنوع الريف السويسري الذي كان حينئذٍ قد تلاشى من ذاكرتي تقريبًا، ومنظر الجبال الثلجية في البعيد، الغابات الممتدة عاليًا، ضوء الخريف، الجداول المتجمدة والحقول، وأشجار الفاكهة المزهرة في المروج، مسَّت قلبي بقوة أكبر مما كنت أتوقع، لكن مع ذلك، لأسباب متعددة تتعلّق من

ناحية بموقف المواطن السويسري تجاه الحياة ومن ناحية أخرى تتعلّق بموقفي كمدرِّس، لم أُعنَ البقاء في سويسرا طويلًا. بعد سنة واحدة قررت العودة إلى إنكلترا وقبول عرض وظيفة وجدته جذابًا لاعتبارات عدة، في نورفولك التي كانت تعتبر آنئذٍ مكانًا منعزلًا. إذا كنت في الشهور التي أمضيتها في سويسرا ما زلت أفكر بين الحين والآخر بفربر ومانشستر، فذكرياتي عن الفترة التالية في إنكلترا بهتت بثبات واستمرت حتى الوقت الحاضر، كما ألاحظ أحيانًا بدهشة. بالتأكيد خطر فربر في بالي عدة مرات على مر السنوات الطويلة، لكني أبدًا لم أنجح في تصوّره على نحو دقيق. أصبح وجهه مجرد ظل. ظننت أن فربر غرق في عمله، لكن تفاديت القيام بأيّ تحريات عن كثب. ما إن حلَّت أواخر شهر تشرين الثاني من العام 1989، عندما التقيت بمصادفة بهيجة لوحة تحمل توقيعه في معرض متحف تيت (كنت ذهبت لأرى لوحة «فينوس النائمة» لديلفو)، حتى انبعث فربر حيًا من جديد في عقلي. اللوحة التي تقيس مترًا ونصف المتر بمترين تقريبًا، تحمل عنوانًا لفتني لكونه مهمًا ومستبعَدًا: «غ. إ. على مفرشها القطني الأزرق». لم يمضِ وقت طويل حتى صادفت فربر في ملحق صحيفة يوم الأحد الملوَّن، ثانية بمحض الصدفة تمامًا، طالما أني تفاديت طويلًا قراءة صحف يوم الأحد ولا سيما الملاحق المرفقة بها. بحسب المقالة، يثمَّن عمله الآن بأعلى الأسعار في سوق الفن، لكن فربر نفسه، متجاهلًا هذا التطور، لا يزال يعيش كما عاش دومًا، ويواصل العمل عند مسند اللوحة عشر ساعات في اليوم في مرسمه قرب أرصفة ميناء مانشستر. حملت المجلة معي لأسابيع،

ألقي مرارًا بنظرة على المقالة التي شعرت بأنها فتحت في داخلي نوعًا من سجن أو زنزانة. تفحَّصت عينَيْ فربر الداكنتين، تنظران جانبيًا في صورة مصحوبة بالنص، وحاولت على الأقل بإدراك متأخر، أن أفهم أيّ احتراس أو روادع كانت لديه جعلته يتكتّم على أصوله في محادثاتنا، بالرغم من أنَّ مثل هذا الحديث، كما أدركت الآن، كان ليكون الأمر البديهي. في عمر الخمسين، في شهر أيار من العام 1939، غادر فردريش ماكسيميليان فربر ميونيخ، بحسب رواية الملحق الموجزة، حيث كان يعمل والده في تجارة اللوحات الفنية، إلى إنكلترا. ومضت المقالة في القول إن والديّ فربر اللذين أخّرا رحيلهما من ألمانيا لعدة أسباب، أُخذا من ميونيخ إلى ريغا في تشرين الثاني من العام 1941، في واحد من أوائل قطارات الترحيل، وقُتلا هناك في ما بعد. كما أستذكر الآن، بدا إهمالي أو تلكؤي، في تلك الأوقات في مانشستر، عن سؤال فربر أسئلة لا بد أنه انتظرها مني، لا يُغتفران، وهكذا للمرة الأولى بعد وقت طويل، ذهبت إلى مانشستر مرة ثانية، رحلة استمرت ست ساعات في القطار عبر الريف، وغابات الصنوبر والأراضي البور قرب ثيتفورد، والوهاد الفسيحة حول جزيرة «إلي» السوداء شتاء، مرورًا ببلدات ومدن كل واحدة منها لا تقل قبحًا عن جارتها - مارش، بيتربورو، لوغبورو، نوتينغام، الفريتون، شيفيلد- وبمحاذاة مصانع مهجورة، وركام الخبَث، وأبراج التبريد المرتفعة، وتلال ليس فيها إنسي، ومراعي الأغنام، وجدران حجرية، وخلال هطولات ثلجية ومطرية وألوان السماء المتغيرة أبدًا. وصلت مانشستر مع بداية الأصيل، وفي الحال توجهت غربًا عبر المدينة، باتجاه أرصفة الميناء.



تفاجأت إذ وجدت طريقي بسهولة، بما أن كل شيء في مانشستر ظلَّ بشكل أساسي على حاله كما كان منذ ربع قرن تقريبًا. في ذلك الوقت كانت المباني المشيدة لدرء التدهور العام في قبضة التحلل، وحتى ما يسمى مناطق التنمية التي كان الكثير منها قيد التحضير، المحدثة في السنوات الأخيرة على حواف مركز المدينة وعلى طول قناة السفن، لإحياء روح المبادرة، بدت الآن شبه مهجورة. الأرض البور والسُّحب البيضاء المنجرفة من البحر الإيرلندي انعكست في واجهات الزجاج المتلألئة للمباني المكتبية، كان البعض منها فقط شبه آهل، وبعضها لا يزال قيد الإنشاء. عندما وصلت إلى الأرصفة سرعان ما وجدت مرسم فربر. كانت الباحة المعبَّدة بالحصى على حالها، وشجرة اللوز على وشك أن تزهر، وعندما عبرت العتبة شعرت كما لو أنني لم أغادر المكان سوى يوم أمس. كان الضوء الباهت نفسه يدخل عبر النافذة، والمسند لا يزال منصوبًا وسط الغرفة على الأرض المكسوة بقشرة سوداء، عليه رقعة سوداء، مكدودة إلى درجة لم يكن ممكنًا التعرف عليها. عرفت من الصورة

المقصوصة التي تم وضعها على مسند ثانٍ للرسم، أن لوحة لكوربيه هي التي أدت دور الموديل لفربر في هذا التمرين على التخريب، لوحة لطالما كنت مولعًا بها بشكل خاص «شجرة بلوط فيرسانغيتوريكس» لكن فربر نفسه الذي لم ألاحظه أولًا وأنا أدخل من الخارج، كان جالسًا في مؤخرة كرسيه المخملي الأحمر، كوب الشاي في يده، ويراقب زائره بطرف عينه.



كنت في هذا الوقت على مشارف الخمسين من عمري، كما كان هو عندئذٍ، بينما كان فربر نفسه في السبعين تقريبًا. قال مرحّبًا بي: ألسنا جميعًا نتقدم في السن! بابتسامة عابرة. وحينها لم يبدُ لي بأنه تقدم في السنّ ولو قليلًا، نظر نحو نسخة من لوحة لرامبرانت تُصوّر رجلًا يحمل مجهرًا، لا تزال معلقة في المكان نفسه على الجدار كما كانت منذ خمسة وعشرين عامًا، وأضاف: هو فقط يبدو أنه لا يكبر.

وبعد لمّ الشمل المتأخّر هذا الذي لم يكن يتوقعه أي منا، تحدثنا طوال ثلاثة أيام حتى وقت متأخر من الليل، وأشياء كثيرة أخرى قيلت لن أتمكن من تدوينها هنا: عن منفانا في إنكلترا، وعن مانشستر مدينة المهاجرين وانحدارها الذي لا رجعة عنه، وعن مقهى وادي حيفا (الذي لم يعد موجودًا منذ زمن طويل)، وعازفة آلة «الفلوغلهورن» النحاسية غريسي إيرلام، وعن السنة التي أمضيتها في سويسرا في التدريس، ومحاولتي التالية، المحبَطة أيضًا، للبقاء في ميونيخ، في المعهد الثقافي الألماني. علق فربر أنه، في ما يتعلق بالزمن فقط، كنت الآن بعيدًا عن ألمانيا كما كان هو العام 1966، وتابع، لكن الزمن طريقة غير موثوقة لقياس هذه الأمور، حقًّا إنه ليس سوى قلق الروح. لا يوجد لا ماض ولا مستقبل. بالنسبة لي على الأقل. المشاهد المتشظية التي سكنت ذكرياتي وسْواسية الطابع. عندما أفكر بألمانيا يبدو كما لو أن هناك نوعًا من الجنون سكن رأسي. ربما السبب الذي منعني من العودة إلى ألمانيا ثانية هو خشيتي من اكتشاف وجود هذا الجنون حقًّا. كما ترى، ألمانيا بالنسبة لي بلد متجمّد في الماضي، مدمَّر، مكان خارج الأرض بصورة غريبة، يسكنه أناس وجوههم جميلة وبغيضة في آن. يرتدون جميعهم ثيابًا على طراز الثلاثينات، أو أقدم أيضًا، ويعتمرون أغطية للرأس لا تتماشى مع ملابسهم على الإطلاق -خوذات الطيارين، قلنسوات مستدقّة الطرف، قبعات، غطاء للأذنين، عصابات متصالبة للرأس، وقبعات صوفية يدوية الصنع. تزورني كل يوم تقريبًا امرأة جميلة ترتدي فستانًا للرقص مصنوعًا من حرير الباراشوت رمادي اللون وقبعة ذات حافة عريضة مزينة بزهور رمادية. ما إن أجلس في كرسيَّ، مرهقًا من العمل، حتى

أسمع خطواتها في الخارج على الرصيف. تندفع من البوابة مارّة بشجرة اللوز، وها هي، على عتبة ورشتي. تندفع نحوي بسرعة، مثل طبيبة خائفة من أن تكون قد تأخّرت عن إنقاذ مريض يحتضر. تخلع قبعتها وينسدل شعرها على كتفيها، تخلع قفازي المبارزة وترمي بهما على الطاولة الصغيرة، وتنحني نحوي. أغلق عيني مغشيًا عليّ -ولا أعرف ما الذي يجري بعد ذلك. ما هو مؤكد: لم نقل كلمة البتة. المشهد صامت دومًا. أظن أن السيدة الرمادية لا تفهم إلا لغتها الأم، الألمانية التي لم أتكلّم بها منذ افترقت عن والديّ في مطار أوبرفيسنفيلد في ميونيخ العام 1939، والتي لم يبقَ منها لدي سوى صدى، همهمة خرساء وغير مفهومة. ربما يكون لهذا النسيان علاقة بفقد اللغة. تابع فربر، إن ذكرياتي لا تعود إلى زمن أبعد من سنتي التاسعة أو الثامنة، وأتذكر القليل من سنوات ميونيخ بعد العام 1933 ما عدا المواكب، والمسيرات، والاستعراضات. يبدو أنها كانت تقام دومًا في مناسبات: عيد العمال أو عيد القربان، عيد المرفع أو الذكرى العاشرة للانقلاب، تجمهر المزارعين السنوي أو افتتاح متحف الفنون «هاوز در كونست». كانوا دومًا يحملون إما القلب الأقدس عبر مركز المدينة، أو ما سموه راية الدم. وضعوا في إحدى المناسبات، قال فربر، قواعد على شكل شبه منحرف مكسوة بقماش كستنائي اللون على جانبي شارع لودفيغ من فلدهرنال إلى قلب شوابينغ وعلى كل واحدة من القواعد كانت تتوقّد شعلة في طبق حديدي قليل العمق. في هذه التجمهرات الدائمة والاستعراضات، ازداد عدد الأزياء الرسمية المختلفة والشّارات على نحو لافت. كان كما لو أن أجناسًا جديدة من البشر، واحدًا تلو الآخر، تنطلق أمام أعيننا. كنت مملوءًا بالدهشة والغضب، بالتوق والاشمئزاز

على حدٍّ سواء، كنت في طفولتي، وبعدها في سن المراهقة، أقف صامتًا وسط الهتاف أو الحشود الممتلئة رعبًا، خجِلًا من عدم انتمائي. في البيت، لم يتحدث والداي يومًا عن النظام الجديد في حضوري، أو فعلا بشكل عابر فقط. حاولنا جميعنا، كل على حدة، أن نلتزم بمظهر الحلة العادية، حتى بعد أن اضطر والدي لتسليم إدارة معرضه الذي لم يكن قد مضى على افتتاحه سوى سنة مقابل متحف الفن، إلى شريك آري. كنت لا أزال أؤدي فروضي المنزلية تحت إشراف والدتي، وكنا لا نزال نذهب إلى شليرزي للتزلج في الشتاء، وإلى اوبيرستورف أو والسيرتال لقضاء عطلاتنا الصيفية، وببساطة لم نقل شيئًا عن هذه الأمور التي لم نستطع التحدّث عنها. وبالتالي، على سبيل المثال، تكتَّم جميع أفراد عائلتي وأقاربنا غالبًا حول أسباب انتحار جدتي ليلي لانزبيرغ. بطريقة ما بدوا جميعًا متفقين أنها نحو النهاية لم تعد تمامًا في كامل قواها العقلية. كان خالي ليو، شقيق والدتي التوأم الذي ذهبنا معه من بادكيسنغن إلى ويرزبورغ بعد الجنازة، في نهاية شهر تموز عام 1936، الوحيد الذي سمعته يتحدّث أحيانًا بصراحة عن الوضع، لكن هذا كان يُقابَل عمومًا بعدم الاستحسان. قال فربر، أتذكر الآن إن الخال ليو، الذي درَّس اللاتينية واليونانية في مدرسة ابتدائية في ويرزبورغ إلى أن طُرد، عرض على والدي مرة قصاصة من صحيفة مؤرخة في العام 1933 مع صورة إحراق الكتب في ساحة ريزيدينبلاتز في فورتسبورغ. قال الخال، كانت تلك الصورة الفوتوغرافية تزييفًا. حدث إحراق الكتب في مساء العاشر من شهر أيار، قال –وكرر ذلك عدة مرات –أُحرقت الكتب مساء العاشر من أيار، لكن طالما أن هذا حدث بعد حلول الظلمة، ولم يتمكّنوا من التقاط أي صور

مقبولة، ببساطة أخذوا صورة من تجمع آخر خارج القصر، ادّعى الخال، وأضافوا شريطًا من الدخان وسماء ليل قاتمة. بمعنى آخر، كانت الوثيقة الفوتوغرافية المنشورة في الصحيفة زائفة. وتمامًا كما كانت تلك الوثيقة زائفة، قال الخال، كما لو أن اكتشافه كان الدليل الأساسي الوحيد، هكذا أيضًا كان كل شيء آخر زائفًا، منذ البداية. لكن والدي هزَّ رأسه من دون أن ينبس بكلمة، إما لأنه كان مرعوّبا أو لأنه لم يتمكن من تقبُّل تعميم الخال ليو.



في البداية، أنا أيضًا وجدت قصة فورتسبورغ التي قال فربر إنه كان يتذكّرها للمرة الأولى حينها، بطريقة ما مستبعدة، لكن في هذه الأثناء تتبعت الصورة التي نحن بصددها في أرشيف فورتسبورغ، وكما يمكن للمرء أن يرى بسهولة، لا ريب حقًا أن شكوك خال فربر كانت مبررة. قال فربر متابعًا روايته عن زيارته فورتسبورغ في صيف العام 1936، إنه ذات يوم عندما كانا يتجولان في حدائق القصر أخبره الخال ليو بأنه كان مرغَمًا على التقاعد في السنة

السابقة في 31 من شهر كانون الأول، وأنه بالنتيجة كان يستعد للرحيل عن ألمانيا، ويخطط للذهاب إلى إنكلترا أو أميركا قريبًا. في ما بعد كنا في القاعة الكبيرة للقصر، ووقفت بجانب الخال أمدّ عنقي نحو لوحة الفريسكو السقفية البهية لتيَبولو فوق بيت الدّرج التي لم تكن تعني لي شيئًا في ذلك الحين، تحت سماوات شاهقة، تجمَّعت عليها المخلوقات والبشر من ممالك العالم الأربعة في نسق ساحر. قال فربر، ما يدعو للاستغراب، إني لم أفكر بذلك الأصِيل في فورتسبورغ مع الخال ليو إلا منذ بضعة أشهر، بينما كنت أقلِّب صفحات كتاب جديد عن تيَبولو. لوقت طويل لم أتمكن من انتزاع نفسي بعيدًا عن صورة لوحة فريسكو فورتسبورغ العظيمة، جميلاتها ببشرتهن الفاتحة والداكنة، البربري الراكع مع المظلة والأمازونية العظيمة مع خمار الرأس المكسو بالريش. جلست طوال المساء، قال فربر، أنظر إلى تلك الصور بعدسة مكبرة، أحاول أن أمعن التحديق فيها أكثر. وعاد إليَّ شيئًا فشيئًا ذلك اليوم الصيفي في فورتسبورغ، والعودة إلى ميونيخ، حيث أكثر فأكثر، لم يعد ممكنًا احتمال الحالة العامة وجوّ البيت، وكان الصَّمت يزداد كثافة. كان والدي، قال فربر، كوميديًّا بالفطرة أو ممثّلًا نوعًا ما. استمتع بالحياة، أو بالأحرى كان يودّ الاستمتاع بها، كان يحب الذَّهاب إلى مسرح غارتنر بلاتز، وإلى بارات النبيذ، والمنوّعات المسرحية، لكن بسبب الظروف، السجايا الكئيبة التي كانت أيضًا في شخصيته غطّت طبيعته المرحة أساسًا نحو نهاية الثلاثينات. بدأ يبدي شرود الذهن وحدة طباع لم أرها فيه من قبل، أحالها ووالدتي إلى عصبية مزاج عابرة سوف تحكم سلوكه لأيام في كل مرة. ذهب إلى السينما غالبًا لمشاهدة أفلام «الكاوبوي» وأفلام للويس ترينكر عن تسلق

الجبال. ولم يكن هناك ولو مرة حديث عن مغادرة ألمانيا، على الأقل ليس في حضوري، ليس حتى بعد أن صادر النازيون الصور والأثاث والأشياء الثمينة من بيتنا، على أساس أننا لا نملك الحق بالتراث الألماني. كل ما أتذكره هو أن والديّ أهينا خاصة بطريقة فظة، وملأ أصحاب الرتب الدنيا جيوبهم بالسجائر والسيجار الصغير. بعد ليلة الكريستال(1)، اعتقل والدي في داخاو.



بعد ستة أسابيع عاد إلى البيت، وكان نحوله واضحًا وقد قص شعره قصيرًا. لم يقل لي كلمة واحدة عما رآه وعاناه. ولا أعرف ما

(1) في التاسع من شهر تشرين الثاني عام 1938 لقي المئات من اليهود حتفهم حين قام النازيون بشكل منظم بالاعتداء عليهم وتدمير منازلهم وإحراق معابدهم.

قال لأمي. مرة أخرى، في بداية العام 1939، ذهبنا إلى لينغريز للتزلج. كانت آخر مرة لي ولوالدي أيضًا على ما أظن. التقطت صورة له على جبل برونيك. قال فربر إنها واحدة من الصور القليلة التي بقيت من تلك السنوات. ليس بعد وقت طويل من رحلتنا إلى لينغريز، تمكّن والدي من الحصول على تأشيرة لي بدفع رشوة للقنصل الإنكليزي. كانت أمي تعوِّل على أن يتبعاني قريبًا. قالت إن والدي بات أخيرًا مصمّمًا على مغادرة البلاد. كان عليهما فقط القيام بالترتيبات الضرورية. وهكذا وضَّبت حاجياتي، وفي السابع عشر من شهر أيار، عيد ميلاد أمي الخمسين، أوصلني والداي إلى المطار. كان صباحًا مشرقًا جميلًا، وقدنا من منزلنا في شارع شتيرنفارت في بوغنهاوزن عبر نهر ايزار، عبر الحديقة الإنكليزية على طول شارع تيفولي، عبر نهر آيزباخ الذي لا زلت أراه بوضوح كما رأيته حينها، إلى شوابينغ ثم خارج المدينة على طول شارع ليوبولد نحو أوبيرفينزفيلد. بدا لي أن الطريق لن ينتهي، قال فربر، ربما لأن أحدنا لم يقل كلمة. عندما سألته إذا تذكّر وداعه لوالديه في المطار، أجاب فربر، بعد تردّد طويل، أنه عندما فكر في صباح أيار ذاك في أوبيرفينزفيلد لم يتمكّن من رؤية والديه. لم يعد يعرف ما كان آخر ما قالته له والدته أو والده أو ما قاله هو لهما، أو ما إذا عانق والديه أم لا. لا يزال في وسعه رؤية والديه جالسَيْن في المقعد الخلفي للسيارة المستأجرة على الطريق إلى أوبيرفينزفيلد، لكنه لم يتمكن من رؤيتهما في المطار. ومع ذلك استطاع أن يتصور أوبيرفينزفيلد بأدق تفصيل، وكل هذه السنوات كان قادرًا على تصوّرها بتلك الدقة المخيفة، مرارًا وتكرارًا. الشريط الإسمنتي اللامع أمام مرأب الطائرات المفتوح والعتمة الشديدة في داخله، الصليب المعقوف على دفتي الطائرة، المنطقة المسيجة

حيث كان عليه أن ينتظر مع المسافرين الآخرين، نبات حناء الأسيجة حول السور، عامل الحدائق يدفع عربة تجر باليد ورفشًا وفرشاة، صناديق محطة الأرصاد الجوية التي ذكرته بالمناحل، المدفع عند محيط المهبط -رأى كل شيء بوضوح مؤلم، ورأى نفسه يعبر المسافة القصيرة على العشب نحو طائرة لوفتهانزا البيضاء جونكرز 52، التي حملت اسم كورت وستهوف ورقم د- 3051. أرى نفسي أصعد السلَّم الخشبي ذا العجلات، قال فربر، وأجلس في الطائرة بجانب امرأة ترتدي قبعة زرقاء تيرولية، وأرى نفسي أنظر من النافذة المربعة الصغيرة ونحن نعدو عبر المهبط المهجور الأخضر الكبير، عند قطيع من الأغنام بعيد وهيئة صغيرة لراعٍ. ثم أرى ميونيخ ببطء تميل تحتي.

أوصلتني الرحلة في طائرة جونكرز 52 فقط إلى فرانكفورت، قال فربر، حيث كان عليَّ أن أنتظر عدة ساعات وأخضع للتفتيش الجمركي. هناك، في مطار فرانكفورت الرئيس، وضعت حقيبتي المفتوحة على طاولة مبقَّعة بالحبر بينما حدَّق موظف الجمارك، من دون أن يمسَّ شيئًا، فيها طويلًا جدًا، كما لو أن الملابس التي طوتها أمي ووضبتها بطريقتها المميزة المرتبة للغاية، القمصان المكوية بأناقة أو قميصي الصوفي النرويجي الخاص بالتزلج، ربما امتلكت أهمية غامضة. لم أعد أعرف ما الذي فكرت فيه أنا شخصيًا وأنا أنظر إلى حقيبتي المفتوحة، لكن الآن، عندما أفكر، يبدو كما لو أنه لم يكن عليَّ أن أفتحها أبدًا، قال فربر، مغطيًا وجهه بيديه. تابع قائلًا، كانت طائرة شركة BEA التي طرت على متنها إلى لندن نحو الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم لوكهيد إلكترا. كانت رحلة ممتازة. رأيت بلجيكا من الهواء، الآردنز، بروكسل، طرق الفلاندرز

المستقيمة، الكثب الرملية لأوستند، السَّاحل، المنحدرات البيضاء في دوفر، الأسيجة الخضراء والتلال جنوب لندن، ثم، ظهرت في الأفق مثل سلسلة من التلال الرمادية المنخفضة، العاصمة الجزيرة نفسها. هبطنا عند الساعة الخامسة والنصف في مطار هندون. لاقاني الخال ليو. قدنا نحو المدينة، مرورًا بصفوف لا نهائية من المنازل الريفية يتعذّر تمييزها عن بعضها البعض حتى إني وجدتها محزنة، وفي الوقت نفسه سخيفة على نحو غامض. كان الخال يعيش في فندق صغير للمهاجرين في منطقة بلومزبيري، قرب المتحف البريطاني. أمضيت ليلتي الأولى في إنكلترا في ذلك الفندق، على سرير مميز عالي الهيكل، ولم تكن ليلة مؤرقة بسبب ألمي بقدر ما كان مرد ذلك إلى الطريقة التي يتسمَّر فيها المرء في الأسرّة الإنكليزية من ذلك النوع، فقد كان غطاء السرير مقحمًا تحت الحشية من كل مكان. وهكذا كنت في صباح اليوم التالي، الثامن عشر من أيار، متعبًا غبِش العينين عندما قمت بقياس زيّي المدرسي الجديد في محلات بيكر في كينسنغتون، بمساعدة خالي، وكان يتألف من سروال أسود قصير، جوارب حتى الركبة ذات لون أزرق ملكي، سترة من اللون نفسه، قميص برتقالي، ربطة عنق مخططة، وقبعة صغيرة لم تكن لتثبت على كومة شعري مهما حاولت تثبيتها. وجد لي خالي الذي كانت النقود تحت تصرفه، مدرسة رسمية من الدرجة الثالثة في مارغيت وأعتقد أنه عندما رآني مكسوًا على هذا الشكل كان على وشك أن يبكي مثلي عندما رأيت نفسي في المرآة. وإذا بدا الزي الرسمي مثل تنافر الأحمق، مصمَّم خصيصًا ليجلب لي الازدراء فإنَّ المدرسة نفسها بدت مثل سجن أو مصحّة عقلية عندما وصلنا ذلك الأصيل. الحوض الدائري من

صنوبريات مقزَّمة عند منعطف الطريق، الواجهة الكالحة المغطاة بشرفات منوّعة، الجرس الصدِئ ذو الحبل بجانب الباب المفتوح، بوّاب المدرسة الذي خرج يعرج من ظلمة الردهة، الدَّرج الضخم المصنوع من خشب البلوط، برودة جميع الغرف، رائحة الفحم، الهديل المتواصل لليمام الهرم الجاثم في كل مكان على السطح، وعدة تفاصيل مشؤومة أخرى لم أعد أتذكرها، تآمرت لتجعلني أفكر بأني سأجن خلال وقت قصير في تلك المؤسسة. يتبين حاليًا بأيّ حال أنَّ نظام المدرسة -بحيث كنت سأمضي سنواتي القليلة التالية -لم يكن في الواقع صارمًا إلى حدٍّ ما، بل بلغ أحيانًا حد الفوضى. كان مدير المدرسة ومؤسسها، رجل يدعى ليونيل لينش لويس، أعزب يناهز عمره السبعين عامًا، يرتدي دومًا أكثر الثياب غرابة ويفوح منه أثر خفيف لرائحة الليلك، وموظفوه ليسوا أقل غرابة تقريبًا، يتركون التلاميذ الذين كانوا بشكل أساسي أبناء دبلوماسيين ثانويين من بلدان غير مهمة، أو أبناء منتقلين آخرين، على سجيتهم. كانت وجهة نظر لينش لويس تقول إنه ما من شيء أكثر ضررًا بتطور الفتية اليافعين من جدول مواعيد مدرسية نظامية. مؤكدًا أن المرء يتعلم على نحو أفضل وبسهولة أكبر في وقت فراغه. هذا المفهوم الجذَّاب أثمر بالفعل عند البعض منا، لكن الآخرين جمحوا على نحو مقلق بالنتيجة. بالنسبة للزي الشبيه بالببغاء الذي كان علينا أن نرتديه والذي تبين أنه كان مصمَّمًا من قِبَل لينش لويس نفسه، شكّل أعظم تناقض ممكن مع باقي نظريته التربوية. في أحسن الأحوال، تلائم صخب الألوان غريب الأطوار الذي كنَّا مضطرين إلى ارتدائه مع التفخيم المفرط الموضوع من قبل لينش لويس على زرع إنكليزية صحيحة، من وجهة نظره لا يمكن أن تعني سوى إنكليزية

مرحلة مطلع القرن. وليس عبثًا ما كان شائعًا في مارغيت أن مدرّسينا كانوا جميعًا دون استثناء مجنَّدين من مرتبات ممثلين فشلوا، لأي سبب كان، في مهنتهم المختارة. قال فربر، بصورة غريبة، عندما أتطلع إلى عهدي في مارغيت لا يمكنني القول ما إذا كنت سعيدًا أم تعيسًا، أو ماذا كنت بالفعل. بأي حال، النظام اللاأخلاقي الذي حكم الحياة في المدرسة منحني إحساسًا بالحرية إلى حدٍّ ما، إحساس لم أعرفه حتى ذلك الحين -وهكذا أصبح صعبًا على الدوام بالنسبة لي كتابة رسائلي إلى الوطن أو قراءة الرسائل التي كانت تصل من الوطن كل أسبوعين. أصبح التراسل عملًا روتينيًا نوعًا ما، وعندما توقفت الرسائل عن الوصول، في تشرين الثاني العام 1941، شعرت بالارتياح أولًا، بطريقة الآن اكتشف أنها رهيبة تمامًا. فقط تدريجًا، خطر لي أني سوف لن أكون قادرًا أبدًا ثانية على الكتابة إلى الوطن. في الواقع، لكي أكون صادقًا، في الحقيقة لا أعرف إذا كنت قد استوعبت الأمر حتى يومنا هذا. لكن يبدو الآن لي أن مسيرة حياتي، حتى أدق التفاصيل، كانت مرسومة، ليس فقط بترحيل والديَّ لكن أيضًا بتأخّر وصول أنباء موتهما، أنباء لم أتمكَّن من تصديقها أولًا ولم أدرك معناها إلا تدريجًا. بطبيعة الحال، قمت بخطوات، عن وعي أو غير وعي، لأبقى بعيدًا عن التفكير بمعاناة والديَّ وعن سوء حظي، ولا شك نجحت أحيانًا في المحافظة على رصانة ما بعزلتي المفروضة ذاتيًا، لكن الحقيقة هي أن تلك المأساة في شبابي ضربت جذورًا عميقة في داخلي، حتى إنها لاحقًا انطلقت ثانية لكن طرحت زهور شرٍّ ونشرت الظُلة السُمّية عليَّ، ما جعلني إلى حد كبير في الظل والظلمة في السنوات الحالية.

خلُص فربر في الأمسية السابقة لمغادرتي مانشستر إلى القول،

في بداية عام 1942 ركب الخال ليو السفينة في ساوثامبتون نحو نيويورك. زار مارغيت قبل مغادرته مرة أخيرة، واتفقنا على أن أتبعه في الصيف، بعد أن أنهي سنتي الدراسية الأخيرة. لكن عندما أزف الوقت لم أرغب أن يذكّرني أي شيء أو أي شخص بأصولي، وهكذا بدلًا من الذَّهاب إلى نيويورك، على متن سيارة خالي، قررت الانتقال إلى مانشستر بمفردي. عديم الخبرة كما كنت، تخيلت بأني أستطيع أن أبدأ حياة جديدة في مانشستر، من البداية، لكن بدلًا من ذلك، ذكّرتني مانشستر بكل ما كنت أحاول نسيانه. مانشستر مدينة وافدين، ولمدة مائة وخمسين سنة، ناهيك عن الإيرلنديين الفقراء، كان المهاجرون بشكل أساسي من الألمان واليهود، عمالًا يدويين، تجّارًا، تجارًا بالمفرق وبالجملة، ساعاتيين، صانعي قبعات، صانعي إطارات، صانعي مظلات، خياطين، مجلدي كتب، منضّدين، صائغي الفضة، مصوّرين، تجار فراء وصناع قفازات، تجار خردة، بائعين متجولين، مسترهنين، دلّالين، صائغي جواهر، سماسرة عقارات، سماسرة البورصة، كيميائيين وأطباء. كان لليهود السفرديم الذين كانوا مستقرين في مانشستر منذ وقت طويل ويحملون أسماء مثل بيسو، رافاييل، كاتون، كالديرون، فاراش، نيغريو، ميسولام، أو دي مورو، بعض التميّز بين الألمان واليهود الآخرين الذين يحملون أسماء مثل ليبراند، وولغيموث، هيرزمان، غوتشالك، أدلر، أنجلز، لاندشوت، فرانك، زيرندورف، والرستين، أرونزبيرغ، هاربليشر، كريلشيمر، دانزيغر، ليبمان أو لازاروس. سحابة القرن التاسع عشر، كان أثر الألمان واليهود أقوى في مانشستر منه في أي مدينة أوروبية أخرى، وهكذا، على الرغم من أني نويت أن أنتقل في الاتجاه المعاكس، عندما وصلت إلى مانشستر كنت قد وصلت إلى

الوطن، نوعًا ما، ومع كل سنة أمضيتها منذ ذلك الحين في مسقط رأس التصنيع هذا، وسط الواجهات السوداء، كان إدراكي يزداد وضوحًا بأني هنا، كما كان يقال، لأعمل تحت المدخنة. لم يقل فربر المزيد. حدّق طويلًا في الفراغ، قبل أن يودعني بتلويحة محسوسة بالكاد من يده اليسرى. عندما عدت إلى المرسم لوداعه صباح اليوم التالي، ناولني رزمة أوراق بنية اللون مربوطة بخيط، تحتوي على عدد من الصور ومائة صفحة تقريبًا من مذكرات مكتوبة بخط اليد كتبتها أمه في منزل شارع شترينفارت بين العامين 1939 و1941، قال فربر إنَّ هذه المذكرات بينت أن الحصول على تأشيرة أصبح أكثر صعوبة وأن الخطط التي وضعها والده لرحيلهما ازدادت تعقيدًا بالضرورة مع مضي كل أسبوع – وأن من المستحيل تنفيذها، كما فهمت أمه بوضوح. قال فربر، لم تكتب أمي كلمة عن الأحداث الراهنة، بمعزل عن النظرة المائلة الغريبة إلى الحالة البائسة التي كانت فيها هي ووالدي، بدلًا من ذلك، بشغف كان يفوق قدرته على الفهم، كتبت عن طفولتها في قرية شتيناخ، في فرانكونيا السُّفلى، وعن شبابها في بادكيسينغن. في الوقت الذي مر منذ كتابتها، قال فربر، قرأ مذكرات والدته التي أودعَتها الورق، مرتين فقط على ما يبدو ليس أقله مع نفسه. المرة الأولى، قرأها قراءة سريعة بعد تلقيه الرزمة. المرة الثانية قرأها بدقة بعد عدة سنوات. في تلك المرة الثانية، بدت له المذكرات التي كانت أحيانًا رائعة بحق، مثل إحدى تلك الحكايات الألمانية الشِّريرة التي حالما تقع فيها تحت السحر عليك أن تستمر حتى النهاية حتى ينكسر قلبك بأي عمل بدأت به -في هذه الحالة، التذكر، الكتابة، والقراءة. لهذا السبب أود منك أن تأخذ هذه الرزمة، قال فربر، وأرشدني إلى الطريق نحو الفناء، حيث رافقني حتى شجرة اللوز.

المخطوط الذي أعطاني إياه فربر ذلك الصباح في مانشستر أضعه أمامي الآن. سأحاول أن أنقل ما ترويه الكاتبة التي كان تدعى قبل الزواج باسم لويزا لانزبرغ، عن نشأتها في مقتطفات. تكتب في البداية أنها لم تكن وحدها فقط هي وأخاها ليو قد وُلدا في شتيناخ، قرب بادكيسينغن، لكن أيضًا والدها لازاروس، وجدُّها لوب من قبلهم. كان للعائلة سجلّات وقيود باعتبارها من سكان القرية التي كانت سابقًا تحت حكم أساقفة -أمراء ويرزبورغ، وكان ثلث سكانها من اليهود المقيمين هناك منذ وقت طويل، منذ أواخر القرن السابع عشر على الأقل. من نافل القول إنه لا يوجد يهود في شتايناخ الآن، وإن هؤلاء الذين يعيشون هناك لا يتذكّرون من كانوا جيرانهم سابقًا والذين استولوا على بيوتهم وممتلكاتهم، إلا بالكاد، إذا كانوا يتذكرون حقًّا. يمر الطريق من بادكيسينغن إلى شتيناخ بغروسنبراخ، كلينبراخ وآساش بقلعتها ومصنع البيرة في غراف لوكسبورغ. من هناك يصعد آساشر ليت الشَّاهق، حيث ترجل لازاروس (تكتب لويزا) دومًا من عربته كي لا يتوجَّب على الأحصنة القيام بالعمل بمشقة. من القمة، يهبط الطريق، على طول حافَّة الغابة، إلى هوهن، حيث تنكشف الحقول وتصبح تلال الرون مرئية في البعيد. تنتشر مروج السال أمامك، وتمتد غابات ويندهيم في منعطف خفيف، وهناك قمة برج الكنيسة والقلعة القديمة شتيناخ! الآن يعبر الطريق الجدول ويدخل القرية، حتى السَّاحة بجانب النُّزل، ثم يهبط إلى اليمين نحو الجزء الأخفض من القرية التي تسميها لويزا بيتها الحقيقي. هناك حيث تعيش عائلة ليون، تكتب، حيث نحصل على الزيت للمصابيح. هناك يعيش مير فري التاجر الذي تشكّل عودته من

معرض لايبزغ التجاري السنوي حدثًا كبيرًا دومًا. وهناك يعيش غيسنر الخبّاز الذي نأخذ إليه وجبة السبت في أمسيات الجمعة، وليبمان الجزار وسولومون ستيرن تاجر الدقيق. التكيَّة التي لم يكن هناك عادة من يشغلها، والإطفائية بدرفاتها المضلعة على البرج، كانت في الجزء الأخفض من القرية، وهكذا كانت القلعة القديمة بساحتها الأمامية المعبَّدة بالحصى وأسلحة لوكسبورغ عند البوابة. تكتب لويزا، في الطريق إلى فيديرغاس التي كانت دومًا مليئة بالإوز والتي كانت تخشى السير فيها عندما كانت طفلة، تمرّ بدكان خردوات سيمون فيلدهان ومنزل فروليش السَّمكري بكسوته من الخشب والقصدير الأخضر، لتصل إلى ساحة مظللة بشجرة كستناء كبيرة. في المنزل على الجانب الآخر - حيث تنقسم الساحة أمامه إلى طريقين مثل موجتين عند مقدمة السفينة وخلفها تبدو غابات ويدينهايم -ولدت ونشأت (هكذا تقول المذكرات التي أمامي) وهناك عشت حتى سنتي السادسة عشرة عندما انتقلنا في كانون الثاني من العام 1905 إلى كيسينغن.

أنا واقفة الآن في غرفة الجلوس من جديد، تكتب لويزا. عبرت القاعة المعتمة المرصوفة بالحجر، وضعت يدي باحتراس على مسكة الباب، كما أفعل تقريبًا كلَّ صباح في مثل هذا الوقت، دفعتها نحو الأسفل وفتحت الباب، وفي الداخل، حافية على الأرضية البيضاء الملمّعة، نظرت من حولي بدهشة نحو جميع الأشياء الأنيقة في الغرفة. هناك كرسيان من المخمل الأخضر بأهداب معقودة من حولهما، وبين النوافذ المقابلة للساحة أريكة على نفس الطراز. الطاولة من خشب الكرز فاتح اللون. عليها إطار يشبه المروحة يحتوي خمس صور لأقربائنا في مينستوكهايم ولوتيرشاوزن، وفي

إطار، بمفردها، صورة لأخت بابا التي يقول الناس إنها الفتاة الأكثر جمالًا على مسافة أميال، جرمانية أصيلة. أيضًا على الطاولة بجعة من الخزف الصيني مفرودة الجناحين، وفي رباط مخرَّم أبيض باقة زفاف ماما العزيزة الدائمة الخضرة، بجانب الشمعدان «المينوراه» الفضّي اللازم في مساءات الجمعة ومن أجله يقص بابا خصيصًا واقيات ورقية كل مرة، ليمنع الشمع من أن يتقطّر من الشموع. على خزانة الملابس بجانب الجدار، يوجد كتاب بحجم ورقة مطوية (فوليو) مفتوح عند صفحة ومجلد بشكل منمَّق باللون الأحمر وأغصان كرمة ذهبية، هذا كما تقول ماما كتاب أعمال شاعرها المفضل، هاينريش هاينه وهو أيضًا شاعر الإمبراطورة اليزابيث الأثير. بجانبه سلة صغيرة حيث تحفظ صحيفة «آخر أخبار ميونيخ» التي تنغمس ماما فيها كل مساء على الرغم من أن بابا الذي يذهب إلى النوم في وقت مبكر، يقول لها دومًا إن القراءة في وقت متأخر من الليل ليست صحّية. نبتة الشمعة على طاولة من الخيزران في عتبة النافذة الشرقية. أوراقها صلبة وداكنة، وفيها الكثير من التيجان وردية القلب تتكوّن من نجوم بيضاء وبرية. عندما أنزل في الصباح الباكر تشعّ الشمس على الغرفة وتتوهّج على قطراتِ العسل المتشبثة بكل نجمة صغيرة. يمكنني أن أرى عبر الأوراق والزهور في الحديقة المعشوشبة حيث تنقد الدجاجات. سوف يربط فرانز فتى الإسطبل، وهو أمهق صموتٌ للغاية، الأحصنة إلى العربة بينما يستعد والدي للمغادرة، وهناك، عبر السياج، منزل صغير تحت شجرة بلسان، حيث يمكنك دومًا أن ترى كاثينكا شتراوس في هذا الوقت. كاثينكا عزباء في الأربعين من عمرها ربما، ويقول الناس إنها لا تملك زمام عقلها. عندما يسمح الطقس، تمضي يومها في

المشي حول شجرة الكستناء في الساحة، مع اتجاه عقارب الساعة وأحيانًا بعكسه بحسب مزاجها، تنسج شيئًا يبدو أنها لن تنهيه أبدًا. ولو أنها لا تملك إلا القليل، إلّا أنها دومًا تعتمر القلنسوات الأكثر إثارة في هذه النزهات، واحدة تعرض جناح نورس أتذكّرها جيدًا بشكل خاص لأن «هر بين» المدرس ذكرها في المدرسة، قائلًا لنا إن علينا ألا نقتل أبدًا أي مخلوق لكي نتزين بريشه فقط.

على الرغم من أن أمي عارضت لوقت طويل فكرة السماح لنا بالخروج من البيت، فقد أرسلنا -ليو وأنا -إلى روضة نهارية عندما كنا في الرابعة أو الخامسة من عمرنا. كان الدوام في الروضة يبدأ بعد انتهاء صلوات الصباح. إنها روضة صارمة للغاية. تذهب إلى الباحة وتقول للأخت الموجودة هناك: «آنسة أديلايند، هل يمكن أن أحصل على كرة من فضلك؟». ثم تأخذ الكرة، تعبر الباحة، وتنزل الدرج إلى الملعب. يقع الملعب في أسفل خندق فسيح يحيط بالقلعة القديمة، حيث يوجد الآن أحواض زهور ملونة وخضار. تمامًا فوق الملعب، في جناح طويل من الغرف في قلعة مهجورة تقريبًا، تعيش ريجينا زوفراس. كما يعلم الجميع هي امرأة مشغولة للغاية ودومًا تعمل بجد، حتى في الآحاد. ترعى دجاجاتها أو تراها بين نبتات الفاصولياء، أو تصلح السياج، أو تفتش في إحدى الغرف الكبيرة التي كانت واسعة جدًا عليها وعلى زوجها. رأينا مرة ريجينا زوفراس على السطح تثبت دوارة الريح. راقبناها مقطوعي الأنفاس، متوقعين أنها ستسقط في أية لحظة وتهبط على الشرفة مكسورة العظام. يعمل زوجها غوفريل حوذيًا في القرية. ريجينا ليست هانئة معه كثيرًا، وهو من ناحيته، كما يقولون، يخشى الذهاب إلى البيت. كما يحصل كثيرًا توجب إرسال أناس للبحث

عنه. وكالعادة وجدوه ثملًا، ممددًا في الخارج بجانب عربة نقل القش المقلوبة. الخيول وقد اعتادت طويلًا على هذا كله ظلت واقفة بصبر بجانب العربة المقلوبة. في النهاية أعيد تحميل القش وأحضرت ريجينا غوفريل إلى البيت. في اليوم التالي، ظلت درفات نوافذهما الخضراء مغلقة، وعندما كنا نحن الأطفال نتناول شطائرنا في الملعب تساءلنا عما يجري في الداخل. وبعدئذٍ، ماما ترسم صباح كل خميس سمكة على ورق مشمع تلف به الشطائر، كي لا ننسى شراء نصف دزينة من سمك البربيس من بائع السمك في طريق عودتنا إلى البيت من الروضة. في الأصيل، نسير ليو وأنا يدًا بيد على طول نهر السال، على الضفة حيث يوجد أيكة كثيفة من الصفصاف وشجر جار الماء، وينمو نبات الأسل، بمحاذاة ورشة النجارة وعبر الجسر الصغير، حيث نتوقف لننظر إلى الفراشات الذهبية حول الحصى على مجرى النهر قبل أن نذهب إلى كوخ بائع السمك المحاط بالأجمات. علينا أولًا أن ننتظر في الردهة بينما زوجة بائع السمك تستدعيه. كان يوجد إبريق قهوة أبيض منفوخ بمقبض من الكوبالت الأزرق دومًا على الطاولة، وأحيانًا يبدو كما لو أنه يملأ الغرفة. يظهر بائع السمك في العتبة ويصحبنا مباشرة عبر حديقة موحلة قليلًا، مرورًا بأزهار الأضاليا البهية، نحو نهر السال، حيث يخرج السمكات واحدة واحدة من قفص خشبي كبير في الماء. ليس مسموح لنا أن نتحدث ونحن نأكلها على العشاء بسبب الحسك، وعلينا أن نبقى هادئين كالسمك نفسه. لم أشعر يومًا بالارتياح تجاه هذه الوجبات، وعيون السمكة المائلة كانت تراقبني غالبًا حتى في نومي.

في الصيف، أيام السبت، كثيرًا ما تنزهنا طويلًا نحو «باد بوكلت»،

حيث يمكننا التجول حول القاعة المزودة بالأعمدة ومراقبة الناس المتأنقين وهم يشربون القهوة، أو إذا كان الجو حارًا جدًا ولا يُسمح بالتنزه نجلس في الأصيل المتأخر مع عائلة ليبرمان وفيلدهانز في ظلة أشجار الكستناء عند زقاق البولينغ في حديقة روس للبيرة. الرجال يشربون البيرة والأطفال يشربون الليمونادة، النساء في حيرة من أمرهن ولا يعرفن ماذا يُردنَ، فيرشفن رشفة من كل شيء، فيما هنَّ يقطعن أرغفة السبت واللَحم المملَّح. بعد العشاء، يلعب بعض الرجال البلياردو التي يعتقد بأنها لعبة جريئة جدًا وعدائية. فيرديناند ليون يدخن السيجار! فيما بعد يذهبون جميعهم إلى الكنيس معًا. النساء يجمعن الأشياء، ومع حلول الغسق يسلكن طريقهن إلى البيت مع الأطفال. كان ليو مرة، في طريقه إلى البيت، حزينًا بسبب زي البحار الجديد المصنوع من قماش قطني أبيض وأزرق فاتح منشّى -لا سيما بسبب الربطة الضخمة وياقة الصدر المعلّقة على كتفيه، عليها مراس متقاطعة سهرت أمي حتى وقت متأخر من الليل تطرّزها في الليلةً السابقة. ما إن جلسنا على الدرجات الأمامية، وكان الظلام قد حل، نراقب الغيوم العاصفة تتنقل في السماء، حتى سلا بؤسه تدريجيًا.

عندما وصل والدي إلى البيت، أضيئت الشمعة المصنوعة من خيوط كثيرة متشابكة معلنة نهاية السبت. شممنا صندوق البهارات الصغير وصعدنا إلى أسرَّتنا في الطابق العلوي. في الحال إضاءة مبهرة بيضاء ومضت في السماء، وقصف الرعد هز البيت برمته. وقفنا عند النافذة. مرّت لحظات كان الوميض فيها أكثر سطوعًا من ضوء النهار. عامت كتل القش على المياه الدوَّامة في الميازيب. بعد ذلك عبرت العاصفة لكنها عادت ثانية في الحال. بابا يقول

إنه لا يمكنها أن تتجاوز غابات ويندهايم. في أصيل يوم الأحد بابا يجري حساباته. يُخرِج مفتاحًا صغيرًا من كيس جلدي، يفتح قفل منضدة الكتابة اللمّاعة المصنوعة من خشب الجوز، يفتح الجزء الأوسط، يعيد المفتاح إلى الكيس، يجلس باحتفالية ما، ويسوِّي جلسته، يخرج دفتر الحسابات الثقيل. يدوِّن على مدى ساعة تقريبًا القيود والملاحظات في هذا الدفتر وعدد من دفاتر أصغر حجمًا، وعلى قصاصات ورقية مختلفة الأحجام، يحرك شفتيه بهدوء، يجمع أعمدة طويلة من الأرقام ويُجري الحسابات، وبحسب النتائج سيشعّ وجهه أو يكفهرّ لفترة. أشياء كثيرة خاصّة محفوظة في الأدراج العديدة للمكتب -عقود، شهادات، مراسلات، جواهر ماما، وشريط عريض مربوطة إليه قطع نقدية كبيرة وصغيرة من الفضة بضفائر ضيّقة من الحرير، كما لو أنها كانت أوسمة أو نياشين: أثارت قطع hollegrasch النقدية[1] التي أعطاها لليو عرّابه سيلمار في لوترشاوزن كل عام، دهشتي بطمع. ماما تجلس في غرفة الجلوس مع بابا، تقرأ صحيفة «آخر أخبار ميونيخ» -كل الأشياء التي لم تستطع قراءتها خلال الأسبوع، مع إعطاء أولوية لما يُكتب عن منتجع المياه المعدنية وتقارير متنوعة. كلما صادفت شيئًا لا يصدق، أو لافتًا، تقرأه لبابا الذي كان عليه أن يتوقّف عن الجمع لفترة. ربما لأني لم أستطع إخراج قصة الفتاة التي تحترق

(1) في جنوب ألمانيا، لا سيما في بافاريا، كان لليهود طقس يقيمونه لتسمية المولود الجديد ويدعى أيضًا Hollekriesch أو اسم المهد، ويقام عادة في السبت الرابع بعد ولادة الطفل. كانت تقدم فيها للكاهن الذي يؤدي هذه المراسم قطع نقدية من عملة البلد الذي يعيش فيه اليهود.

(بولين)[1]، من رأسي في ذلك الوقت، يمكنني سماع ماما حتى الآن تحكي لبابا بطريقتها المؤثّرة المميزة جدًّا، وقد حلمت في شبابها أن تصبح ممثلة، أن فساتين السيدات يمكن أن تكون الآن مقاومة للنار، بتكلفة زهيدة للغاية، بغمر المادة التي ستصنع منها في سائل كلوريد الزنك. لا أزال أسمع ماما تخبر بابا قائلة إن حتى أدق المواد يمكن أن تتعرّض إلى لهب مجرد بعد أن تتم معالجتها وسوف تتحوّل إلى رمادٍ من دون أن تلتقط النار. إذا لم أكن مع والديَّ في غرفة الجلوس في تلك الآحاد الطويلة بلا نهاية، أكون في الطابق الأعلى في الغرفة الخضراء. في الصيف، عندما يكون الطقس حارًّا، تكون النوافذ مفتوحة لكن الدرفات مغلقة، والضوء الداخل يصنع شكل سلّم يعقوب[2] مائلًا في الغسق من حولي. الجو هادئ جدًّا في البيت، وفي الحي برمّته. في الأصيل، تمر العربات في نزهات قصيرة من المنتجع المعدني في كيسينغن بالقرية. يمكنك أن تسمع صوت حوافر الخيل من بعيد جدًّا. أفتح إحدى الدرف قليلًا وأنظر إلى الطريق. حافلات تمضي من شتيناخ إلى نوستادت ونوهاوز نحو قلعة سالزبورغ، تقل رواد المنتجع المعدني الذين يجلسون بمواجهة بعضهم البعض، سيدات وسادة محترمون ولم يكن من النادر رؤية مشاهير روس حقيقيين. السيدات على نحو رائع في قلنسوات من الريش وبراقع مع شمسيات من حرير مخرَّم أو ملوَّن بألوان زاهية. يدير فتيان القرية العجلات أمام العربات ويقذف المسافرون الأنيقون لهم بقطع نقدية نحاسية على سبيل المكافأة.

(1) قصة بولين وأعواد الكبريت المروعة، تأليف هاينريش هوفمان العام 1858.
(2) وفقًا لسفر التكوين، سلم يعقوب هو سلم إلى السماء رآه يعقوب في رؤيا أثناء الهروب من أخيه عيسو.

حلَّ الخريف، وأعياده تقترب. أولًا يأتي روش هاشانا[1]، مستقدمًا السنة الجديدة، في اليوم الذي يسبقه، تكنس جميع الغرف، في ليلة رأس السنة تذهب ماما وبابا إلى الكنيس، يرتديان أفضل ملابسهما الخاصة بالأعياد: بابا في معطفه الطويل معتمرًا قبعة، وماما في فستانها المخمليّ الأزرق الداكن وقلنسوة مصنوعة كليًّا من زهور الليلك الأبيض. في هذه الأثناء، في البيت، ليو وأنا نفرد مفْرشًا من قماش اللينين المنشَّى على الطاولة ونضع كؤوس النبيذ عليها، وتحت أطباق والدينا نضع رسائلنا للعام الجديد، مكتوبة بخطنا الجميل. بعد أسبوع ونصف يحل يوم كيبور[2]. والدي، في ردائه الأسود، يتحرّك في المنزل مثل شبح. يسود مزاج الندامة والتوبة. نصوم جميعًا حتى تظهر النجوم، وعندئذٍ نتناول طعام الإفطار. وبعد أربعة أيام تكون وليمة عيد المِظال. نصب فرانز أعمدة التخييم تحت شجرة البلسان وزيّنها بأكاليل ملوّنة من أوراق صقيلة وسلاسل طويلة من الورود المنظومة فيها. من السقف تدلى تفاح أحمر، إجاص أصفر وعنب أخضر ذهبي ترسله الخالة إليز إلينا كل عام من مينستوكهايم في صندوق صغير مبطن بنشارة الخشب. في اليومين الأساسيين والأربعة الأخر سنتناول وجباتنا في الخيمة، إلا إذا كان الطقس سيئًا وباردًا بشكل غير متوقّع، حينذاك سنبقى في المطبخ، وفقط بابا سيجلس خارجًا في الخيمة، يتناول طعامه بمفرده -إشارة إلى أن الشتاء قادم تدريجًا. هو أيضًا

(1) عيد رأس السنة اليهودية.

(2) يوم كيبور، أو عيد الغفران، هو اليوم العاشر من شهر «تشريه»، الشهر الأول في التقويم اليهودي، وهو يوم مقدس عند اليهود مخصص للصلاة والصوم فقط.

يجلب في هذا الوقت من السنة خنزيرًا بريًّا اصطاده الأمير الحاكم في الرون إلى شتيناخ، حيث يسفع وبره أمام دكان الحداد على نار الحطب. في البيت نتفحص كتالوغ «ماي وإيدليش» من لايبزغ، وهو مجلد سميك موجز يكشف عجائب عالم البضائع بأسرها، مبوَّبة وموصوفة، صفحة بعد صفحة. في الخارج تتلاشى الألوان تدريجًا. ملابسنا الشتوية أحضرت. تفوح منها رائحة النفتلين. نحو نهاية تشرين الثاني يقيم نادي الشباب التقدمي حفلة تنكرية في روس. السيدة مينتزر من نوستادت خاطت لماما فستانًا من الحرير توتي اللون للمناسبة. الفستان طويل ومكشكش الحافه على نحو أنيق جدًّا. مسموح للأطفال مراقبة افتتاح الحفلة من عتبة الغرفة المجاورة. القاعة تئز بهمهمات المحتفلين. لتعديل المزاج، تعزف الفرقة أنغامًا ناعمة من الأوبريات، إلى أن يصعد السيد هيانباخ الذي يعمل في مفوضية الأحراج، على المنبر، وعلى سبيل افتتاح رسمي للمناسبة يلقي خطابًا في مديح الوطن. الكؤوس مرفوعة، تلويحة من الفرقة، تحدق الأقنعة بجدية في عيون بعضها البعض، تلويحة أخرى، وصاحب المكان، السيد روس، يحمل في صندوق أسود ذي قمع معدني على شكل زهرة توليب -الفونوغراف الجديد الذي يصدح بموسيقى حقيقية من دون أن يحتاج المرء لفعل شيء. «لقد أخرسنا العجب. أيها السيدات والسادة خذوا أماكنكم من أجل رقصة البولونيز. يتقدّم سيلبيبيرغ، الإسكافي، لا يمكن التعرف عليه البتة في ذيوله، وربطته السوداء، ودبوس ربطة العنق وحذائه الجلدي اللماع، يسير بعصا. جاءت من خلفه الثنائيات، يدورون ويبرمون حول القاعة بكل طريقة يمكن تصورها. الأجمل من بينهم جميعًا على الإطلاق، آلين فيلدهان متنكرة في زي ملكة الليل،

ترتدي فستانًا داكنًا مرصعًا بالنجوم. شاركها في الرقصة سيغفريد فراي، مرتديًا زي فارس من الهوصار[1]. تزوجت آلين من سيغفريد لاحقًا ولهما طفلان، لكن سيغفريد الذي قيل إنه مسرف، اختفى فجأة، ولا آلين ولا لوب فراي ولا أي شخص عرف ما الذي حلَّ به. ادّعت كاثينكا شتراوس، أن سيغفريد هاجر إلى الأرجنتين أو بنما.

كان قد مضى على ارتيادنا للمدرسة سنوات عدّة في ذلك الحين. إنها مدرسة خاصّة بالأطفال اليهود حيث تعلّمنا جميعنا معًا في صف واحد. مدرِّسنا، سالومون بينْ الذي لم يفوت الأهالي فرصة لمديح تفوّقه، فرض انضباطًا حازمًا، ويرى نفسه قبل كل شيء كخادم مخلص للدولة. يعيش هو والسيدة زوجته وأخته العزباء ريجين، في مبنى المدرسة. في الصباحات، عندما نعبر الباحة، يكون قبلنا هناك عند العتبة، يحث المتأخرين بالصراخ هوب! هوب! مصفقًا بيديه. في قاعة الدرس، بعد الصلاة -**أنت يا من صنعتَ النهار، أيها الرب** -وبعد أن نبري أقلامنا وننظف ريشة الكتابة، وهي أعمال لا أحبها ويراقبها السيد بينْ عن كثب، توكل إلينا مهمات عدّة بالتناوب. يكلف بعضنا بالتمرّن على الخط، وعلى بعضنا حلّ المسائل الحسابية، ومع ذلك كان على البعض الآخر كتابة مقالة، أو الرسم في دفاتر التاريخ المحلّي. وإحدى المجموعات لديها درس بصري. تجلب لفافة من خلف الخزانة وتعلق أمام السبورة. ليس في الصورة شيء سوى الثلج، يتوسطها غراب فاحم السواد. خلال الفصلين الأول أو الثاني، لا سيما في الشتاء عندما لم يكن ضوء النهار يسطع فعليًا، أكون دومًا بطيئة جدًا

(1) الهوصار وهو جندي في سلاح الفرسان الخفيف في المجر زمن العصور الوسطى.

في عملي. أنظر عبر الألواح الزرقاء وأرى ابنة ستيرن تاجر الدقيق الصماء والبكماء، في الجهة الأخرى من الباحة، جالسة إلى مقعد عملها في غرفتها الصغيرة. تصنع عشرات الزهور الاصطناعية من الأسلاك وقماش الكريب ومناديل ورقية، يومًا بعد يوم، سنة تلو أخرى. نتعلم في درس الطبيعة عن الزهور الحقيقية: العائق، زنبق قبعة التركي، الخثرية وزهرة الوقواق. نتعلّم أيضًا عن النمل الأحمر والحيتان، من مملكة الحيوان. ومرة، عندما مُهّد شارع القرية مجددًا، رسم المدرس صورة على السبورة، بطباشير ملونة، لجبل فوغيلسبيرغ كبركان ثائر، وشرح من أين تأتي كتل البازلت الصادرة عنه. هو يملك أيضًا مجموعة من الأحجار الملونة في خزانته المعدنية -الكوارتز الزهري، الصخر البلوري، الجمشت، التوباز والتورمالين. رسمنا خطًا طويلًا لنحدّد الزمن الذي استغرقه تشكّلها. حياتنا بطولها لم تكن لتظهر ولو كنقطة بالغة الصِّغَر على ذلك الخط. مع ذلك، امتدت الساعات في المدرسة واسعة سعة المحيط الهادئ، واستغرقت عودة موسيس ليون من الغابة بحمولة سلة وقتًا طويلًا إذ يتم إرساله ليحضر الخشب كل يوم تقريبًا على سبيل العقاب. ثم حلَّ علينا سريعًا، عيد الأنوار(1)، وعيد ميلاد السيد بن. في اليوم السابق، نزيّن جدران الصف بأغصان التنوب وبأعلام صغيرة زرقاء وصفراء. نضع الهدية على مكتب المدرِّس. أتذكّر أنها كانت في إحدى المرات غطاء مخمليًا أحمر اللون، ومرة مطرةً نحاسية للماء الساخن. نجتمع في صباح عيد الميلاد جميعنا في

(1) حانوكا وتعني بالعبرية «تدشين» ويعرف بعيد الأنوار كذلك، هو عيد يهودي يحتفل به اليهود لمدة 8 أيام ابتداء من الخامس والعشرين من شهر كيسليف بحسب التقويم العبري.

الصف، في أفضل ملابس لدينا. ثم يصل المدرّس، تتبعه زوجته والآنسة ريجين الشبيهة بالقزم إلى حد ما. نقف جميعنا ونقول: صباح الخير سيد بن! صباح الخير سيدة بين! صباح الخير آنسة ريجين! تظاهر مدرِّسنا الذي كان بالتأكيد يعرف ما كان يحضَّر منذ وقت طويل بأنه متفاجئ تمامًا بهديته وبالتزيينات. يرفع إحدى يديه إلى جبهته عدة مرات، يهز رأسه، كما لو أنه لا يدري ما يقول، يذرع الصف جيئة وذهابًا متأثّرًا بشدة، يفيض على كل واحد منا بعبارات الشكر. ما من دروس اليوم، بدلًا من ذلك، تُقرأ قصص وأساطير ألمانية قديمة جهارًا. لعبنا أيضًا لعبة التخمين. على سبيل المثال، علينا أن نخمّن الأشياء الثلاثة التي تعطي وتأخذ بوفرة غير محدودة. بالتأكيد لا أحد يعلم الجواب الذي يخبرنا به السيد بن حينذاك بنبرة عظيمة الأهمية: الأرض، البحر، والإمبراطورية الألمانية. ربما أفضل شيء في ذلك اليوم هو سماحه لنا قبل أن نذهب إلى البيت، بالقفز فوق شموع حانوكا، التي كانت مثبتة إلى العتبة بقطرات من الشمع. إنه شتاء طويل. في البيت، يساعدنا بابا في حل التمارين في المساء. رحلت الإوزات من حظيرتها، بعد وقت قصير وضع البعض منها في دهن حارٍّ يغلي. تأتي بعض نساء القرية لقصّ ريش الكتابة وصناعتها. يجلسن في الغرفة الاحتياطية، كل واحدة أمامها كومة من الريش الصغير[1]. قطعنَ الريش تقريبًا طوال الليل. يبدو كما لو أن الثلج قد انهمر. لكن عندما نستيقظ صباح اليوم التالي، الغرفة نظيفة جدًا، خالية من الريش تمامًا، حتى إنك تظن أن لا شيء على الإطلاق قد حدث. في وقت باكر من السنة، كان يجب القيام بالتنظيف الربيعي استعدادًا لعيد الفصح.

---

(1) المقصود هو الريش الطري الذي يستعمل لصنع الوسادات (المخدّات).

الأمر أسوأ في المدرسة. تستمر السيدة بن والآنسة ريجين فيه أسبوعًا على الأقل. تُخرجُ الحشايا إلى الباحة، تُعلّقُ أغطية الأسرّة على الشرفة، تُشمَّعُ الأرضيات مجددًا، وتُنقعُ جميع مواعين الطهو في ماء مغلي. نحن الأطفال علينا أن نكنّس الصف وننظّف مصاريع النوافذ برغوة الصابون. في البيت أيضًا، أُفرغت جميع الغرف والخزائن. الضجيج مهول. في المساء السابق للفصح، تجلس ماما قليلًا للمرة الأولى منذ أيام. في هذه الأثناء، يتجوّل والدي حول المنزل مع ريشة إوز ليتأكد من عدم وجود فتات الخبز.

ها قد عاد الخريف ثانية، وليو الآن في مدرسة ثانوية في مينيرشتات، تبعد ساعتين سيرًا على الأقدام عن شتيناخ، حيث يعيش في منزل ليندورم القبّعاتي. ترسل له وجباته مرتين في الأسبوع -نصف دزينة من قدور صغيرة، تُرتّب في مستوعب. ليس على ابنة ليندورم سوى تسخينها. من حزني لأنه بات عليَّ الذهاب إلى المدرسة وحيدة منذ الآن فصاعدًا، وقعت صريعة المرض. على الأقل كل بضعة أيام ترتفع حرارتي وأحيانًا أهذي تمامًا. يصف لي الطبيب هومبورغر عصير البلسان والكمّادات الباردة. أعدّوا لي سريري على الأريكة في الغرفة الصفراء. تمدّدت تقريبًا لمدة ثلاثة أسابيع هناك. مرارًا أعد قطع الصابون المكوَّمة على شكل هرم على السطح الرخامي للمغسلة، لكنني لم أتوصّل أبدًا إلى نفس المجموع مرتين. طاردتني التنانين الصغيرة الصفراء على ورق الجدران حتى في أحلامي. أنا غالبًا في اضطراب عظيم. عندما استيقظ أرى جرار المحفوظات مصفوفة في الخزانة وفي الأجزاء الباردة من الفرن المكسو بالآجر. أحاول عبثًا أن أفهم ماذا تعني. تقول ماما إنها لا تعني شيئًا، إنها مجرد كرز وإجاص وخوخ.

وتخبرني أن طيور السنونو مجتمعة في الخارج. أسمع ليلًا، في نومي، التحليق المهفهف لأسراب كبيرة من الطيور المهاجرة وهي تعبر فوق المنزل. فُتحت النوافذ أخيرًا عندما تحسّنت حالتي نوعًا ما، فُتحت على وسعها ذات أصيل جمعة منير. من مكاني على الأريكة أرى وادي سال برمته والطريق إلى هوهن، وأرى بابا عائدًا من كيسينغن من ذلك الطريق، في العربة. يدخل غرفتي بعد وقت قصير، لا يزال معتمرًا قبعته. لقد جلب لي صندوقًا خشبيًا من الحلوى مرسومًا عليه فراشة الطاووس. ذلك المساء قنطار من التفاح، ذهبي وأحمر اللون من نوع كالفيل، معدٌّ من أجل الشتاء على الأرض في الغرفة المجاورة. رائحته جعلتني أخلد إلى نوم هادئ لم أعرف له مثيلًا منذ وقت طويل، عندما فحصني الطبيب هومبورغر في صباح اليوم التالي أعلَنَ أني تماثلت للشفاء تمامًا من جديد. لكن بعدئذٍ، عندما تبدأ عطلة الصيف بعد تسعة أشهر حان دور ليو. كان يشتكي من رئتيه، وماما أصرّت على أن السكن غير المهوّى في منزل ليندورم، والبخار الناجم عن ورشة القبعات، هما اللذان تسببا بمرضه. وافقها الطبيب هومبورغ. وصف مزيجًا من الحليب والماء الفوار، وأمر ليو أن يمضي الكثير من الوقت في هواء غابات صنوبر ويندهاينم النقي. الآن تُحضّر كل صباح سلة من الشطائر، جبنة مخثرة وبيض مسلوق. أصبّ لليو شرابه الصحّي عبر قِمْع في زجاجات خضراء. تذهب فريدا، ابنة عمنا من غوشسبيرغ، معناً إلى الغابة كمشرفة، إذا جاز القول. إنها الآن في السادسة عشرة من عمرها، جميلة جدًّا، ولها جديلة شقراء سميكة طويلة جدًا. في الأصيل، يصادف دومًا ظهور كارل هاينباخ، ابن رئيس حراس الغابة، ليمشي ساعات تحت الأشجار مع فريدا. يجلس ليو الذي

يبجّل ابنة عمه أكثر من أي شخص آخر، على قمة أحد الصخور الضخمة الشاردة، يراقب المشهد الرومانسي ساخطًا. أكثر ما أثار اهتمامي هو خنافس الوعل اللامعة السوداء التي لا تُعَدّ في غابة ويندهايم. تتبعتُ تجوالها المتعرّج بعين صبورة. أحيانًا تبدو كما لو أنها اصطدمت بشيء، وكما لو أنه أُغمي عليها. تتمدّد هناك بلا حراك، وتشعر كما لو أن قلب العالم قد توقّف. فقط عندما تلتقط أنفاسك تعود من الموت إلى الحياة. وحينها يعود الوقت للجريان ثانية. الوقت. في أي وقت كان كل ذلك؟ كم ببطء مرّت الأيام حينها! ومن كانت تلك الطفلة الغريبة العائدة إلى البيت متعَبة تحمل ريشة طائر قيق[1] صغيرة زرقاء وبيضاء في يدها؟

مذكرات لويزا تواصل من نقطة أخرى، عندما أفكر حاليًّا بطفولتنا في شتيناخ يبدو غالبًا كما لو أن لها نهاية مفتوحة في الزمن على كل اتجاه –حقًّا. كما لو أنها لا تزال مستمرة، تمامًا في هذه السطور التي أكتبها الآن. لكن في الواقع، أعرف تمام المعرفة أن الطفولة انتهت في كانون الثاني من العام 1905 عندما بيع المنزل والحقول في شتيناخ بالمزاد وانتقلنا إلى منزل بثلاث طبقات في كيسينغن، عند تقاطع شارعَيْ بيبراس وايهرهارد. اشتراه أبي ذات يوم، من دون تردّد، من كيسيل البنّاء، مقابل 66 ألف مارك ذهبي، مبلغ وقع علينا جميعًا كنوع من أسطورة، وكان قد جمع أغلبه من رهن حصل عليه من مصرف فرانكفورت. حادثة أخذت ماما وقتًا طويلًا لتقبّلها.

كانت اسطبلات لازاروس لانزبرغ تتحسّن أكثر فأكثر في

(1) طائر من فصيلة الغرابيّات، يعرف بأبي زريق.

السنوات الأخيرة، تزوِّد حقولًا بعيدة تصل حتى رينلاند، براندينبورغ وهولستين، تعقد الصفقات في كل مكان، مخلّفة جميع زبائنها مسرورين وراضين للغاية. بلا شك كان العقد الذي فاز به بابا كمزوّد وموِّن للجيش، عقد ذكره بفخر كلّما سنحت له الفرصة، العامل الحاسم في التخلي عن الزراعة، والانتقال من شتيناخ النائية، وأخيرًا تأسيس مركز في حياة الطبقة المتوسطة. كنت في ذلك الوقت في السادسة عشرة من عمري تقريبًا، وآمنت أن عالَمًا جديدًا تمامًا، أجمل من ذلك الذي كان في الطفولة، سيتكشّف لي في كيسينغن. من جهة كان ذلك حقًّا ما جرى، لكن من ناحية أخرى بدت سنوات كيسينغن حتى زواجي في العام 1921 في استعادة للأحداث أنها وسمت الخطوة الأولى على طريق راح يضيق يومًا بعد يوم وأفضى حتمًا إلى النقطة التي وصلت إليها الآن. أجد من الصعب التفكير في شبابي في كيسينغن. إنه كما لو كان البزوغ التدريجي لما كان يسمّى الجانب الجدي للحياة، الخيبات الصغيرة والجسيمة التي سرعان ما بدأت بالظهور، أثّرت على قابليتي لاستيعاب الأمور. وهكذا يوجد قدر كبير لم يعد في وسعي تصوره. حتى عن وصولنا إلى كيسينغن لا أملك إلا ذكريات متشظية. أعرف أن البرد كان قارسًا، وكان هناك عمل لا نهائي يجب تأديته. كانت أصابعي متجمّدة، وظل المنزل لأيام عصيًّا على الدفء على الرغم من أني زوَّدت المواقد الإيرلندية بالفحم في جميع الغرف، ماتت زهرة الشمعة بعد انتقالنا، وهربت القطط، عائدة إلى المنزل القديم، وعلى الرغم من أن بابا عاد خصّيصًا إلى شتيناخ، لم يجدها في أي مكان. بالنسبة لي ظل المنزل الذي كان الناس في كيسينغن يدعونه فيلا لانزنبرغ، دومًا مكانًا غريبًا. بيت الدّرج العريض، مشمع الأرضية في القاعة،

الممر في الخلف حيث عُلِّق الهاتف فوق سلة الغسيل وكان عليك أن تمسك السماعات الثقيلة إلى أذنك بكلتا يديك، مصباح الغاز الشاحب الذي يصدر هسيسًا، الفرش الفلمنكي الداكن بأعمدته المنحوتة -كان هناك شيء مخيف بوضوح في ما يخصها جميعًا، وأحيانًا أشعر تمامًا قطعًا بأنه تسبّب لي بالأذى بثبات ويشكل لا يمكن إصلاحه.



فقط مرة، إذا كانت تسعفني الذاكرة، جلست على عتبة النافذة في قاعة الاستقبال المطلية بزخارف نباتية ولوالب مثل مظلّة العيد، وتدلّى من السقف مصباح السبت الجديد المملوء بالغاز أيضًا. أقلب صفحة أو اثنتين من صفحات ألبوم البطاقات البريدية المخملي

الأزرق الموضوع على رف طاولة التدخين وشعرت بأني زائر عابر. غالبًا في الصباحات أو المساءات، عندما أنظر من قمة نافذتي نحو أحواض زهور مشاتل المنتجع نحو التلال الحرجية الخضراء في كل مكان، شعرت كما لو أني خادمة. منذ الربيع الأول استأجرنا عدة غرف في المنزل. كانت أمي التي قامت بأعمال المنزل، مدرِّسة قاسية لإدارة المنزل. عند الساعة السادسة، فور استيقاظي، كانت مهمتي الأولى أن أعطي الدجاجات البيضاء في الحديقة حصّتها من الحبوب، وأتفحّص البيض. ثم كان يجب تحضير الفطور، وترتيب الغرف، وتقطيع الخضار، وطهو الغداء. في الأصائل، اتّبعت لفترة دورة لتعليم الاختزال ومسك الدفاتر عند الراهبات. كانت الأخت ايغناثيا فخورة جدًا بي. في أوقات أخرى صحبت الأطفال الزائرين إلى المنتجع للتنزه في الحدائق العامة -على سبيل المثال، ابن السيد وينتروب الصغير السمين. كان السيد وينتروب تاجر أخشاب، يأتي كل سنة من بيرم في سيبيريا لأنه لم يكن مسموحًا لليهود الدخول إلى المنتجعات المعدنية في روسيا، على حد قوله. أجلس منذ نحو الساعة الرابعة في الكوخ أرتق أو أحوك، وفي الأماسي كان يجب سقاية الخضار بماء من البئر، قال بابا إن ماء الصنبور يكلّف كثيرًا. يمكنني أن أذهب إلى حفلات موسيقية مسائية فقط إذا كان ليو في إجازة من المدرسة الثانوية.

كان يجمعنا عادة صديقه أرماند ويتيلسباخ الذي أصبح لاحقًا تاجر أثريات في باريس، بعد العشاء. أرتدي فستانًا أبيض وأتجوَّل في الحديقة بين آرماند وليو. كانت أحيانًا حدائق المنتجع مضاءة: كان هناك فوانيس صينية منظومة عبر الشوارع، تسكب ضوءًا ملوَّنًا ساحرًا. وتتدفق النوافير أمام مبنى ريجينت بالفضة والذهب بالتناوب

لكن عند الساعة العاشرة تنتهي الفترة ويتوجب علينا العودة إلى البيت. في شطر من الطريق، يمشي آرماند على يديه بجانبي. أتذكر أيضًا نزهة عيد ميلاد مع آرماند وليو. انطلقنا في الساعة الخامسة صباحًا، أولًا نحو كلوزنهوف ومن هناك عبر غابات الزان، حيث قطفنا باقات كبيرة من زنبق الوادي، وعدنا إلى كيسينغن. كنا مدعوّين إلى الفطور مع ويتيلسباخ. في ذلك الحين أيضًا نظرنا إلى مذنَّب هالي ليلًا، ومرة كان هناك كسوف كلّي للشمس في بداية الأصيل. كان بغيضًا أن ترى ظل القمر يحجب الشمس ببطء، كانت الأوراق على الشرفة، حيث وقفنا ممسكين بقطع من الزجاج المعتم، تبدو بأنها تذبل والطيور تخفق بأجنحتها في ذعر مخيف. وأتذكر أنه في اليوم التالي زارتنا لاورا ماندل مع والدها لأول مرة من تريستي. كان السيد ماندل في الثمانين من عمره تقريبًا لكن لاورا كانت في مثل عمرنا، وكلاهما كان لهما أعظم أثر يمكن تخيّله عليَّ، السيد ماندل على خلفية مظهره الأنيق -ارتدى البدل الكتانية الأكثر أناقة وقبعات القش عريضة الحافة - ولاورا (التي لم تدعُ والدها سوى باسم جورجيو)، بسبب جبهتها المنمشة الصلبة وعينيها الرائعتين اللتين كانت غائمتين غالبًا. أثناء النهار، كان السيد ماندل يجلس دومًا في مكان ما يكون جزئيًا في الظل -بجانب الحور الفضي في حديقتنا، أو على مقعد في حديقة لويتبولد، أو على تراس فندق ويتلسباخر هوف -يقرأ الصحف، ويلقي بملاحظات أحيانًا، ويكون غالبًا غارقًا في أفكاره ببساطة. قالت لاورا إنه كان منشغلًا لوقت طويل في التخطيط لإمبراطورية لا يحدث فيها شيء، لأنه لم يمقت شيئًا أكثر من مقته للمغامرات، والأحداث العظيمة، والتغييرات، أو الحوادث من أي نوع. من جانبها كانت لاورا ثائرة تمامًا. مرة ذهبت

معها إلى المسرح في كيسنغن عندما كانت تُعزف أوبريت من فيينا -أنا لم أعد أعرف إذا كانت أوبريت البارون الغجري أو السمكري -بمناسبة عيد ميلاد الإمبراطور النمساوي فرانز جوزيف. عزفت الفرقة الموسيقية أولًا النشيد الوطني النمساوي. وقف الجميع ما عدا لاورا التي ظلت جالسة بصراحة لأنها من تريستي -لم تتمكن من تحمل النمساويين. ما قالته بهذا الخصوص كان الفكرة السياسية الأولى التي صادفتها قطعًا في حياتي، وكم تمنّيت مؤخرًا لو أن لاورا تعود ثانية لنتناقش. أقامت معنا سنوات عدّة أثناء أشهر الصيف، كانت المرة الأخيرة في ذلك الفصل الجميل عندما بلغنا كلتانا الحادية والعشرين، أنا في السابع عشر من أيار وهي في السابع من تموز. أتذكر عيد ميلادها على نحو خاص. أبحرنا في سفينة صغيرة من منبع النهر إلى الهياكل الملحية، وكنا نتجوّل في الهواء المالح المنعش قرب السِّقالة الخشب التي تجري من تحتها المياه المعدنية باستمرار. كنت أعتمر قبعتي السوداء الجديدة بشريطة خضراء اشتريتها من محل توبر في ورزبورغ، حيث كان ليو يقرأ الكلاسيكيات. كان يومًا جميلًا، وعندما كنا نمشي على طول الدروب سقط ظل هائل علينا فجأة. تطلّعنا إلى السماء، كما فعل جميع زوار الصيف السائرين بمحاذاة الهياكل، وكان هناك منطاد ضخم ينزلق بلا صوت عبر الهواء الأزرق، كان في ما يبدو يزيل قمم الأشجار فقط. دهش الجميع، وشابّ واقف بالقرب منا جعل من ذلك ذريعة ليتحدّث إلينا -مستجمعًا شجاعته للقيام بذلك، كما اعترف لي لاحقًا. قال لنا مباشرة إن اسمه فريتز والدهوف، ويعزف على البوق الفرنسي في فرقة المنتجع الموسيقية، المكوَّنة بشكل أساسي من أعضاء في فرقة فيينا الموسيقية التي كانت تعزف في

كيسينغن أثناء عطلة الصيف سنويًا. أوصلنا فريتز الذي أعجبت به في الحال، إلى البيت ذلك الأصيل، وفي الأسبوع التالي تواعدنا لأول مرة. مجددًا كان يومًا صيفيًا جميلًا. مشيت في المقدمة مع فريتز، وتبعتنا لاورا التي كان لديها شكوك واضحة حوله، مع عازف تشيللو من هامبورغ يدعى هانسن. من نافل القول إني لم أعد أتذكّر ما دار بيننا من أحاديث. لكني أتذكّر أن الحقول على كلا جانبي الدرب كانت ملأى بالأزهار، وبأني كنت سعيدة، وبصورة غريبة تمامًا أتذكّر أيضًا أنه ليس بعيدًا عن البلدة، تمامًا حيث كانت لافتة بودينلوب، أدركنا سيدَيْن روسيَّيْن مهذَّبَين للغاية كان واحد منهما (الذي بدا مهيبًا على نحو خاص) يتحدّث بجدية مع فتى في نحو العاشرة من عمره كان يطارد الفراشات وتلكأ كثيرًا حتى أنه كان عليهما انتظاره. مع ذلك هذا التحذير لم يكن له كثير أثر، لأنه كلما صادف أن نظرنا إلى الخلف، رأينا الفتى يركض في المروج يرفع شبكة تمامًا كالسابق. ادّعى هانسن لاحقًا أنه تعرف في أكبر السيدين الروسيين المميّزين على مورومتزيف، رئيس البرلمان الروسي الأول الذي كان حينها مقيمًا في كيسينغن.

أمضيت السنوات التي تلت ذلك الصيف على النحو المعتاد، أؤدي واجباتي المنزلية، أمسك الحسابات والمراسلات في الإسطبلات وأعمال التموين، وأنتظر عودة عازف البوق المنتظمة من فيينا إلى كيسينغن، هو والسنونو. كنا دومًا نبتعد بعض الشيء خلال تسعة أشهر من الانفصال كل عام، على الرغم من الرسائل الكثيرة التي تبادلناها. وهكذا لم يتقدم فريتز إليَّ إلا بعد وقت طويل، فقد كان مثلي شخصًا كتومًا. قبل نهاية موسم عام 1923 تمامًا، ذات أصيل من شهر أيلول ارتعش بسحر شفيف. كنا جالسَيْن قرب

الهياكل الملحية نأكل العنبية مع اللبنة من وعاء من الخزف الصيني، عندما انفجر فريتز فجأة، في غمرة تذكّر دقيق لنزهتنا الأولى إلى بودينلوب وسألني من دون جلبة إضافية إذا ما كنت راغبة بالزواج منه. لم أعرف بماذا أجيب، لكنني أومأت، وعلى الرغم من أن كل شيء من حولي غدا غير واضح، رأيت ذلك الفتى الروسيّ المنسي منذ زمن طويل بوضوح تام، يقفز في المروج مع شبكة صيد الفراشات، رأيته كرسول للفرح، عائدًا من ذلك اليوم الصيفي البعيد ليفتح صندوق عيّناته ويخرج الفراشات الأكثر جمالًا، الأدميرالات الحمراء، الطاووسية، الكبريتية ودروع السلحفاة ليشير إلى تحرّري الأخير. بأية حال كان والدي معارضًا للخطوبة السريعة. لم يكن فقط منزعجًا من الفرص غير المؤكدة لعازف البوق الفرنسي، لكنه أيضًا ادّعى أن الارتباط المقترح سيفصلني بالضرورة عن العقيدة اليهودية. في النهاية لم ينجح توسّلي في إقناعه بقدر ما فعلت جهود أمي الدبلوماسية المتواصلة التي لم تكن مهتمة كثيرًا بتدعيم حياتنا التقليدية. وفي أيار التالي، في عيد ميلادي وعيد ميلاد ليو الخامس والعشرين، احتفلنا بخطوبتنا في اجتماع عائلي صغير. بأية حال، أصيب عزيزي فريتز بعد أشهر عدة بالسكتة خلال عزف افتتاحية أوبرا «الهدّاف»[1] لضباط الحامية، وقد كان مجنَّدًا في فيلق الموسيقيين النمساويين. ونُقل إلى لامبيرغ. وسقط صريعًا عن كرسيه. وصف لي موته بعد أيام عدة في برقية عزاء وصلت من فيينا، ولأسابيع تراقصت الكلمات والحروف أمام عيني وفي كل نوع من أنواع التراكيب الجديدة. حقًّا لا يمكنني القول كيف بقيت على قيد

(1) The Freeshooter: هي أوبرا ألمانية من تأليف كارل ماريا فريدريش إرنست فون ڤِيبر.

الحياة، أو كيف تجاوزت ألم الفراق الرهيب الذي أمضَّني ليل نهار بعد موت فريتز، أو ما إذا تجاوزته يومًا حقًا. بكل الأحوال، طوال فترة الحرب عملت ممرضة مع الطبيب كوسيلوفسكي. كانت جميع مباني المنتجع المعدني والمصحة في كيسنيغن ملأى بالجرحى والناقهين. كلما ذكّرني وافد جديد بفريتز، في المظهر أو السلوك، ستغمرني مأساتي من جديد، وهذا ربما ما دعاني للاعتناء بهؤلاء الشبان عناية فائقة -كان البعض منهم مصابين على نحو خطير -كما لو بفعل ذلك قد أنقذ حياة عازف البوق. في شهر أيار من عام 1917 وصلت فرقة من جنود المدفعية أفرادها مصابين بجروح بليغة، من بينهم ملازم كانت عيناه مضمَّدَتَيْن. كان يدعى فريدريش فرومان، وكنت أجلس إلى جانب سريره طويلًا بعد انتهاء واجباتي، أرتقب حدوث معجزة ما. مرت عدة أشهر قبل أن يتمكن من فتح عينيه المسفوعتين ثانية. كما كنت قد خمّنت، كانتا عينا فريتز خضراوين ضاربتين إلى الرمادي، لكن مطفأتين وعمياوين. بناء على طلب فريدريش بدأنا سريعًا نلعب الشطرنج، أصفُ النقلات التي قمنا بها أو التي أراد أن يقوم بها بالكلمات - فيل إلى د6، الرّخ إلى ف4، وهكذا. ببراعة استثنائية للذاكرة، سرعان ما كان فريدريش قادرًا على تذكر المباريات الأكثر تعقيدًا، وإذا ذاكرته خيّبته، لجأ إلى حاسة اللمس. كلما تحرّكت أصابعه عبر القطع، بعناية دقيقة وجدتها مدمّرة، إذ كنت دومًا أتذكّر أصابع عازفي وهي تتحرّك على مفاتيح آلته الموسيقية. مع اقتراب السنة من نهايتها، أصيب فريدريش بعدوى لا يمكن التعرّف عليها وتوفي على إثرها خلال أسبوعين. كاد يكون موتي أنا أيضًا، كما قالوا لي في ما بعد. فقدت كل شعري الجميل وخسرت أكثر من ربع وزني، وتمدّدت لوقت طويل في

هذيان شديد يتدفّق وينحسر. كان كل ما رأيته فيه فريتز وفريدريش وأنا، بمفردي، منفصلة عنهما. ولا أعرف لمن كنت مدينة بالشكر لتعافيَّ التام غير المتوقَّع في آخر ذلك الشتاء، أو ما إذا كانت كلمة «الشكر» هي الكلمة المناسبة، بحسب معرفتي بكيف يتجاوز المرء الأوقات الصعبة في هذه الحياة. قبيل نهاية الحرب كوفئت بوسام «صليب لودفيغ» تقديرًا لما سموه بذل النفس للخدمة. ثم انتهت الحرب ذات يوم بالفعل وعاد المقاتلون إلى الوطن. اندلعت الثورة في ميونيخ. جمع الجنود المتطوعون قوّاتهم في بامبيرغ. اغتيل فالي إيسنر على يد أنطون آركو فالي. استُردت ميونيخ وفُرضت الأحكام العرفية. قُتل لاندور، وأُطلقت النار على الشابين ايغلهوفر ولوفينيه، وتم القبض على تولر في القلعة. عندما عادت الأمور أخيرًا إلى طبيعتها وكان العمل عاديًا تقريبًا، ارتأى والدي أن الوقت حان لأن يجد لي زوجًا، جاء بريساخر بزوجي الحالي، فريتز فربر، إلى بيتنا، من ميونيخ، ابنًا لعائلة تعمل في تجارة الماشية، لكن كان هو يعمل على تسوية نفسه في حياة الطبقة الوسطى كتاجر قطع فنّية. وافقت مبدئيًا أن أخطب إلى فريتز فربر فقط بسبب اسمه، ولو أن مشاعري نحوه من احترام ومحبة تنامت على مر الأيام. أحبَّ فريتز فربر، مثل عازف البوق قبله، النزهات الطويلة خارج البلدة. ومثله أيضًا كان بطبيعته خجولًا لكنه مرح قبل أيّ شيء. ذهبنا إلى آلغاو في صيف العام 1921، بُعيد زواجنا، وصحبني فريتز إلى جبال إيفن وهيملشروفن وهوهس ليخت. نظرنا أسفل نحو وديان اوستراختال وايليرتال وويلسيرتال، حيث كانت القرى المترامية هادئة جدًا كما لو أن شرًّا لم يحدث في أي مكان على وجه الأرض. مرة، من ذروة كانزيلزاند، راقبنا عاصفة قوية تحتنا، وعندما عبرت

لمعت المروج الخضراء في ضوء الشمس وغطى البخار الغابات كما لو أنها غُسلت. منذ تلك اللحظة عرفت على وجه التأكيد أني أصبحت لفريتز فربر، وأني سأكون سعيدة بالعمل إلى جانبه في معرض اللوحات المؤسس حديثًا في ميونيخ. عندما عدنا من آلغاو انتقلنا إلى المنزل في شارع شتيرنفارت حيث نعيش حتى اليوم. كان خريفًا بهيًّا، تبعه شتاء قاس. حقًّا، لم تثلج كثيرًا، لكن الحديقة الإنجليزية كانت لأسابيع من دون توقّف أعجوبة من صقيع متجمد لم أر له مثيلًا أبدًا، وفي ساحة تيريزينفيز افتتحوا حلبة تزلج للمرة الأولى منذ اندلاع الحرب، حيث كنت وفريتز نتزلج في منعطفات رائعة واسعة النطاق، هو في سترته الخضراء وأنا في معطفي بحوافه المصنوعة من الفراء.



عندما أفكر بتلك الأيام، أرى ظلالًا زرقاء في كل مكان –مكان وحيد فارغ، يمتد نحو غسق أصيل متأخر، يتقاطع مع مسارات



المتزلجين المتلاشية. فكرت كثيرًا بمذكرات لويزا لانزبيرغ منذ أن سلّمني إياها فربر، كثيرًا جدًّا حتى إني شعرت في أواخر شهر حزيران من العام 1991 بأن عليَّ القيام برحلة إلى كيسنغن وشتيناخ. سافرت عبر آمستردام، كولونيا، وفرانكفورت، وكان عليَّ أن أبدّل القطارات مرات عدة، وأجلس طويلًا أنتظر في إشافنبورغ وفي مقصف محطة غيموندين، قبل أن أصل إلى وجهتي. مع كل تغيير كانت القطارات تزداد بطئًا وقصرًا، إلى أن وجدت نفسي أخيرًا، في الرحلة من غيموندن إلى كيسنغن، على متن قطار (إذا كانت تلك الكلمة المناسبة) مؤلَّف فقط من محرّك وعربة واحدة -شيء لم أكن قد تخيّلت وجوده. على الجهة المقابلة لي مباشرة، على الرغم من وجود الكثير من المقاعد الفارغة، جلس رجل مربع الرأس سمين ربما يبلغ الخمسين من عمره محدثًا ضجيجًا. كان وجهه متوردًا ومبقعًا بالأحمر وعيناه متدانيتين كثيرًا ومحوَلّتين قليلًا، ويلهث بصوت مسموع. حرّك لسانه القبيح، الذي لا يزال مكسوًا ببقايا الطعام، في فمه نصف الفاغر. جلس مباعدًا ساقيه، معدته وبطنه محشورتان على نحو رهيب في سروال صيفي قصير. لم أعرف ما إذا كان قبح رفيق سفري العقلي والجسدي ناجمًا عن

حصر نفسيّ طويل، أو وهن غريزي، أو ببساطة من شرب البيرة وتناول الطعام بين الوجبات. شعرت بانشراح بالغ إذ خرج الوحش عند أول محطة بعد غيمتيندن، تاركًا إياي وحيدًا تمامًا في العربة مع امرأة مسنّة على الجانب الآخر من الممر كانت تأكل تفاحة كبيرة جدًا، ساعة كاملة حتى وصولنا إلى كيسنغن لم تكن كافية إلا بالكاد لتنهيها. تبع القطار منحنيات النهر، عبر الوادي المعشوشب. عبرْتُ تلالًا وغابات ببطء، استقرت ظلال المساء على الريف، وتابعت العجوز تقسيم التفاحة، شريحة فأخرى، بمدية أمسكت بها مفتوحة في يدها، تقضم القطع، وتبصق القشر على منديل ورقي في حضنها. لم يكن في كيسنغن سوى سيارة أجرة واحدة في الشارع المقفر أمام المحطة. قال لي السائق جوابًا على سؤالي، إنه في تلك الساعة خلد زبائن المنتجع إلى النوم. كان الفندق الذي قادني إليه قد تم تجديده للتو تمامًا على الطراز النيو إمبراطوري الذي كان الآن آخذًا بالانتشار في عموم ألمانيا ويغطّي بتروٍّ بظلال خفيفة من الأوراق الخضراء والذهبية على فترات زمنية زائلة من الذوق السائد في سنوات ما بعد الحرب. كان البهو مهجورًا مثل ساحة المحطة. توجّست مني المرأة في الاستقبال التي كان فيها شَبَهًا من رئيسة دير، خشية أن أكدّر صفوها، وعندما دخلت إلى المصعد وجدت نفسي بمواجهة زوجين غريبين مسنّين حدّقا بي بعدائية باطنية، إن لم يكن برعب. كانت المرأة تمسك صحنًا صغيرًا بيديها الشبيهتين بالبراثن، عليه قطع من النقانق. بطبيعة الحال استنتجت أن هناك كلبًا في غرفتهما، لكن في صباح اليوم التالي، عندما رأيتهما يأخذان قصعتين من شراب توت العليق وشيئًا من قدر الفطور لفّاه في منديل، أدركت أن مؤونتهما لم تكن لكلب مزعوم بل لهما.

بدأت يومي الأول في كيسينغن بجولة في ساحات المنتجع المعدني. كانت البطّات لا تزال نائمة على المرج، وزغب أشجار الحور الأبيض ينجرف مع الهواء، وبعض السابحين المبكرين يتجولون على طول الدروب الرملية مثل أرواح تائهة. كان هؤلاء الناس من دون استثناء، يقومون بنزهاتهم الصباحية البطيئة بشكل مؤلم في سن التقاعد، وبدأت أخشى أني سأكون محكومًا بأن أمضي بقية عمري بين زبائن كيسنغن الدائمين الذين كانوا على الأرجح متشاغلين قبل كل شيء بحالة أمعائهم. لاحقًا جلست في مقهى، ثانية محاطًا بأناس مسنين، يقرأون صحيفة Saale-Zeitung المحلية في كيسنغن، كان اقتباس اليوم، في ما يسمى عمود التقويم، من يوهان فولفغانغ فون غوته، يقول: عالمنا جرس مكسور توقّف عن الرنين. كان الخامس والعشرين من حزيران، وفقًا للصحيفة، كان القمر هلالًا ويوافق ذكرى ميلاد الشاعرة النمساوية انغبورغ باخمان، والكاتب الإنكليزي جورج أوَرويل. وتذكّرت الصحيفة أعياد ميلاد فتية آخرين راحلين: مصمم وصانع الطائرات فيلي ميسير شميت (1898-1978)، الرائد في علم الصواريخ هيرمان أوبيراث (1894-1990)، والكاتب هانز مارشويتزا من ألمانيا الشرقية (1890-1965). كان من ضمن إعلانات الموت، كما عنونت صفحة الوفيات، إعلان عن وفاة الجزار المتقاعد ميكائيل شولتايز من شتيناخ (80). كان مشهورًا للغاية. كان عضوًا مخلصًا في نادي السحابة الزرقاء للمدخنين وجمعية الجنود الاحتياطيين. أمضى معظم وقت فراغه مع رفيقه المخلص الألزاسي، برينز. ممعنًا التفكير في المعنى المميز للتاريخ البادي في مثل هذه الملاحظات. ذهبت إلى دار البلدية. هناك، بعد أن أشير عليَّ بالذهاب إلى مكان

آخر مرات عدة وأخذت فكرة عن السلام الأبدي الذي يعم أروقة غرف مجلس البلدة الصغيرة، انتهيت أخيرًا عند موظف مكتبي مذعور في مكتب بعيد على نحو خاص، أصغى غير مصدِّقٍ ما قلته ثم شرح أين كان يقع الكنيس ودلّني على المقبرة اليهودية. كان المعبد السابق قد استُبدل بما كان معروفًا بالكنيس الجديد، مبنى سمج من مطلع القرن على طراز نيو -رومانسي استشراقي على نحو غريب، خُرِّب عمدًا ليلة الكريستال ثم تم تدميره كليًا في الأسبوعين التاليين. حلت مكانه الآن في شارع ماكس، مباشرة مقابل المدخل الخلفي لمجلس البلدية، مديرية العمل.



أما بالنسبة للمقبرة اليهودية، ناولني الموظف المسؤول بعد عدة محاولات للبحث بين المفاتيح المعلقة على الجدار، مفتاحَين مرفق بكل منهما بطاقة تعريف، وقدم لي الإرشادات التالية المميزة

بطريقة ما: ستجد المقبرة الإسرائيلية إذا انطلقت جنوبًا في خط مباشر من مجلس البلدية مسافة ألف خطوة حتى تصل إلى نهاية شارع بيرغمان. عندما وصلت البوابة تبين أنّ أيًا من المفتاحين لم يطابق القفل، لذا تسلّقت الجدار. لم يكن ما رأيته يتّصل بالمقابر كما قد يتخيلها المرء، بدلًا من ذلك، امتد أمامي عدد كبير من قبور مهملة لسنوات، تنهار وتغرق تدريجًا في الأرض وسط عشب طويل وأزهار بريّة تحت أفياء الأشجار التي ارتعشت في الحركة الخفيفة للهواء.





كان يوجد حجر على بعض القبور هنا وهناك ليشهد على أن شخصًا لا بد زار أحد الموتى. ومَنْ يعلم منذ متى.



لم يكن ممكنًا تفسير جميع النقوش المنحوتة، لكن مع ذلك جعلتني الأسماء التي استطعت قراءتها -هامبورغر، كيسينغر، ويرثيمر، فريدلاندر، ارنسبرغ، أورورباخ، غرونوالد، لوثهولد، سيلغمان، فرانك، هيرتز، غولدستاوب، باومبلات وبلومنثال -أفكر أنه ربما لم يكن هناك أمر حسد الألمان اليهود عليه بقدر ما فعلوا تجاه أسمائهم الجميلة، المرتبطة بحميمية بالغة بالبلد الذي عاشوا فيه وبلغته. صدمة الاعتراف سرت فيَّ عند قبر ماير ستيرم،المتوفاة في الثامن عشر من شهر أيار، يوم ميلادي، وكنت متأثرًا، بطريقة عرفت أني لن أتمكن من سبر غورها يومًا تمامًا، برمز ريشة الكاتب على شاهدة قبر فريدريكه هالبليب التي فارقت هذه الحياة في الثامن والعشرين من شهر آذار العام 1912 - تخيلت قلمها بيدها، وحيدة تمامًا، منكبّة على عملها مقطوعة الأنفاس. والآن، وأنا أكتب هذه السطور، يبدو كما لو أني/ فقدتها، وكما

لو أني/ لم أتمكن من تجاوز الفقد. على الرغم من مرور سنوات عدة على رحيلها. مكثت في المقبرة اليهودية حتى الأصيل، أذرع صفوف القبور جيئة وذهابًا، أقرأ أسماء الموتى، لكن ما إن أوشكت على المغادرة حتى اكتشفت شاهدة القبر الأحدث عهدًا، ليس بعيدًا عن البوابة المقفلة، كان عليها أسماء ليلي ولازاروس لانزبرغ، فريتز ولويزا فربر. أفترض أن خال فربر ليو قد وضعها هناك. يقول النقش إن لازاروس لانزبرغ توفي في تيريزينشتات عام 1942 وإن فريتز ولويزا رُحّلا، مجهولَيْ المصير، في تشرين الثاني من عام 1941. وحدها ليلي التي انتحرت، مسجاة في ذلك القبر. وقفت أمامه لبعض الوقت، غير عارف بماذا أفكر، لكن قبل أن أغادر وضعت حجرًا على القبر وفقًا للتقاليد.



رغم أني كنت، أثناء الأيام القليلة التي أمضيتها في كيسنغن وفي شتيناخ (التي لم تستبق على أدنى أثر من طابعها السابق)، منشغلًا للغاية ببحثي وبالكتابة نفسها التي كانت تسير بمشقة كما

دومًا، شعرت بازدياد أن الفقر العقلي ونقص الذاكرة اللذين وسما الألمان، والفعالية التي محوا بها كل شيء، كانت آخذة بالتأثير على رأسي وعلى أعصابي. قررت بالتالي أن أغادر أسرع مما كنت قد خططت له، كان القرار الأسهل اتخاذه طالما أن تحرياتي لم تكشف إلا القليل في ما يتعلّق بعائلة لانزبرغ ولو أنها أثمرت الكثير عن التاريخ العام ليهود كيسنغن.




Motorbootfahrt Bad Kissingen - Saline G.m.b.H.

Rückfahrkarte

1934

Fahrzeiten siehe Fahrpläne. Fahrpreis siehe Tarif.

Fahrkarte aufbewahren u. auf Verlangen vorzeigen.



لكن مع ذلك لا بد أن أقول شيئًا عن الرحلة التي قمت بها إلى الهياكل الملحية[1] على متن زورق آلي كان راسيًا عند حافة ساحات المنتجع. عند نحو الساعة الواحدة من بعد ظهر اليوم الذي سبق مغادرتي، ساعة تناول رواد المنتجع لوجبة غدائهم المضبوطة بالحمية، أو انغماسهم في نهم غير مراقَب في مطاعم معتمة، نزلت

---

(1) وهي الهياكل التي كانت في السابق جزءًا من أعمال استخراج الملح في القرون الوسطى التي أغلقت لانخفاض كمية الملح المستخرجة بواسطتها، لكنها لا تزال تستخدم حتى اليوم من أجل المحاليل الملحية لاستخدامات طبيّة، كما أقامت إدارة المنتجع الصحي هياكل جديدة وهي في شكلها الجديد عبارة عن ممرات مسقوفة تفيد للعلاج باستنشاق الرذاذ الملحي (انهالاتوريوم).

إلى ضفة النهر وركبت الزورق. كانت المرأة التي تقوده تنتظر سدى، حتى تلك اللحظة، ولو مسافرًا واحدًا. كانت هذه السيدة التي سمحت لي بسخاء أن ألتقط لها صورة، من تركيا، تعمل منذ سنوات لصالح هيئة نهر كيسنغن. بالإضافة إلى قبعة القبطان التي اعتمرتها بمرح، كانت ترتدي، على سبيل امتياز إضافي لوظيفتها، فستانًا من قماش الجورسيه الأبيض والأزرق، ذكّرني (ولو من بعيد) بزي البحارة. تبيّن سريعًا أن سيدة الزورق لم تكن فقط خبيرة في مناورة قاربها في مجرى النهر الضيق لكن أيضًا كان لها آراء عن العالم جديرة بالاعتبار. ففيما نحن نسير عبر نهر السال قدّمت لي بلغتها التركية بعض الشيء لكن مع ذلك بألمانية مرنة للغاية، بعض العيّنات المؤثرة للغاية من فلسفتها النقدية، جميعها بلغت منتهاها في فكرتها المتكررة كثيرًا عن أنه لم يكن هناك نهاية للحماقة، ولا شيء يوازيها خطورة. وقالت إن الناس في ألمانيا، حمقى تمامًا مثلهم في ذلك مثل الأتراك، بل ربما أكثر حماقة. كان سرورها واضحًا لإيجادها أذنًا صاغية لآرائها التي صرخت بها فوق خبط محرك الديزل والمؤكدة بذخيرة تخيلية من الإيماءات وتعابير الوجه، قالت إنها نادرًا ما حظيت بفرصة للتحدّث إلى مسافر، ناهيك عن شخص لديه ولو ذرة من قوة الفهم. دامت رحلة المركب نحو عشرين دقيقة. عندما انتهت، افترقنا بمصافحة الأيدي وباحترام متبادل كما أعتقد. لم تكن الهياكل الملحيّة التي رأيتها مرة واحدة فقط في صورة قديمة تبعد كثيرًا عن منبع النهر، بالقرب من الحقول. كان المبنى الخشب، من النظرة الأولى، بنيانًا غامرًا، بطول مئتي متر تقريبًا وعلى ارتفاع عشرين مترًا بالتأكيد، ولكن، كما علمت من المعلومات المعروضة في خزانة ذات واجهة زجاجية،

كان جزءًا فقط من مجمّع كان أكثر امتدادًا سابقًا. لم يكن متاحًا الدخول حاليًا -إشعارات بالخطوات المشروحة عن أن إعصار السنة السابقة جعل من الضروري فحص الهيكل -لكن، طالما أنه لم يكن هناك مَنْ يمنعني، صعدت إلى الدهليز الممتد على طول المجمع على ارتفاع نحو خمسة أمتار.

من هناك يمكن للمرء أن ينظر عن قرب إلى الغصينات الشائكة التي كانت مرصوصة في صفوف بارتفاع السطح. كانت المياه المعدنية المرفوعة بواسطة محطّة ضخ من الفولاذ تجري نحوها، وتتجمّع في جرن طويل تحت الهيكل.



ذرعت الدهليز صعودًا ونزولًا لوقت طويل أستنشق الهواء المالح، وأنا مأخوذ تمامًا بحجم المجمع وبالتحوّل المعدني المطّرد الذي يحدث نتيجة تدفّق المياه المعدنية المستمر على الغصينات، كان أقل نفس من الهواء محمّلًا بعدد هائل من القطرات الصغيرة.



أخيرًا جلست على مقعد في إحدى البسطات التي تشبه الشرفة عند الدهليز، وطوال ذلك الأصيل أغرقت نفسي في المشهد وفي صوت ذلك المسرح المائي، وفي تأملات حول العملية المصمتة طويلة المدى (كما أعتقد) التي تنتج عندما ترتفع كثافة الملح في المياه. وأكثر الأشكال المتحجّرة أو المتفحّمة غرابة. وتشابه الأشكال النامية للطبيعة حتى في شكلها السائل.



أثناء شتاء العامَيْن 1990و1991، في وقت الفراغ القليل (بتعبير آخر غالبًا في ما سُمّي عطلة نهاية الأسبوع وأثناء الليل) كنت أعمل على رواية ماكس فربر المقدَّمة أعلاه. كانت مهمة صعبة. غالبًا لم

أتمكن من القيام بذلك لفترات امتدت ساعات أو أيامًا في كل مرة، وفي أحيان نقضت ما كنت قد قمت به، ملتاعًا باستمرار بوساوس كانت تضيّق خناقها عليّ وتشلّني بثبات. لم تكن هذه الوساوس تتعلّق فقط بموضوع قصتي الذي شعرت بأني لم أتمكن من إنصافه، مهما كانت الوسيلة التي جرّبتها، لكن أيضًا عمل الكتابة المفنّد برمته. كنت قد كتبت مئات الصفحات بخربشتي المتعجّلة، بقلم الرصاص وقلم الحبر الجاف. الجزء الأكبر تم شطبه، أو نبذه، أو طمسه بالإضافات إلى حد بعيد. حتى بدا لي ما أنقذته في النهاية باعتباره النسخة «الأخيرة» شيئًا من مزق ورُقع. عمل رديء تمامًا. لذا ترددت في إرسال ترجمتي المنقوصة لحياة فربر إليه، وأنا في ترددي وصلتني أنباء من مانشستر مفادها أن فربر قد نُقل إلى مستشفى ويتنغتون مصابًا بنفاخ رئوي. كان مستشفى ويتنغتون في السابق مدرسة إصلاحية تعود إلى العصر الفيكتوري، خضع فيها المشردون والعاطلون عن العمل لنظام صارم. كان فربر في جناح الرجال مع ما يزيد على عشرين سريرًا، حيث الكثير من التأوّهات والتمتمات، ولا شك قدر كبير من المحتضرين. وجد أنه يكاد يكون مستحيلًا عليه أن يستعمل صوته، وبالتالي رد على ما قلته له فقط بين فترة طويلة وأخرى، في محاولة للتحدث بدت مثل حفيف الأوراق الجافة في الرياح. مع ذلك، كان واضحًا بما فيه الكفاية شعوره بأن حالته كانت شيئًا مخجِلًا وصمَّم على تجاوزها بأسرع ما يمكن، بطريقة أو بأخرى. كان شاحبًا والتعب ظلَّ ينال منه. مكثت معه لما يقارب ثلاثة أرباع الساعة قبل أن أغادر وأقطع طريق العودة الطويل عبر جنوب المدينة، على طول الشوارع التي تبدو بلا نهاية –طريق بورتون، طريق شجر الطقسوس، طريق كلاريمونت، شارع ليولد

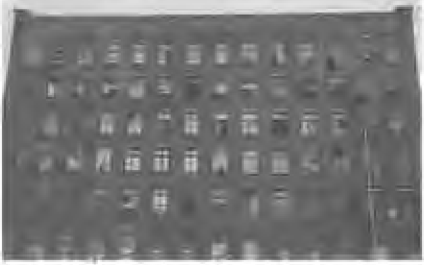
العُلوي، شارع ليولد الشمالي -وعبر ممتلكات هولم المهجورة التي أعيد بناؤها في بداية السبعينات وقد تُرِكَت الآن لتنهار ثانية. في شارع كامبريدج هاير عبرت بالعنابر حيث المراوح كانت لا تزال تدور في النوافذ المكسورة.



كان عليّ أن أعبر تحت الطرقات المدنية السريعة، فوق جسور القناة والأرض البور، إلى أن ظهرت أمامي أخيرًا، في ضوء النهار المتلاشي، واجهة فندق الميدلاند، تبدو مثل قلعة خيالية. في السنوات الأخيرة، منذ أن سمح له دخله، استأجر فربر جناحًا هناك، وأنا أيضًا كنت قد استأجرت غرفة لقضاء هذه الليلة. شُيِّد الميدلاند أواخر القرن التاسع عشر، من قرميد كستنائي اللون وبلاط السيراميك الصقيل بلون الشوكولا الذي لم يكن الهباب ولا المطر الحامضي قادرًا على مَسّه. يقوم البناء على ثلاثة طوابق تحت أرضية، وستة طوابق فوق الأرض، ومجموع ما لا يقل عن ستمائة غرفة، وكان سابقًا شهيرًا في طول البلاد وعرضها بأنابيب المياه الفاخرة. كان الاستحمام هناك كالوقوف في الرياح الموسمية. وقد كانت أنابيب

النحاس الأحمر والأصفر كانت المصقولة جيدًا دومًا، واسعة جدًا حتى إن المغطس (بطول ثلاثة أمتار وعرض متر واحد) يمكن أن يمتلئ خلال اثنتي عشرة ثانية فقط. علاوة على ذلك، كان الميدلاند مشهورًا بميدان النخيل، وكما ذكرت مصادر عدة، جوّه الشبيه بجو البيوت البلاستيك الذي جعل كلًا من النزلاء والعمال يتصبّبون عرقًا، ونقل عمومًا الانطباع بأن المرء هنا في قلب هذه المدينة الشمالية برياحها الباردة الرطبة الأبدية كان في الحقيقة على جزيرة استوائية مباركة محفوظة لمالكي المطحنة، حيث حتى الغيوم في السماء كانت مصنوعة من القطن، إذا جاز القول. اليوم الميدلاند على شفا الدمار. نادرًا ما يصادف المرء في البهو المسقوف بالزجاج، غرف الاستقبال، سفرات السلالم، المصاعد والممرات نزيل فندق أو إحدى خادمات الغرف أو نُدُل يتجوّلون كالمسرنمين. إذا كانت التدفئة البخارية الأسطورية تعمل، فهي غريبة الأطوار، تنزل قشور من الترسّبات من الصنابير، ألواح النوافذ مغطاة بطبقة سميكة من السخام معرّق بالمطر. عموم قطع الأرض الخاصة بالبناء مغلقة، ومن المحتمل أنها مسألة وقت فقط قبل أن يغلق الميدلاند أبوابه ويُباع ويتحوّل إلى واحد من سلسلة فنادق هوليداي إن.





عندما دخلت غرفتي في الطابق الخامس شعرت فجأة كما لو أني في فندق في مكان ما في بولندا. المدخل القديم الطراز وضعني بغرابة في مزاج بطانة من المخمل الخمريّ الباهت، داخل صندوق جواهر أو حقيبة كمان. لم أخلع معطفي، وجلست على أحد الكراسي المخملية في ثغر النافذة عند زاوية الغرفة أراقب هبوط الظلام في الخارج. كان المطر الذي بدأ ينهمر عند الغسق يتدفق في قنوات الشوارع، تسوطه الريح، وفي الأسفل كانت سيارات الأجرة السوداء والحافلات ذات الطابقين تعبر الأسفلت اللمّاع، متتابعة أو متقاربة مثل قطيع من الفيلة. صعد هدير متصل من الأسفل إلى مكاني بجوار النافذة، لكن مرت أيضًا لحظات من صمت تام من حين إلى آخر. اعتقدت في واحدة من هذه الفواصل الموسيقية (ولو أنها كانت مستحيلة تمامًا) بأني سمعت الفرقة الموسيقية تدوزن آلاتها، وسط صوت حركة الكراسي المعتادة وتنظيف الحناجر. في صالة السوق الحرة المجاورة، وبعيدًا، بعيدًا في المسافة، سمعت أيضًا مغنية الأوبرا الصغيرة التي كانت تغنّي في قاعة ليستون للموسيقى في الستينات، تغني مقتطفات طويلة

من أوبرا «بارسيفال»[1] بالألمانية. كانت قاعة ليستون الموسيقية في مركز المدينة، ليس بعيدًا عن حدائق بيكاديللي، فوق ما يسمى «واين لودج» حيث كانت تستريح المومسات وتشربن من صنبور خمرًا أستراليًا موضوعًا في براميل كبيرة. كان كل من يرغب يمكنه الصعود إلى المنصة في قاعة الموسيقى تلك، ومع جدائل من دخان مندفع، يؤدي قطعة من اختياره لجمهور متنوع جدًا وغالبًا ثمل للغاية، تصحبه سيدة ترتدي بثبات الحرير الزهري بالعزف على آلة أرغن فورليتزر. عمومًا الخيار يقع على أغانٍ شعبية وأغانٍ عاطفية شهيرة كانت شائعة حينها. **بلدتي القديمة تبدو على حالها وأنا أترجّل من القطار**[2]، هكذا تبدأ مفضّلة موسم شتاء العامين 1966 و1967. **وهناك ماما وبابا جاءا ليرحّبا بي**. مرتان في الأسبوع، في ساعة متأخرة عندما جمع الناس المائج والأصوات المجاورة لمغنّي التينور البطولي الجهنمي المعروف باسم سيغفريد، الذي لا يمكن أن يتجاوز طول قامته مترًا ونصف المتر، ستستولي على المنصة. كان في أواخر أربعيناته، يرتدي معطفًا ذا زخارف متعرجة يصل تقريبًا حتى الأرض يعتمر قبعة «هومبورغ» مائلة إلى الخلف. قد يغنّي «O weh, des Höchsten Schmerzenstag» أو «Wie dünkt mich doch die Aue heut so schön» أو ثمة آريوزو[3] مؤثرة، ولا يتردّد بتمثيل الإخراج المسرحي والتوجيهات من مثل «بارسيفال على وشك الإغماء» مع الأداء المسرحي المطلوب. والآن، وأنا جالسٌ في غرفة برجية في وسط البلاد فوق الهاوية في

(1) أوبرا من تأليف ريتشارد فاغنر.
(2) أغنية للمغني البريطاني توم جونز.
(3) شكل غنائي يقف بين الإلقاء الملحَّن والآريا.

الطابق الخامس، سمعته مجددًا للمرة الأولى منذ تلك الأيام. جاء الصوت من بعيد جدًا فكان كما لو أنه يمشي خلف شقق الجناح من طبقة عميقة بما لا يقاس. على تلك الشقق، غير الموجودة في الحقيقة رأيت صورًا متتالية من معرض كنت قد رأيته في فرانكفورت السنة السابقة. كانت صورًا فوتوغرافية ملوّنة، مصبوغة بأزرق مخضرّ أو خمريّ، لحي اليهود في ليتزمانشتات الذي تأسس عام 1940 في المركز الصناعي البولندي في «وودج». كان معروفًا باسم مانشستر البولندية.



كانت الصور الفوتوغرافية التي اكتُشفت العام 1987 في حقيبة صغيرة، مصنفة بعناية ومعنونة، في متجر تاجر عاديات في فيينا، قد التُقطت كتذكارات شخصية لماسك دفاتر وخبير مالي اسمه غينوين من ضواحي سالزبورغ وكان هو شخصيًا في واحدة من الصور، يعدّ النقود جالسًا إلى مكتبه. أظهرت الصور أيضًا عمدة مدينة ليتزماندشتات، هانز بيبو، في يوم مولده، نظيف جدًّا وبفرق شعر

متقن، إلى طاولة مزخرفة بسرخس الهليون ويرزح تحت نباتات في أصص، باقات زهور، كعك ولحوم باردة. كان هناك رجال ألمان أيضًا مع صديقاتهم وزوجاتهم، جميعهم دون استثناء في مزاجٍ غالٍ. وكانت هناك صور لحي اليهود، حجر رصف الطرق، مسارات عربات الترام، واجهات المنازل، أسيجة خشبية، مواقع مهدمة، جدران للحماية من الحريق، تحت سماء كانت رمادية، خضراء فاتحة اللون، أو بيضاء وزرقاء -صور موحشة بغرابة، بالكاد أظهرت إحداها شخصًا حيًا، على الرغم من حقيقة أنه أحيانًا كان هناك أكثر من مائة وسبعين ألف شخص في «ليتزمانشتات»، في منطقة لا تزيد مساحتها عن خمسة كيلومترات. سجَّل المصوّر أيضًا المنظمة النموذجية داخل الحي اليهودي: النظام البريدي، الشرطة، قاعة المحكمة، الإطفائية، مصلحة التخلص من النفايات، الحلّاقين، الخدمات الصحية، دفن الموتى، والمقبرة. فيما يبدو كان أكثر ما يهمه، إظهار «صناعتنا»، أعمال الحي اليهودي «الغيتو» التي كانت أساسية لاقتصاد زمن الحرب. كانت النساء في هذه المواقع الإنتاجية التي كان أغلبها معدًا للصناعات الأساسية، جالسات يصنعن السلال، وكان تلامذة الصنعة منشغلين في محل صنع الأدوات المعدنية، رجال يصنعون الرصاص أو يعملون في مصنع المسامير أو مخزن الذخيرة، وفي كل مكان كان هناك وجوه، وجوه لا تعد، رفعت بصرها عن عملها، وكان هذا مسموحًا، عمدًا وفقط للجزء اللازم من الثانية لالتقاط الصورة. قالوا إنَّ العمل سبيلنا الوحيد، جلست ثلاث شابات خلف الإطار الشاقولي لنول، ربما في العشرين من عمرهن. ذكّرتني الأشكال الهندسية غير المنتظمة للسجادة التي كن ينسجنها، وألوانها أيضًا، بالأريكة

في غرفة الجلوس في بيتنا. الشابات لا أعرفهن. يقع الضوء عليهن من النافذة في الخلفية، لذا لا أستطيع تمييز عيونهن بوضوح، لكني أحس بأن ثلاثتهن كنَّ ينظرن نحوي. أحسّ بأني واقف على نفس البقعة التي وقف عليها غينوين المحاسب مع آلة التصوير. الشابة في الوسط شقراء وتبدو كأنها عروس. أمالت النساجة إلى يسارها رأسها قليلًا إلى أحد الجانبين، بينما المرأة إلى اليمين تنظر إليَّ بثبات وقسوة تحديقة لم أستطع مواجهتها طويلًا. أتساءل ما كانت أسماؤهن–روزا، لويزا وليا، أو نونا، ديكوما ومورتا، بنات الليل، مع مغزل، مقص وخيط.



الفهرس

مكتبة بغداد
المغتربون

ف.ج. زيبالد

بعد أن تُرجمت أعمال زيبالد إلى العديد من لغات العالم، لأول مرة يُترجم إلى اللغة العربية، مع أن اسمه ورد على قوائم المرشحين لجائزة نوبل، ولاقت رواياته المديح من أبرز النقاد في العالم. كما اختيرت رواية «المغتربون» كأفضل كتاب في عام 1996.

يكتب زيبالد بلغة أنيقة، مع أنها خالية من التنميق، ليبني شخصيات نكاد نحسّ بكل الآلام والتجارب التي عاشتها. فمن خلال تأملاتٍ في الذاكرة والفقد يعيد زيبالد خلق حيوات أبطال روايته عبر سرد قصصهم وذكرياتهم مستخدماً الصورة كجزء من السرد. يستحضر زيبالد هؤلاء الرجال أمام أعيننا فقط كي يجعلهم يتلاشون في «شوق إلى الاندثار». ينتحر اثنان منهما ويموت الثالث في المنفى، وأما الرابع فلا يزال يعيش في ظلال البغض والحقد حتى بعد مرور أكثر من أربعين عامًا على وفاة والديه في ألمانيا النازية.

وعلى الرغم من أن أيًا من أبطال الرواية لم يعش في معسكرات الاعتقال، إلا أنهم جميعًا ظلّوا مسكونين بآثار ما حملته ذاكرتهم عن تلك المعتقلات. عانوا جميعهم من الذنب والاكتئاب، وحتى بعد سقوط النازية بوقت طويل، وتحمّل هؤلاء الأفراد المنفيين ذلك العذاب الذي تختزنه الذاكرة وما تتسبب به من انهيارات عاطفية.

ف.ج.زيبالد: وُلد في ألمانيا عام 1944 وتوفي في عام 2001. هو روائي وأديب وباحث ألماني عاش في بريطانيا منذ عام 1970. فاز بجائزة برلين الأدبية عن هذا العمل الاستثنائي.

تصميم الغلاف: علاء طاهر

ISBN 978-977-6483-81-1
9 789776 483811

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
تونس - بيروت - القاهرة

المغتربون

ف.ج. زيبالد

بعد أن تُرجمت أعمال زيبالد إلى العديد من لغات العالم، لأول مرة يُترجم إلى اللغة العربية، مع أن اسمه ورد على قوائم المرشحين لجائزة نوبل، ولاقت رواياته المديح من أبرز النقاد في العالم. كما اختيرت رواية «المغتربون» كأفضل كتاب في عام 1996.

يكتب زيبالد بلغة أنيقة، مع أنها خالية من التنميق، ليبني شخصيات نكاد نحسّ بكل الآلام والتجارب التي عاشتها. فمن خلال تأملاتٍ في الذاكرة والفقد يعيد زيبالد خلق حيوات أبطال روايته عبر سرد قصصهم وذكرياتهم مستخدماً الصورة كجزء من السرد. يستحضر زيبالد هؤلاء الرجال أمام أعيننا فقط كي يجعلهم يتلاشون في «شوق إلى الاندثار». ينتحر اثنان منهما ويموت الثالث في المنفى، وأما الرابع فلا يزال يعيش في ظلال البغض والحقد حتى بعد مرور أكثر من أربعين عامًا على وفاة والديه في ألمانيا النازية.

وعلى الرغم من أن أيًا من أبطال الرواية لم يعش في معسكرات الاعتقال، إلا أنهم جميعًا ظلّوا مسكونين بآثار ما حملته ذاكرتهم عن تلك المعتقلات. عانوا جميعهم من الذنب والاكتئاب، وحتى بعد سقوط النازية بوقت طويل، وتحمّل هؤلاء الأفراد المنفيين ذلك العذاب الذي تختزنه الذاكرة وما تتسبب به من انهيارات عاطفية.

ف.ج.زيبالد: وُلد في ألمانيا عام 1944 وتوفي في عام 2001. هو روائي وأديب وباحث ألماني عاش في بريطانيا منذ عام 1970. فاز بجائزة برلين الأدبية عن هذا العمل الاستثنائي.

تصميم الغلاف نجاح طاهر

ISBN 978-977-6483-81-1
9 789776 483811

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
تونس - بيروت - القاهرة